إلياس

من وحي القرآن والسنّة

تأليف

أ د عقيل حسين عقيل

2017م

المحتويات

المقدّمة	3
إلياس من وحي القرآن	19
من صفات النبي إلياس	87
1 . رسول:	87
2 . تقي:	146
3 . مسلَّم عليه:	156
4 . مُحسن:	212
5 . مؤمن:	221
6 . صالح:	228
النبي إلياس من السنّة	233
دعوة إلياس توحيدا:	236
عبادات البعل من دون الله:	307
مقتل العبد الصّالح وفتنة الملك؟:	309

المقدّمة

عاش إلياس عليه السّلام في القرن التاسع قبل الميلاد في عهد ملك من ملوك بني إسرائيل الذي اتخذ معبودا من دون الله؛ وكان يراه مجيبا للدّعاء، ولكن لما تعرّض ابنه للمرض القاسي ودعاه شافيا لابنه؛ فلم يجبه، ثم انتظر ودعاه ثانية وثالثة ورابعة فلم يجبه شيء، من بعدها عرف أنّه لا يجيب.

وكان المعبود الذي اتخذه الملك إله لبني إسرائيل هو ذلك الصّنم الذي جاءته به زوجته الفنيقية التي استمالت الملك (زوجها) ضعيف الشخصية إلى عبادة الأوثان.

كان إلياس عليه السّلام نبيا ورسولا لبني إسرائيل بعد أن ظهرت فيهم عبادة الأصنام؛ فكان داعيا لعبادة الله واحد أحد لا شريك له، ولكنّ دعوته وجهت بالرّفض الشديد، وبخاصّة من ملكهم أجب. فدعا إلياس ربّه: "اللهم إنّ بني إسرائيل قد أبو إلا الكفر بك والعبادة لغيرك؛ فغيّر ما بهم من نعمتك؛ فأوحي الله إليه إنّا جعلنا أمر أرزاقهم بيدك فأنت الذي تأمر في ذلك؛ فقال إلياس: اللهم فأمسك عليهم المطر؛ فحبس عنهم ثلاث سنين، حتى هلكت الماشية والشجر، وجهد النّاس جهدا شديدا"[1].

ويذكر ابن كثير أنّ رسالة النبي إلياس عليه السّلام كانت لأهل بعلبك غربيّ دمشق وأنّه كان لهم صنم يعبدونه يسمي (بعلا) وقد

---

[1] تفسير الطبري، جامع البيان ت شاكر، 21، ص 98.

ذكره القرآن الكريم على لسان إلياس حين قال لقومه: {أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ وَاللَّهَ ربّكُمْ وربّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}2.

ولهذا فالنبي إلياس يدعوا إلى التوحيد الذي هو قيمة تسليميّة حيث لا مجال للمشاركة ولا للمثال ولا إمكانيّة للثنائية والجمعيّة، ولا إمكانية للمشاهدة للمطلق في قوله وفعله وهو الواحد الذي لا يتعدّد. فالتوحيد قرار عن وعي بأنَّ الخالق واحد أحد، وهو لم يكن سبب ولا علّة ولا شيء، ذلك كونه خالق السّبب والعلّة والشيء، ومن بلغ معرفة أهمّيّة التوحيد يستطيع أن يعدّ ممّا لا يُعدّ، ويُحصي ممّا لا يُحصى، أي بإمكانه أن يعرف الكثير، ويتعلّم من أجلّ معرفة المزيد؛ فهو بعد أنْ وحّد خالقه فتح على نفسه أبواب المعرفة الواسعة هيّ كما هيّ حقّائق تتعدّد.

إذن التوحيد نجاة من الضلال، وهداية إلى الحقّ، ولكن لا يمكن أن يكون التوحيد بيّنة ما لم يعمل العاقل بمدركاته العقلية فيحرّكها يمينا حتَّى يعرف أنَّه لا يمين غيره، ويحرّكها شمالا حتَّى يُدرك أنَّه لا شمال غيره، ويحركها علوّا حتَّى يدرك أنَّه لا علوّ غيره، ويحركها أسفلّ حتَّى يدرك أنَّه لا أسفل غيره، وعليه أن يُفكّر قبل أن يقّرر، من الذي جعل اليمين واحد، واليسار واحد، والعلوّ واحد، والسُفل واحد، أي هل الذي خلق هذه الآحاد واحد أم متعدّد؟

التوحيد قيمة حميدة تخلّص عقل الإنسان من الشكّ والظن في غير محلّهما، أي هي التي تجعل العقل يشكّ ويظنّ، ولكن لأنَّه عقل خُلق على حُسن التقويم فلا ينبغي أن يشكّ أو يظن فيما لا شكّ ولا ظنّ فيه. أي يجب أن يشكّ ويظن في كلّ ما فيه شكّ أو ظنّ.

---
[2] الصافات 125، 126.

ولسائلٍ أن يسأل:

ولماذا الشكّ والظنُّ أصلا؟

نقول:

لأنَّه ليس كلّ ظاهر عاكسا لحقّيقة الكامن، أي ليس كلّ ما يقال يسلّم به حقّيقة؛ فالنّاس بين صادقٍ وكاذبٍ، ولهذا ليس هناك بدّا إلَّا الشكّ الذي ينقذ من السير في المتاهات الخطأ.

ولسائلٍ أن يسأل:

وبما أنَّ الأمر كذلك؛ فكيف لنا بالتوحيد بدون شكّ ولا ظنٌّ؟

نقول:

هل يمكن أن يكون شيئا مصنوعا من غير صانع سابقٍ عليه وجودا؟

إذا كانت الإجابة بنعم.

نقول متسائلا:

هل يمكن أن يكون الخلق ما لم يكن من ورائه خالق؟

إذا كانت الإجابة بنعم.

نقول:

إذن لابدّ أن يكون الخالق سابق على ما يُخلق.

وعليه فالتوحيد هو رسالة جميع الرّسُل عليهم الصّلاة والسّلام، وأنّ الكافرين دائما يرتعدون من ذلك، ولذا كان سؤالهم عن الإله، وهذا لسان حالهم، حيث أنّهم يؤمنون بالإلهة، التي هي من اختياراتهم

كالشمس والقمر والنجوم والنّار، أو من أيديهم الصانعة لها كالأصنام، ولأنّ لسان حالهم وإيمانهم هو وجود الإله القريب لمشاهداتهم وحواسهم. لذا لم يرتق تفكيرهم إلى الله المجرّد من المشاهدة المادّية كما كانوا هم يعتقدون. فكانت الإجابة قل لهم يا محمّد أنّه (أنا الله) الذي لا مثيل له ممّا يعتقدون ويتوقعون أو لا يتوقعون.

وبما أنّه الواحد الذي لا يماثله شيء.

إذن الواحد الذي لا يماثله شيء لا يمكن أن يشتق من شيء.

والقاعدة تقول لا يشتق شيء من شيء إلا وهو على حالة من التماثل معه. ولذا من يقبل بأنّ اسم الله مشتق من اسم إله فعليه أن يقبل بالتماثل مع المشتق منه، وإذا قبل بذلك يجد نفسه على غير قاعدة.

ولأنّ الإله مخلوق (القمر والنجوم والشمس والنّار والأصنام وغيرها ممّا اتخذ آلهة من دون الله). ولأن الله هو الخالق. إذن كيف يؤمن الإنسان باشتقاق الخالق من المخلوق!!

ولذلك لا أحد يتماثل مع الله عزّ وجلّ، فالذي لم يكن له كفؤا أحد، لا يماثله أحد في الصورة ولا المضمون ولا الاسم. وعلينا أن نتبيّن الفرق بين الاسم والمسمى، فالاسم اسم الله، والمسمى الآخر (الإله مسمى)، و(أسماؤنا مسميات)، أما الله فلم يسمه أحد، حتى يقال عنه المسمى، فاسمه عزّ وجلّ في ذاته. {إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ}3. إذن بما أنه قال تعالى: (أنا الله) والله لا يماثله شيء في الصورة ولا المضمون ولا الاسم. إذن (لا إله إلا الله). إي لا إله من دونه (لا معبود من دونه) فلا وجود لمن يستحقّ العبادة غيره، فالذي سُمي

[3] الشعراء، 9.

بالإله يقول الله ليس هو أنا ولهذا قال تعالى: (لا إله إلا الله) أي لا إله غيري، وبالتالي من تعتقدون بأنّه أنا فهو ليس كذلك (لا إله إلا الله) ولهذا نهى الله العباد عن اختيار آلهة من دونه، حيث لا وجود لمن تعتقدون بأنّه إله غيري، فأنا الله. أما أولئك الذين اتخذتموهم من دوني فهم ليس أنا، وهذه تحمل في مضمونها حكم وجوبي لتركهم، ومن لم يترك هذا الأمر ويتخلى عنه سيكون مشركا، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}4 ولهذا لا يعد الإله من أسماء الله الحسنى، بل الإله مسمى من قبل البشر وبالتالي جاء الخطاب على لسان حال الذين أطلقوا هذا المسمى (المعبود) الذي يقبل التعدد. ولذلك فالله هو الواحد الأحد الذي تتعدد صفاته التي بها يُسمى وهو لا يتعدد. وهنا يتضح الفرق بين اسم الله وبين بقية أسمائه التي يتصف بها ويحقّ لنا أن نسميه بها ما يجعله المسمى بصفاته الحسنى.

أمّا الله تعالى فهو الاسم الأعظم المطلق الذي لا يقتصر على صفة أو خاصية واحدة، بل هو الذي تتعدد فيه الصفات التي يتضمنها ويحتويها في أسمائه الحسنى، والتي إن نعدها لا نحصيها، {وإن تَعُدّوا نعمة الله لا تُحصُوها}5 وهذا لا يعني أن نعمة الله غير محصية، بل تعني أنّ قدراتنا المحدودة لا تستطيع حصرها وعدها، مع أنّ الله أحصى كلّ شيء وعده عدًّ {إِنْ كلّ مَنْ فِي السّماوات وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرّحمن عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا}6.

إذن بالنسبة لله كلّ شيء مسجلّ إحصاءً وتعدادا، أما بالنسبة لنا نحن بني الإنسان فغير قادرين على ذلك، وإلا هل هناك من

---

[4] طه، 8.

[5] إبراهيم، 34.

[6] مريم، 93 . 95.

يستطيع أن يحصوا ما تراه العين أو يُحسُّ به وما لا تراه العين ولا يُحسُّ به مع أنّه موجود من حولنا وعلى مقربّة منا، وكذلك يمتد إلى ما يبعد عنّا إلى مالا نهاية حيث قدراتنا القاصرة أمام مقدرته تعالى.

ينتفي التماثل مع الله في الفعل والاسم والمضمون والصورة، {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}7. لا إله نفي، لاعتقاد ظني في إله يفيد ويضر، أو يقربّ من ويبعد عن، مع تأكيد على الوحدانية (هو الله). واستثناء الإله الذي ينسب إلى الذين ألهوه باختياراتهم أو لرغباتهم وحسب ظنونهم. ولذا فإن اسم الإله يرتبط بتأليه (تعلّق) من البشر لغير الله. أما اسم الله تعالى فلا يرتبط بالإله إلا لسبب تقريب المعنى والدلالة للذين يظنون باعتقاداتهم في الآلهة حتى يتبين لهم المعنى المرشد إليه وهو الله.

إذن لا إله إلا الله، تعني أنَّ الإله ليس هو الله، وبما أنه ليس هو الله. إذن لا يُمكن أن يكون من اشتقاقاته، (ليس من اشتقاقات اسم الله). الإله مسمى بشري أطلقه البشر على ما يعبدون، أما اسم الجلّالة (الله) فمسمى ذاتي مصداقا لقوله تعالى في سورة الشعراء: (أنا الله) ولهذا اسمه غير مشتق، ولا يُشتق منه مسمى. فلو سلمنا بأنه بالإمكان أن يشتق منه مسمى نسلم أيضا في الوقت ذاته بالتعدد، وهذا أمر مستحيل حيث الله واحد لا يتعدد ولا شريك له.

ولذلك جاء اسم الله اسم علم ليدل على ذاته، ومجموع صفاته الحُسنى. وهذا ما يخالف ما ورد في بعض المشتقات اللغوية التي تسند اسمه تعالى إلى اشتقاق من (ألَه) التي تعني التحيّر في وعدم الاهتداء إلى، ويقال أنّه مشتق من (الوله) وهو ذهاب العقل والحب الشديد،

---

[7] الحشر، 22.

الذي قد يؤدّي إلى ذهاب العقل من التعقل. ويقال إنّه مشتق من (لاه) ولهذا جاءت (أله وألوهة وألاهة) وهذه تدلّ على أن الإله هو المعبود بحقّ أو بباطل، كما ورد في كتاب القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للسيد مجدي منصور الشورى[8]. ولذلك يتم الاتفاق في هذا الأمر مع ابن القيم رحمه الله تعالى قال: "زعم السهيلي وشيخه ابوبكر ابن العربيّ أن اسم الله غير مشتق؛ لانّ الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له، فيستحيل الاشتقاق ولا ريب أنّه أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألمَّ بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم والقدير والغفور والرّحيم والسميع والبصير وبقية صفاته الحسنى"[9]. ولأن الإله تؤلهه اختيارات بشر، لذا يرتبط الإله بالبشر لأنه منهم، أما الله تعالى فلم يؤلهه أحد، بل ألهى ذاته، حيث (ليس كمثله شيء). وبما أن ليس كمثله شيء. إذن لماذا المقارنات والاشتقاقات من آخرٍ لا يساويه في شيء؟ وهل الله في حاجة لأن يُعرِّف بغيره؟ الذي يُعرّف بغيره يمكن أن يكون نكرة، والله تعالى لم يكن ولن يكون نكره. ولهذا يُعرّف الله جلّ جلّاله بذاته العلية. وهو ليس بناقص حتى يُعرَّف بآخر ليستدل عليه. ولهذا فالله تعالى يُستدل به لا يُستدل عليه بآخر.

ولأنّ إلياس من المرُسلين الكرام جاء لقومه هاديا للتي هي أحسن وأقوم بقوله تعالى: {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ

[8] مجدي منصور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة: مكتبة العلم، 1999م، ص 29.

[9] المرجع السابق، ص 30.

أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ ربّكُمْ وربّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}10.

أي أنّ إلياس جاء مُرسلا لقومه لأجلّ أن يتّقون، ولهذا فرسالته هي رسالة تقوى وتوحيد لله ربّ العالمين.

ولذا؛ فقد بيّنَ الله تعالى لخلقه كيفية عبادتهم إياه عن طريق الأنبياء والرّسُل لمنع العذر وإسقاط الحجة، فقال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرّسُل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}11.

لقد أنذر اللهُ فأعذر، حتى لا يكون للناس على الله عذر يوم القيامة يعتذرون به قائلين: لولا أرسلت إلينا رسلا يبيّنون لنا الشرائع، ويعلموننا ما لم نكن نعلم من الأحكام، وينبهوننا من سنة الغفلة، فكانت الرّسُل تُرسل (تترى) بسبب قصور الكثير من النّاس عن إدراك جزئيات المصالح، وعجز أكثرهم عن إدراك كلّياتها، قال تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كلّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}12.

فهذه الآيات هي دلائل على أن إرسال الرّسُل وبعث الأنبياء للخصوص والعموم والكافة هي ضرورة للناس، ونعمة من الله ورحمة بهم، وهي أيضا حُجّة قاطعة في التبليغ، لذلك قال تعالى: {وَمَا كُنَّا

[10] الصافات 123 . 126.

[11] النساء 165.

[12] المؤمنون 44.

مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}13. فقد جاء الخطاب شاملا لأقوام الخاص والعام والكافة، وهي منتهى الحكمة البالغة من وجوه:

الأوّل، قوله: (رسولا) جاءت نكرة فأفادت الشمول واستغرقت كلّ من يعذَّب أو لا يعذَّب.

الثاني: الدعوة إلى الهدى والردع عن الضلال في إقامة الحُجج وتمهيد الشرائع قطعا للعذر.

الثالث: بعث الرّسُل واجب لا بمعنى الوجوب على الله، وإنّما بمقتضى حكمته لما فيه من المصالح للخلق.

ولذا؛ فقد كان بعث الأنبياء والرّسُل لحكمة وبحكمة.

أ . إرسالهم لحكمة، لأنّه تعالى يعلم أنّ النفس أمّارة بالسوء، فتحتاج إلى من يقوّمها ويردها إلى طرق الهدى وسُبل الرشاد، فكان إرسال الرّسُل لحكمة الله تعالى في مصلحة خلقه، ومحبّة لهم ورحمة ورأفة بهم، وهذه المعطيات تتحقّق عن طريق إرسال الرّسُل بالإيمان بالله تعالى وما جاء به المرسلون، من الإيمان بالله وباليوم الآخر الذي يجازي فيه بالخير خيرا وبالشر شرا، إنَّه قانون في العدالة لا مثيل له فهو يشمل العموم في دفع الإنسان إلى عمل الخير، وتتميز حكمة الله في هذا الأمر بأن الإنسان الذي يتبع ما جاء من عند الله عن طريق الرّسُل يحقّق ما يلي:

1 . يهذب النفس من الداخل وينظم مشاعره وفق الأخلاق والقيم النبيلة، لأنّ هذه الأمور هي حاجة عامة لا تقتصر على إنسان دون آخر أو قوم دون قوم.

---

[13] الإسراء 15.

2 . يُمكِّن الإنسان من حفظ نفسه في عدم الخروج على أحكام الله حيث لا مراقب إلا قناعة الإيمان.

3 . إنَّ عمل الخير الصادر عن النفس المؤمنة يكون عملا متقنا باعتباره صادرا عن إرادة الإنسان في رغبته وليس مكرها عليه.

وما تقدم فإنّه لا يخص قوما دون آخرين ولا شخصا دون آخر، وإنّما حاله يسري على كلّ قوم من الأقوام التي بعث الرّسُل إليها، وذلك لاتحاد النفس الإنسانية فيما تحب وتكره، وما ترغب وترفض من معطيات الحياة الدنيا.

ب . إرسالهم بحكمة وذلك يتمثل بأن الأنبياء والمرسلين هم من البشر، فمنهم للخصوص ومنهم للعموم ومنهم للكافة على فترات، بحيث كلّما ابتعد النّاس عن طريق الحقّ أرسل الله رسولا يردّهم إلى جادة الصواب، قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرّسُل أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ}[14].

ولأنّ إلياس متقي فقد كان أمرا بالمعروف وناه عن المنكر من خلال دعوته لتوحيد الله وطاعته وبما أمر جلّ جلّاله، (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ ربّكُمْ وربّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ).

فالأمر على المستوى البشري غير محدد يمكن أن يكون أمر زواج ويمكن أن يكون أمر طلاق ويمكن أن يكون أمر مشاركة وتعاون وإعمار وإصلاح في الأرض ويمكن أن يكون أمر إفساد وسفك دما فيها بغير حقّ ويمكن أن يكون الأمر سياسة داخلية أو سياسة خارجية ويمكن أن يكون أمر سلم أو أمر حربّ ويمكن أن يكون أمر

[14] المائدة 19.

قتال وجهاد وغيره كثير، ولذلك فأمر الآمر يتعدد ويتنوع؛ فقد يكون الأمر هو الفتح الذي به يدخل المسلمين الأمصار بعد أن تتم دعوة أهلها للهداية أو أن يكون الأمر اتفاق تتم به المعاهدات والمواثيق التي تنصّ على تبادل المنافع والتعاون إلى حين الهداية وهكذا، قال تعالى: {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ}15.

وعلى المستخلفين في الأرض أن يتبيّنوا كلّ أمر يتعلق بأمورهم في الحياة سواء أكانوا مع أنفسهم أم مع محيطهم من الأقاربّ والأباعد وسواء أكانوا مع الآخرين على المستوى الإنساني وأن يرسم سياساتهم وفقا لِما أمر الله تعالى ليكونوا خير خلفاء في الأرض وخير وارثين في الدّارين.

ولأنّ إلياس متقي لذا فهو الناهي عمَّا يجب الانتهاء عنه، (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ ربّكُمْ وربّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ).

الناهي هو الذي يعلم ما يترتب على ارتكاب الأفعال التي تؤدّي إلى المهالك قبل أن تُفعل فينهى عنها حيطة.

والناهي هو المبيّن لِما هو حرام ولما هو حلالا وما يقع بينهما من معطيات تؤدّي إليهما فينهى عن المؤدي السالب ويحث ويحرض على المؤدي الموجب.

وفي اللغة "النَّهْيُ خلاف الأَمر نَهاه يَنْهاه نَهْيا فانْتَهى وتناهى كَفَّ؛ والنِّهايةُ كالغاية حيث يَنْتَهِي إليه الشيء وهو الإنهاء"16.

---

[15] المائدة 52.

[16] لسان العرب، ج 15، ص 343.

ولذا؛ فالناهي جلّ جلّاله ينهى كي لا تكون الفتن والشقاق والعداوة والبغضاء والاقتتال بين العباد، ولهذا جاء إلياسين ناهٍ لقومه عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الفتن والفرقة والعداوة والبغضاء، فكان نهيه لقومه عن عبادة ما يشركون به ويكفرون، ومع ذلك فقد كذبوه كما كذبت الأقوام رُسُلها من قبله، قال تعالى: {أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ ربّكُمْ وربّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}17.

إذا طاعة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وأمره طاعة لله تعالى، ونهي الرّسول هو نهي من عند الله تعالى، فنهي الرّسول من نهي الناهي الأعظم عزّ وجلّ، ولذا فالنهي بين المؤمنين من أجلّ إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل هو طاعة لأمر الناهي تعالى، فالذين آمنوا بالحقّ مع إلياس صلّى الله عليه وسلّم هم من الناهين ولهذا فهم لا يتماثلون مع الذين لا ينهون عن منكرٍ فعلوه.

المسلَّم عليه هو المعزّ من عند المعزّ الأعظم جلّ جلّاله، ولهذا فالسلام على إل ياسين كان دليل عزة ومناصرة وتأييد وتقدير خاص لرسولٍ خاص هو إل ياسين صلّى الله عليه وسلّم، {سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ}18.

ولأن المعزّ هو المقدَّر تقديرا عاليا لذا جاء السلام عليه من عند الله عزّ وجلّ طمأنة على نفس وقلب إل ياسين صلّى الله عليه وسلّم الذي كان رسولا طائعا لأمر الله وهاديا لقومه ليكونوا على الطاعة والإخلاص لله الواحد القهّار، وفي هذا الأمر قال ابن القيم في نونيته:

---

17 الصافات 125 . 128.

18 الصافات 130.

وهو المعزّ لأهل طاعته وذا... عزّ حقّيقي بلا بطلان19.

ويقول مشرف الحمداني الغامدي بالتمام كما جاء في لسان العربّ: "العز خلاف الذل ويقال عزه على أمر يعزه إذا غلبه عليه والعزّة القوّة والغلبة"20.

وقال البيهقي: "المعزّ هو الميسّر لأسباب المنعة"21.

ولذا؛ فالمعزّ هو المحب، والمعزّة لا تبنى إلا على علاقة متصلة ورضا ومحبّة.

وفي هذا الشأن يقول الله تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}22. فالذي يجعل الخلفاء لا يخافون لومة لائم هو مصدر العزّة الذي يسندهم ويحمي ظهورهم فيُحفِّزهم على الإقدام دون تردد من أجلّ قول الحقّ وفعل الحقّ وعمل الحقّ.

وعليه المعزّ هو مصدر العز الذي منه العزّة تُستمد، وهو الذي يعِزُّ جُند الحقّ بالآتي:

[19] شرح أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته الواردة في الكتب الستة. حفصة بنت عبد العزيز، الرياض، دار القاسم، ص 236.

[20] منهج الإمام ابن القيم في شرح أسماء الله الحسنى، ص 429.

[21] المرجع السابق، ص 430.

[22] المائدة، 54.

أولا ـ عزّة النيّة: النية تكمن في الضمير، مثلما تكمن الفكرة في العقل، ومثلما تكمن النبتة والشجرة في البذرة والنواة، ومثلما يكمن صفاء الزيت في نقاء حبَّةُ الزيتون، كذلك تكمن العزّة في صفاء النية.

ولذا؛ فبالنية تُعزَّز الأقوال والأعمال والأفعال والسلوكيات، فلا قول بدون فكرة سابقة عليه، ولا عمل إلا ومن ورائه غاية، ولا فعل إلا والتصميم دافعه، ولا سلوك إلا بقوة الحركة.

ولهذا، تؤسس العبادات جميعها على النية، أي أن النية هي المعزّزة للصوم فبدونها يصبح الصوم امتناع عن الأكلّ أو إضراب عنه، وبدونها تصبح فريضة الحج حركة جماعية أو تظاهرة بشرية استعراضية ليس إلا. وبدون النية قد توصف الصلاة بأنها حركة أو مران رياضي أو ما شابه ذلك، وأيضا قد توصف الزكاة بدون نية بأنها صدقة أو تبرعات مادية.

وعليه: فإنّ النيّة هي المعزّزة للقول الهادف والفعل الهادف والعمل والسلوك الهادفين؛ ولتبيان ذلك علينا باستعراضها وفقا لدائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع) حتى نستبين الحقّ من الباطل:

ثانيا ـ عزة القول: القول في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع يُمكِن أن يكون حُجَّة لنا ويُمكن أن يكون حُجَّة علينا، فعندما يكون حُجَّة لنا يُعزز مواقفنا بدون تردد، وعندما يكون حُجَّة علينا يُضعفها ويعزز مواقف آخرين.

ولذا؛ فالخليفة دائما تكون الحُجَّة له ولا تكون عليه، ولهذا لقد أعز الله رسوله إل ياسين بالسلام عليه وأخصه به خصوصية رفعة وعلو منزلة وعظمة رسالة (سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) فكانت له العزّة بالبيِّنة التي تُظهر الحقّ وتُزهق الباطل،

ولذلك لا إظهار للحقّ ولا إزهاق للباطل إلا بالقوّة الظاهرة في القول بالبيّنة.

ثالثا . عزة الفعل: لا يُمكن أن يكون للفعل عزة تسنده إن لم تكن من ورائه نية. ولا يمكن أن يكون للنية قوة إن لم يكن من ورائها حقّ يسندها مصداقا لقوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالحق عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}23. وقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}24. وعليه لا عزّة للفعل إلا بتحقّيقه.

رابعا . عزة العمل: العمل في دائرة الممكن يمكن أن يكون سالبا، ويمكن أن يكون موجبا، فإن كان إصلاحا في الأرض كان موجبا، وإن كان إفسادا فيها، كان سالبا، وبذلك يكون الجزاء هو المترتب على الفعل بالثواب إيجابيا وبالعقاب سلبيا. وفي ذلك يقول الله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}25. ويقول تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}26.

وعليه بقوله تعالى: (سلام على إل ياسين) نال إل ياسين اعترافا وتقديرا عظيمين بأنه في مرضاة الله عزّ وجلّ. وكما كُتبت هذه الشهادة من الله جلّ جلّاله لإل ياسين كذلك كتبت لرسول الله محمّد

---

[23] الأنبياء، 18.

[24] ياسين، 82.

[25] فصلت، 46.

[26] النور، 55.

صلّى الله عليهما وسلّم قال تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}[27]. والحمد لله ربّ العالمين.

أ د عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017

---

[27] الأنعام، 19.

إلياس

من وحي القرآن

إلياس صلّى الله عليه وسلّم هو رسول مُرسل لقومه لتكون على يديه مهمة دعوتهم لتوحيد الله وعدم الشّرك به وعدم الكفر به، وذلك ليكون الحقّ سائدا بين النّاس حتى لا يظلم أحد آخر وليتقي النّاس ربّهم الذي خلقهم في أحسن تقويم وهو يريدهم أن يكون على ما خلقهم عليه من صفة الحُسن في التقويم وفيما يقوِّم الأخلاق ويرفع المكارم بين النّاس.

لقد بدأت مهمة إلياس بنهي قومه عمَّا يعبدون مشركين من أربّاب من دون الله ودعوتهم إلى توحيد الله، فهو الواحد الأحد الذي لم يلد ولم يولد وليس لد مثال ولا شبه ولا صاحبة إنّه الله جلّ جلّاله، قال تعالى: {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ ربّكُمْ وربّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}28.

لقد جاء استغراب واستفهام إلياس من قومه الذين كانوا يعبدون إلها من دون الله، وكأنه يقول لهم: كيف للعقل الإنساني الذي خلقه الله في أحسن تقوم أن يقبل عبادة صنما من صنع يديه ويترك عبادة من خلقه خلقا وباركه مباركة حسنة؛ فيا للغرابة الأمر لا يُقبل ولا يُعقل، أنّه الشّرك الكبير؛ فاتقوا الله الذي خلقكم، وأطيعوني في توحيده لتُرشدون، (إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ).

[28] الصافات 123 . 126.

عبادة ذلك الصنم الذي تسمُّونه بعل، هو صنم لا ينفعكم في شيء، ولا يقدر على شيء لكم، يا للاستغراب منكم أيها القوم أتعبدون صنما وتتركون عبادة أحسن الخالقين (الله الواحد القهَّار)!

ولأنّهم يتعلَّلون بانّ ذلك البعل اللعين هو ربّهم وربّ آباءهم وهم على ما ترك آباؤهم عابدون، يقول لهم رسولهم إلياس صلّى الله عليه وسلّم من حيث المفهوم ودلالة المعنى إنَّ الله واحد لا اثنين، فهو ربّكم وربّ آباؤكم الأولين (اللَّهَ ربّكُمْ وربّ آَبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) أي فَمَن الذي خلق آباؤكم الأولين أيها القوم؟

إنَّه الله الذي خلقكم وآباؤكم وخلق كلّ شيء من لا شيء وهو على كلّ شيء قدير.

ومع كلّ ما بذله إلياس مع قومه لأجلّ هدايتهم لله تعالى إلا أنّ أكثرهم كذَّبوه وبقوا على الضلال ضالين غير مهتدين {فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}[29].

تكذيب إلياس من قِبل قومه يؤدّي بهم إلى الجحيم ويؤدّي بالذين صدَّقوه إلى جنَّة النعيم والفردوس العظيم، ولذلك نحن نقول: لا استغراب من حيث أن الأكثرية هي المكذِّبة، فمن قَبلُ إلياس ومن بعده كان أكثر النّاس مكذِّبون وفاسقون ومجرمون وضالون إي أنّ الأقلية دائما هي المهتدية للحقّ، وذلك لأنّ الهداية أمرها ليس هينا؛ فهو يتعلق بمدى امتثال العقل للأمر الذي فيه الطاعة والنهي والاجتناب والعقل أمام معطيات الضعف يضعف شهوة وطمعا وكأنه لم يُخلق في أحسن تقويم، ولأنّ الدين لا يدع له إلا بالتي هي أحسن؛ فالتي هي أحسن إرادية تؤكد حرية المخلوق أمام الخالق، فمن أدركه

[29] الصافات 127، 128.

يقينا واحدا أحد اتبع سُبل الهداية وتذكَّر وفكَّر وأقدم وأمتنع وانتهى عمَّا نهى الله عنه وهو على اليقين أن الخالق هو الرّحمن الرّحيم الذي يرحم عباده في كلّ حين وعند كلّ حاجة وهو على كلّ شيء قدير.

ولأنّ الهداية إرادية بعد التبشير والدعوة والإنذار من قِبل الأنبياء والرّسُل فالأمر هنا يُترك إرادة لمن يتقي ربّه ومن لا يتقيه، ومع أنّ الله قد خلق الإنسان في أحسن تقويم إلا أن الإنسان قد يكون على حالة من الطمع فيضعف كما ضعف أبونا وسيدنا آدم صلّى الله عليه وسلّم أمام تلك الشجرة ومغريات الشيطان ووسوسته اللعينة، {وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكلّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْربّا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا ممّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ ربّهِ كلّمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم}30.

ومع أنّ القائل لأبونا آدم هو الله جلّ جلّاله، (وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكلّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْربّا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ) إلا أنّ آدم قد ضلَّ السبيل ممّا جعله عند تلك الشجرة المنهي عنها أمر من عند الله، ولكن لله في خلقه شؤون لقد بقيت مخالفة أبونا آدم آية لبَنِيه من بعده لتكون لهم درسا يمكِّنهم من الهداية ويُبعدهم عن الضلال ومع ذلك فإن أكثرهم لا يعقلون.

ولأنّ إلياس من الأنبياء والرّسُل العظام فهو مقروء السلام من ربّه عزّ وجلّ، أي أنّه في مرضاة الله كان السلام عليه باقيا إلى يوم

---

[30] البقرة 35 . 37.

يبعثون وهذا السلام هو دليل نيل إلياس لرضا ربّه عزّ وجلّ مصداقا لقوله تعالى: {وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآَخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}31.

ولأنّ إلياسين نبيا كريما فهو بدون شكّ من المحسنين في القول الحقّ، والفعل الحقّ، والعمل الحقّ، والسلوك الحقّ، وفي الإيمان والطاعة الحقّ، ولهذا جازاه الله بخير جزاء، وجزاء المحسنين الفوز بالجنّة، {إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}.

وعليه فإنّ قول النبي إلياس لقومه: (أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ) هو قول من يستمد صفاته من صفات الخالق الذي بيده القدرة والقوّة، أي أنّ الخالق أمدّ إلياس بقوّة الإجابة، وقوّة الخلق لتكون آيات الله بين أيدي المكذبين حقّيقة بيّنة، ولهذا فهو الذي دعاء أن ينزل الضّار ضررا ببني إسرائيل المكذبين فأنزله، وطلب الإحياء فمنح له كما سبق أن بيناه، ولهذا فالخالق هو القادر المجيب لدعاء إلياس عليه السّلام. قال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآَخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}32.

الرّؤية لا يقصد بها الرّؤية البصرية بل يُقصد بها الرّؤية الإدراكية أي الإيمانية حيث جاء الاستفسار أو الاستفهام بصيغة (أو لم يروا) عن الكيفية التي بدأ الخلق عليها، ولذا فبالكيفية التي بدأ بها الخلق تتم الإعادة بذات الكيفية. أي إذا أدركتم يقينا القدرة على الأبداء والإيجاد فإنكم ستدركون القدرة الربّانية على الإعادة. وبما أنه لا أحد

---

31 الصافات 129 . 132.

32 العنكبوت، 19، 20.

ينكر النشأة الأولى، فكيف إذن تُنكر النشأة الآخرة، فمثلما جاءت النشأة الأولى بالقوّة وجوبا تأتي النشأة الآخرة بالقوّة ضرورةً. وهذه وفقا لقاعدة (لكلّ بداية نهاية).

ومن صفات الخالق الآتي:

أوّلا ـ المبدئ:

قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}33. بما أنّه هو الواحد الأحد الذي لم يكن له مثيل ولا شريك في الملك ولم يلد ولم يولد فيكون هو المبدئ لِما خُلق، ولذا فإنّ البداية ليس به، بل البداية منه سبحانه وتعالى وهو على كلّ شيء قدير. فالمبدئ هو الخالق الأول والآخِر ولم يسبقه في الخلق أحد مصداقا لقوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}34 كلّ المخلوقات في أساس خلقها الإنشاء، وفي النشأة الأولى تحددت هيئات كلّ المخلوقات، الإنسان والملائكة والجان والحيوان والجماد والنبات وبقية الكائنات الدقيقة منها وغير الدقيقة. وفي ذلك قال تعالى: {قُلْ جَاءَ الحقّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ}35 جاء الحقّ تعني جاء الكلّم الصادق الذي لا يدخله الباطل من بين يديه ولا من خلفه، إنه الحقّ الذي به زُهق الباطل ولن يعود.

ثانيا ـ المعيد:

هو المبدئ الأوّل الذي بقوته خلق الأشياء وبقوّته يعيدها إلى نشأتها الأولى، ولأنّ المبدئ هو الأوّل والآخر، فلا وجود لغيره لأن

---

[33] الإخلاص، 1 ـ 4.

[34] العنكبوت، 19.

[35] سبا، 49.

يعيد ما بدأ إلى حالته الأولى. قال تعالى: {أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا}36. الذي فطركم أول مرة هو الذي سيعيدكم إلى الحالة التي كنتم عليها قبل أن تكونوا خلقا، ومع ذلك فإن الكافرين مستهزئين بما سمعوا، وذلك بقولهم وهم يهزون رؤوسهم (متى هو؟) ولأنه يقينا وليس كما يظنون قال: (قل عسى أن يكون قريب) أي قل لهم يا محمّد لعله يكون قريبا، حيث علم الساعة لا يعلمه إلا هو جلّ جلاّله، وكلّمة عسى تدل على أن العود سيكون في الزمن المفاجئ، وحتى لا تضيع الفرصة فعليكم بالإيمان قبل أن تحدث المفاجأة وحينها لا ينفع الندم.

قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ}37. جعل الله تعالى الإعادة كالإبداء في الإلزام بها لظهور برهانها في قوله: (قل الله يبدأ الخلق ثم يعيده) أي بطبيعة الحال من يبدئ الخلق يعيده، ولا يمكن أن يكون لآخر المقدرة على هذين الأمرين إلا الذي خلقهما وجبر العلاقة بينهما. ولذا فإن كلّ مخلوق يعود للشيء الذي خُلق منه. الإنسان يعود للتراب وهو الشيء الذي خُلق منه، والملائكة يعودون للنور وهو الشيء الذي خُلقوا منه، والجان يعود إلى النّار وهي الشيء الذي خُلق منه. وهكذا كلّ مخلوق يعود لطينته أي لأصله الأول قبل أن يصبح مُركَّبا من مجموع العناصر المتكون منها أو المركب منها، وفي النهاية يعود الكون إلى الشيء الذي خلق منه وهو الذرة.

---

[36] الإسراء، 51.

[37] يونس، 34.

في علم الفيزياء اثبت العلماء الرّوس أن أساس الخلق ذرة ثم حدث لها الانفجار العظيم فامتدت على امتداد الكون كلّه، وأثبتوا أيضا أن الذرة لابدّ وأن تعود ذرة مرة أخرى وهي النهاية. والقرآن الكريم سابق على ذلك بقوله تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السّماء كَطَيِّ السِّجلّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}[38] وقوله عزّ وجلّ: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}[39].

ثالثا ـ المبعث:

المحيي بعد المَمّات مصداقا لقوله تعالى: {وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكّرون}[40] يقال نزلت هذه الآية في السبعين الذين اختارهم موسى عليه الصّلاة والسّلام حيث قالوا له: (لن نؤمن بك حتى نرى الله جهرة) ولأن الله تعالى لم يكن له شكّلّ ولا هيئة من الهيئات المخلوقة كما هم يتوقعون فهو لا يمكن أن يخضع للرؤية المبصرة، ولأنه الأعظم فلن تكون لهم القوّة المِمكّنة من اختراق قوته ليروه سبحانه وتعالى عمَّا يصفون، وبطلبهم هذا كانت لهم الصاعقة الإجابة القاطعة على تساؤلهم بأنّه مالك الأمر والقوّة التي لا تساويها قوة، وذلك ليتيقنوا بأنه الحقّ ووجوده حقّ. ثم نُشروا من بعد موتهم أحياء وهذه الآية معجزة لهم لعلهم يتذكرون مطلبهم وما جاءتهم من إجابة ليؤمنوا من بعد كفرهم. قال النحاس: "أنه

[38] الأنبياء، 104.

[39] الرعد، 41.

[40] البقرة، 56.

الاحتجاج على من لم يؤمن بالبعث من قريش، واحتجاج على أهل الكتاب إذ خبروا بهذا"41

والبعث هو النشور. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أجلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وربّتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كلّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الحقّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ السَّاعَةَ آَتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ}42. إن كنتم في ريب تعني: إن كنتم في شكّ، فعليكم أن تتذكروا أحوال السابقين وقصصهم التي قصصناها عليكم لتعرفوا أسرار الخلق بداية ونهاية وبعثاً. وإن كنتم في شكّ فعليكم بالتذكر حتى تيقنوا أنكم من تراب، وما المراحل الخلقية التي تمرون بها إلا دليل شاهد على خلقنا وقدرتنا على الخلق في كلّ مرحلة من مراحل النمو الخَلقي. وبأن الخالق عزّ وجلّ هو القادر على الخلق فهو بطبيعة الحال هو القادر على البعث من جديد.

الخالق هو المحيي، أي أنّه الذي يبعث الروح فيما يخلق، ولهذا كلّ شيء يُسبّح بحمده. ولأنّه المحيي فهو يحيي المخلوق في نشأته الأولى، ثمّ يحييه بعد موته من جديد في نشأته الأخرى. ولذا فمن يؤمن بأنّ الله هو المحيي فعليه أن يؤمن بأنّه المميت، وبما أنه المميت

---

41 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الأول، ص 404.

42 الحج، 5 . 7.

فإنه يقدر على الإحياء من جديد. وعلينا أن نؤمن فلو كان الإحياء من المستحيل لكان في الأزل ليس بخالق.

قال تعالى: {وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}43. الفرق كبير بين قول المؤمن الذي تمسَّك باستخلافه في الأرض وبين قول الكافر الذي تخلى عما كان يُراد له أن يكون عليه، فعيسى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم آمن بوجوده كما آمن بموته الذي لم يأتيه بعد عندما قال ما ورد في الآية السابقة، وآمن بأنه سيُبعث حيا من جديد مثلما خُلق أوّل مرّة. فالذي يُؤمن بربّه الخلاَّق يُسلِّم بما يقوله حتى يراه يقينا، والذي لم يؤمن سيظل في حياته في شكّ حتى يأتيه يوم الحساب.

رابعا ـ المحاسب:

قال تعالى: {إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}44 إنَّ إلينا إيابهم: إنَّ إلينا رجوعهم، فإلى الخالق يرجعون للمحاسبة على ما فعلوا في الحياة الدنيا، فإن كانوا من الخلفاء الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا وفقا لِما أمر ونهى فسيجازون الجزاء الأوفى وهو دخول الجنّة. وإن كانوا من الذين وصفوا الله بما لم يصف نفسه به فسيلقون آثاما وسيكونون حطبا في نار جهنم.

المحاسبة حقّ حتى تُجزى كلّ نفس بما كسبت، {الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لَا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ}45 فاليوم يقصد به اليوم الآخر الذي يختلف عن يوم النشأة الأولى، أي أنّه

---

[43] مريم، 33.

[44] الغاشية، 25، 26.

[45] غافر، 17.

اليوم الذي تجاز فيه الأنفس على ما قدمت لنفسها في يومها الأول، الذي أعطي للجميع فرصة لأن يؤمنوا ولا يشركوا ويُصلحوا ولا يُفسدوا، فإن فعلوا خيرا يكون جزاءهم خيرا، وإن فعلوا شرا يكون جزاؤهم العذاب الشديد. وفي هذا اليوم لا يجد الظلم مكانا له، حيث لا سلطان للعباد في شيء كما هو حال يومهم الأول الذي يحكم فيه بعضهم البعض وفيه يظلم العباد بعضهم بعضا، بل السلطان في اليوم الآخِر لله الواحد القهار {لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[46].

قال تعالى: {لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ}[47] الجزاء وفقا لِما عملت كلّ نفسٍ ذنبا أو إحسانا. فالجزاء دائما ليس إثابة، بل الجزاء حساب على ارتكاب أفعال سواء كانت أفعال خير لتنال الأجر الكبير وهو دخول الجنّة، أو كانت أفعال إثم وشر لتنال العقاب الشديد وهو الدخول مع أهل النّار.

قال تعالى: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ}[48]. في هذه الآية عامل الزمن يعد ضرورة للتذكر والتفكر، وإلا ستحدث المفاجأة بقيام الساعة، {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحقّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}[49]. فالذين يؤمنون يعلمون أن الساعة حقّ، ويعلمون أن

---

[46] غافر، 16.

[47] إبراهيم، 51.

[48] الأنبياء، 1.

[49] الشورى، 17، 18.

علمها عند ربّ العلمين، ولأنّهم مشفقون منها فهم يتسابقون على فعل الخيرات، أمّا أولئك الكفرة الفجرة والذين لم يؤمنوا كما يُراد لهم أن يؤمنوا فإنّهم يستعجلّون بها استهزاءا دون مخافة، ممّا يضاعف لهم العذاب الشديد.

خامسا ـ المبقى:

المبقى هو الدائم بالحياة الدائمة، أي بعد الخلق الأوّل في الحياة الدنيا يكون الموت نهاية لفترة من الحياة والعمل سالبه وموجبه، ومن بعد الموت تأتي النشأة الثانية وهي العودة للحياة التي فيها يحاسب الإنسان على أقواله وأفعاله سالبها وموجبها، إلى أن يجازى بإحدى الشيئين الجنّة أو النّار. وفي اليوم الآخر تكون الحياة السرمدية هي الحيوان التي لا مكان فيها للموت. قال تعالى: {وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ}[50]. وقال عزّ وجلّ: {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (16) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى}[51].

الخالق هو الأوّل والآخر الذي خلق الموت والحياة {ليبلوكم أيكم أحسن عملا}[52]، ولأنّه الأوّل والآخر فهو الذي يحيي ويميت، ولهذا فالموت مخلوق مثلما الحياة مخلوقة، إلا أن في البداية الموت يغالب الحياة، وفي النهاية لابدّ للموت من أن يموت حيث كلّ مخلوق لابدّ له من الزوال، ولا يبقى إلا وجه ربّك ذو الجلّال والإكرام. وبموت الموت يُبعث النّاس من جديد، وحينها يكونوا أحياء والموت لم

[50] العنكبوت، 64.

[51] الأعلى، 16، 17.

[52] هود، 7.

يكن كذلك. وبعدما يُعدم الموت إذ تصبح الحياة هي الدائمة بقوة المبقي الدائم. ولذلك من حيث الخلق يمر الوجود بالآتي:

1 . خلق الحياة المؤقتة: الحياة الدنيا مؤقتة فهي التي تمتد من الخلق حتى الموت.

2 . الموت المؤقت: وهو الذي يمتد من ساعة الموت إلى ساعة البعث.

3 . موت الحياة المؤقت: وهو النهاية لكلّ حي مع عدم إضافة الجديد.

4 . موت الموت الدائم: وهو القضاء على الموت نهاية.

5 . خلق الحياة الباقية: وهي الحياة الممتدة بلا نهاية.

وعليه فإن النهاية هي الإبقاء على الحياة وليس الإبقاء على الموت، ولهذا الحياة الدنيا ما هي إلا متاع الغرور {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}[53]. ولذا ينبغي أن لا تغرّنّكم الحياة الدنيا، مصداقا لقوله تعالى: {فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}[54].

الخالق جلّ جلّاله هو البادئ لكلّ شيء ولا شيء بادئ عليه، وهو السابق لكلّ شيء ولا شيء سابق عليه، وهو المعيد لكلّ ما بدأ حتى البقاء الدائم في الحياة الحيوان. {أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ

---

[53] آل عمران، 185.

[54] لقمان، 33.

قَدِيرٌ}[55]. كيف يبدئ الله الخلق تعني كيف يظهره للوجود ثم يُعيده للحالة التي كان عليها، ثم يعيده مرة أخرى ظاهرا للإدراك والملاحظة والمشاهدة. والخليفة هو المؤمن بما يعلم إدراكا وليس فقط مؤمنا بما يرى، فلو كان الأمر كذلك لكان غير مؤمنٍ بالخالق الذي يرانا ولا نراه. ولذلك فإن الخالق هو الأول وهو الآخر الذي له ملك السّماوات والأرض وهو على كلّ شيء قدير {لَهُ مُلْكُ السّماوات وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآَخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[56].

في هاتين الآيتين الكريمتين تتمركز أفعال الخالق في الصفات الآتية:

1 ـ ملك السّماوات والأرض: وهذه تعني أنه مالك كلّ شيء.

2 ـ يحيي ويميت: وهذه تعني أنه فعَّال لما يريد.

3 ـ قادر على كلّ شيء: وهذه تعني أنه خلاَّق المستحيل.

4 ـ هو الأول والآخر: لا يتعدد، فليس له سابق ولا لاحقّ.

5 ـ هو الظاهر والباطن: ندركه يقينا ونرى آياته ولا نراه وهو يرانا.

6 ـ إنه بكلّ شيء عليم: إنه مصدر الأمر والنهي سبحانه.

وعليه فإن الخالق الأول هو خالق الشيء، والشيء نكرة ومصدر ويتعدد.

---

[55] العنكبوت، 19، 20.

[56] الحديد، 2، 3.

نكرة: لأنه غير محدد، ولذا فإن الخالق يخلق كلّ شيء، كما يشاء وكيفما يشاء، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}57.

ومصدرا: لأنّه أصل لأشياء استمدت منه. {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ}58. والتراب هو الشيء الذي خُلق منه آدم.

ويتعدد: لأنّه يتجزأ من الكلّ إلى المتجزئ منه. {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ}59. التراب شيء، والنطفة شيء ثاني، والعلقة شيء ثالث، وهكذا تتعدد الأشياء، فالشمس شيء، وهي مصدر لأشياء أخرى تتعدد، والنجوم أشياء تتعدد، والنور شيء خلق منه شيء آخر وهو الملائكة الكرام، والنّار شيء وهي مصدر لخلق الشيطان الذي نستعيذ بالله منه في كلّ حين.

أمّا الخالق بالإضافة فهو الذي يخلق من الشيء الذي خلقه الله أشياء متعددة ومتنوعة. فيخلق من التراب صناعة، ويخلق بالصناعة ما يُسهِم في إشباع حاجاته المتعددة والمتنوعة والمتطورة. وهو الذي بخلقه يُستخلف في الأرض إصلاحا وفي ذلك فليتنافس المتنافسون. فالخالق بالإضافة هو الخليفة الذي يعلم أنّه لن يخلق الشيء المصدر، ويعلم أنَّ ذلك ليس في نطاق مقدرته، وذلك لعلمه أنها من خاصية الخالق المطلق جلّ جلّاله. ويُسلِّم بأن الأشياء التي خُلقت من أجلّه ينبغي عليه أن يستمد منها ما يفيده في حياته الأولى دون أن يكون على حساب حياته الآخرة.

---

57 البقرة، 20.

58 الروم، 20.

59 غافر، 67.

والخالق بالإضافة له صفتان: مصداقا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ}60.

الصّفة الأولى إصلاحية:

قال تعالى: {أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ}61. مع أنّ الخالق خصَّ المؤمنين بورثة الأرض إلا أن المستهدف هو العموم حيث أبواب الإيمان مفتَّحة لمن يريد أن يؤمن، ومع ذلك فكان الاستدراك الضمني لعل البعض لا يؤمن، ممّا جعل أمر التخصيص متعلقا بمن يؤمن، ولذا قال نبي الله شعيب صلّى الله عليه وسلّم في كتابه عزّ وجلّ: {وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ}62. ما ينهى عنه نبي الله شعيب لا لأن يتركه المنهيون عنه من قومه لينفرد به وحده دون غيره، بل ما يريده تبيان الحقّ من الباطل ليكف قومه عن الباطل ويتمسكوا بالحقّ قولا وعملا. يوفوا الكيل والميزان بالقسط ولا يبخسوا النّاس أشياءهم، فيعدلوا ولا يفسدوا في الأرض مصداقا لقوله تعالى: {وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النّاس أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}63.

والصّفة الثانية إفسادية:

---

[60] البقرة، 220.

[61] الأنبياء، 105.

[62] هود، 88.

[63] الأعراف، 85.

والصّفة الإفسادية، أن يخلق الإنسان ما يؤدّي إلى إفساد الحرث والنسل قال تعالى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ العزّة بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ}[64]. هؤلاء ومن هم على شاكلّتهم يقولون ما لا يفعلون ويُظهرون مالا يُبطنون، وهؤلاء هم الذين تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى {تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ}[65]. وهؤلاء هم المفسدون في الأرض الذين نهى الخالق عن طاعة أمرهم وما يفعلون {وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ}[66].

قال تعالى: {وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}[67]. يقال كان في مدينة الحِجر تسعة من رؤساء القوم المفسدين الذين أقروا عقر ناقة صالح عليه الصّلاة والسّلام، وبطغيانهم في الأرض أفسدوا القيم الأخلاقية التي بها تعمر الأرض وتصلح الأحوال ويُقوَّم السلوك، فكانوا يمكرون بقوم صالح، وأقسموا على الفساد دون الإصلاح، وأقسموا أن لا يعترفوا بذنب يرتكبونه. وبعد أن أخبرهم صالح صلّى الله عليه وسلّم بمجيء العذاب اتفقوا

[64] البقرة، 204 . 206.

[65] الحشر، 14.

[66] الشعراء، 151، 152.

[67] النمل، 48 . 53.

وتحالفوا على أن يأتوا دار صالح عليه الصّلاة والسّلام ليلا ويقتلوه وأهله المختصين به. قال ابن العباس: أرسل الله الملائكة تلك الليلة، فامتلأت بهم دار صالح، وعندما جاء التسعة المفسدين تكفَّل الملائكة بهم رميا بالحجارة حيث هم يرون الحجارة تتساقط عليهم ولا يرون من يرميها. ويقول السّدى: "نزلوا على جرف من الأرض فانهار بهم فأهلكهم الله تحته"68. وهناك أقوال أخرى كثيرة منها من قال: أنهم اختفوا في غار بقربّ دار صالح صلّى الله عليه وسلّم حيث سقطت عليهم صخرة أنهتم جميعا، وهناك من يقول إنَّ هلاك الكلّ كان بصيحة جبريل، وهناك من يقول إنّ التسعة هلكوا بعذاب مفرد والله أعلم69.

ولأنّ الله عزّ وجلّ هو الخالق، فهوى الذي خلق النشأة الثانية مثلما خلق النشأة الأولى، {قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}70. النشأة الأولى من غير سابق، وهي نشأة الشيء المصدر، والنشأة الثانية نشأة لاحقّة للنشأة الأولى، أي أن النشأة الأولى هي نشأة الشيء من لا شيء. أمَّا النشأة الثانية هي: نشأة الشيء من الشيء. ممّا جعل النشأة الأولى تأسيس وبناء، والنشأة الثانية إعادة بناء. وكلّا النشأتين مؤسستين على الأمر (كن)، كن من لا شيء فكانت الأولى، وكن من الشيء، فكانت الثانية. وفي الآية السابقة قال تعالى (النشأة الآخِرة) ولم يقل (النشأة الأخرى) ممّا يدل على أنها النشأة

68 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الثالث عشر, 216 . 217.

69 المصدر السابق، 217.

70 العنكبوت،20.

الدائمة لمن بُعث في الحياة الحيوان. قال تعالى: {قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا}[71].

ولأنّ الله تعالى هو الخالق بالمطلق الأوّل والآخر، وهو القادر على كلّ شيء، فهو بذاته العلية لم يتوقف عن الخلق، يُحيي ويميت، ولهذا فإن النشأة الأولى لم تتوقف ونحن لم نؤتِ من العلم إلا قليلا، لذا كلّما تمكنّا من التقدم العلمي، تعرفنا على الجديد وأضفناه لمعارفنا، ولذلك فالمؤمن يُدرك أنّ الخالق لن يتوقف عن الخلق، بل أنه في الخلق يزيد، ويدرك أنّه لن يتمكن من الاطلاع على كلّ ما خلق، فعقولنا ذات الحيز المحدود لا تسع معرفة ما خلق الله جلّ جلّاله. وعليه لو يدرك الإنسان ذلك ليس له بدا إلا أن يؤمن بالخالق العظيم الذي قال في كتابه العزيز: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[72].

خالق الشيء قادر على هدِّه وإزالته وإعادة بنائه من جديد سواء على الكيفية التي كان عليها أو على كيفية أفضل، ونحن نعتقد أنَّ النشأة الأخرى التي سنكون عليها هي أفضل ممّا نحن عليه الآن، ولذلك يترتب على كلّ شيء مترتب، فلوا عُدنا لما كنّا عليه ستكون الأطماع والخيانة ملازمة لنا، ويكون الظلم والنزاع والخصام والجوع والعطش والزنى بصحبتنا أينما نكون، وإن سلّمنا بذلك نسلِّم بأنَّ الوعد الذي وعدنا الخالق به لن يتحقّق؛ قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الجنّة أَصْحَابَ النّار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا ربّنا حقّا فَهَلْ

[71] مريم، 9.

[72] المؤمنون، 14.

وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ ربّكُمْ حقّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}73، في وعد الخالق لنا أنْ نكون من أهل الجنّة إن كنَّا من المصلحين في الأرض، وإن لم نكن فلن نستخلف في الأرض ولا نرث من بعدها الجنّة، (اللهم أحفظنا ممّا يُبعدنا عنها ومكنَّا ممّا يُدخلنا فيها). قال تعالى: {إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى}74 أي أن الإشباع والريّ والسترة الراقية في الجنّة من غير اكتساب وسعي أو كدٍ ومعاناة، إنّها دار الوفرة ودار الإباحة المطلقة بكلّ خير وحلال ونعيم. قال تعالى: {وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ}75 قال: (جنّاتٍ) ولم يقل (جنّة) ويعني بالنعيم المقيم النعيم الدائم الذي لم يتغير، أي أن الجنات تتعدد بتعدد الوفرة المتنوعة فيها، وأن النعيم الذي يملأ الجنّة لا ينقص وطعمه لذيذ. إنه الوعد الدائم بالجنّة الدائمة.

قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الحقّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحقّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الحقّ أَحقّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لَا يَهِدِّي إِلَّا أَنْ يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الحقّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ}76 في هذه الآيات يُظهر الله القوّة الإعجازية المبطلة لكلّ افتراء أو إدّعاء بغير حقّ، وإلا هل هناك من يقدر على بدأ الخلق وإعادته غير الخالق عزّ وجلّ؟ أنه وحده القادر على خلق الشيء، والقادر على هداية

[73] الأعراف، 44.

[74] طه، 118.

[75] التوبة، 21.

[76] يونس، 34 . 36.

الحقّ. أما الخالق بالإضافة فهو الذي يخلق من الشيء أشياء، ولا يقدر على هداية الحقّ إلا بالإيمان به وإتباعه.

قال تعالى: {اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ}77 القاعدة تقول: (الخالق يتصرف ويتحكّم فيما خلق) ولهذا فالخالق على كلّ شيء وكيل، أي مسيطر ومتحكم ومتصرف بالقوّة. ولأنّنا خَلقُ من خلقه، فهو المتحكم فينا ونحن بإيماننا نطيع. أمَّا نحن الذين نخلق أشياء متعددة من الشيء الذي خلقنا منه الخالق تعالى أو خلقه لنا، فإننا أيضا نسيطر عليها ونتحكم فيها ولكنها لا تطيعنا كما نحن نطيع خالقنا بإيمان. وفوق ذلك مع أنّنا نسيطر ونتحكم فيها إلا أنها في بعض الأحيان تفاجئنا فتنفجر في وجوهنا حتى تأكلّها أو تقضي علينا، وفي هذا الأمر لا تجوز المقارنة مع الخالق الأعظم الذي يتحكم ويسيطر على كلّ شيء دون أن تحدث المفاجأة. سبحانه لا إله إلا هو.

في الآية السابقة، الله خالق كلّ شيء جاءت مطلقة، ولذا فإن الشيء المطلق لا يخلقه إلا الله جلّ جلّاله، أمَّا الشيء النسبي فيخلقه المخلوق المتصف بصفة الخلق من الخالق المطلق، ولذلك فإن أي شيء هو من خلق الله، وإلا هل هناك من يخلق الشيء؟

الشيء لا يخلقه إلا الله، ولهذا فالشيء في ذاته غير محدد، وإذا حُدد أصبح للشيء مسمى كالأرض والقمر والشمس والروح والجن والإنس وهكذا تتعدد الأشياء بمسمياتها، واصل الأشياء واحد في فعل الأمر (كن).

77 الزمر، 62.

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السّماء فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}[78]، وهذا يعني أنَّ ما خُلق في الأرض من حيوان وطير وسمك ونبات هو لنا نحن بني الإنسان، قال تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ}[79]. والمعايش هي الأشياء التي يمكن استثمارها من قِبَل من جُعِلت له فيما يعود عليه بالنفع ويشبع حاجاته المتطورة والمتنوعة. ومن هذه الأشياء يمكنه أن يصنع أشياء تحميه من البرد والحرور ومن الاعتداء عليه بغير حقّ، ومنها يكتشف علما وتقنية ليطوِّر نفسه بما يُمكِّنه من أن يكون خليفة للخالق الأعظم. ولهذا خلق لنا الخالق ما في الأرض جميعا من كنوز إن أُستثمرت فيما يفيد صلحت الأرض بالفعل الاستثماري، وإن استغلت فيما لا يفيد فسدت الأرض بالفعل الاستغلالي.

وعليه فللخالق صفتان:

الأولى الصفة المطلقة وهي الصفة الإعجازية (صفة خلق الشيء من لا شيء) وهذه صفة لله تعالى وهي تحتوي صفتين:

1 . خلق الشيء المصدر كالأرض والهواء والنّور والنّار. وفي ذلك قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السّماوات وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ}[80] وقال عزّ وجلّ: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}[81]، وقال جلّ جلّاله: {الَّذِي خَلَقَ السّماوات وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى

[78] البقرة، 29.

[79] الأعراف، 10.

[80] الأنعام، 1.

[81] الأنبياء، 33.

عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}82، وقال تعالى: {وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ}83. كلّ هذه المخلوقات التي وردت في الآيات السابقة هي أشياء متعددة: فالسّماوات شيء والأرض شيء، وما بين السماوات والأرض أشياء، الظلمات والنور، والليل والنهار، والشمس والقمر، وهكذا تتعدد الأشياء فالجان شيء والمارج الذي خلق منه الجان شيء ثاني، والنّار التي خلق منها المارج شيء أخر. فالحمد لله ربّ العالمين خالق الشيء، وخالق منه الأشياء.

2 . خلق الشيء المستمد من المصدر. كخلق آدم من تراب، وخلق الجان من نار وخلق الملائكة من نور، وفي هذا الخلق ألإعجازي تندمج الروح والمادة في وحدة واحدة متكاملة في الحركة والسكون. قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}84.

هذه الصفة صفة اندماجية فآدم خُلق من تراب ثم دُمجت الروح فيه أو جُبرت، فأصبح على ما أصبح عليه وهو (في أحسن تقويم)، وهكذا بقية الكائنات الحية مادة وروح. ولذا فإن خلق المادة مع الروح أو خلق الروح منفردة خاصية إلهية.

والثانية الصفة النسبية: وهي خلق الشيء من الشيء المحسوس، وهي الصفة التي يتصف بها الإنسان لخلقه أشياء لم تكن هي كما هي لو لم يقوم بعلمه الذي أظهره الخلاّق تعالى عليه ما خلقها (صنعها) كالسيارة والتلفاز وجهاز الحاسوب والمراكب في البحار والمحيطات والعدسة والمجهر وغيرها كثير وهذه وغيرها من إبداعات الإنسان

[82] الفرقان، 59.

[83] الرحمن، 15.

[84] الإسراء، 85.

وقدراته الخلاَّقة هي من تراب أي من مجموع المعادن التي أشار بها الله تعالى على الإنسان حتى يكتشفها ويخلق منها ما يُمكِّنه من ركوب البر والبحر والطيران في آفاق السّماء حتى تَمكَّنَ من بلوغ مسارات كواكبها ونجومها بالعلم الذي بشأنه قال تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}85.أي بالرّغم ممّا وصل إليه عقل الخالق بالإضافة فهو لم يصل إلا للقليل العلمي. ولأن الله تعالى جعل في الأرض خليفة فإنه يُريده أن يبلغ من العلم الذي يُمكّنه من الإصلاح في الأرض، ولهذا قال عزّ وجلّ: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}86 ولأن الخليفة يؤمن بأن الخالق المطلق هو مصدر العلم التام والكامل استجاب إيمانا بقوله (ربّ زدني علما) ليستجيب له الرّحمن بقوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ خَلَقَ الْإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ}87. وبهذه الأسباب يرفع الله البعض درجات وفوق كلّ ذي علم عليم {نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ وَفَوْقَ كلّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ}88.

والخالق بالإضافة يمكن أن تكون له إحدى الصفتين الآتيتين:

1 . الصفة الإصلاحية: هي الصفة التي بها تعمر الأرض ولا تفسد. وهذه لا تتم إلا بأفعال الخليفة الذي يؤمن بأهمية الإصلاح ويعتبرها من مهامه الرئيسة. وهؤلاء هم الذين يسعون في الأرض إصلاحا.

2 . الصفة الإفسادية: هي التي بها تفسد العلاقات بين الخلق ولا تعمر الأرض، وهذه لا تتم إلا بأفعال الآبقين الذين يظنون ظن

---

85 الإسراء، 85.

86 طه، 114.

87 الرحمن، 3.

88 يوسف، 76.

الجاهلية. وهؤلاء ومن هم على مثلهم هم الذين يسعون في الأرض فسادا.

قال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا السّماوات وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ}[89]. اللغوب: التعب والإعياء. قال قتادة والكلّبي: "هذه الآية نزلت في يهود المدينة؛ زعموا أنّ الله تعالى خلق السّماوات والأرض في ستة أيّام أولها يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة، واستراح يوم السبت، فجعلوه راحة، فأكذبهم الله تعالى في ذلك"[90] بقوله عزّ وجلّ: {فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ}[91]. المعني بالآية (فاصبر على ما يقولون) هو الرّسول صلّى الله عليه وسلّم، الذي أراد منه الله تعالى أن يتعبَّد ويذكر ربّه في أوقات الدعاء المفضلة وهي: قبل الشروق وقبل الغروب وفي الليل وعند أدبار السجود. وهذه لا تخص النبي الكريم فقط، بل هي الباب المفتوح لمن يريد الدخول منه إلى أماكن الرقي التي بها يُستخلف الإنسان في الأرض حتى يرث الجنّة من بعدها.

الخالق جلّ جلّاله في كلّ برهة وثانية يخلق ما لم نستطع إحصاءه، فنحن بني البشر كنا آدم وحواء فقط، ثم أصبحنا المليارات ومع الحركة والزمان نتصل ونزيد، وهكذا من كلّ كائن حي خلق الزوجين للزيادة إلى النهاية التي لا يعلمها إلا هو جلّ جلّاله. ولهذا لن يُصدِّقَ أحدٍ من عباده المستخلفين في الأرض ما أدعى به يهود المدينة، بأن الله خلق كلّ شيء في ستة أيام ثم استراح من التعب

---

[89] ق، 38.

[90] القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء السابع عشر، ص 24.

[91] ق، 39، 40.

والإعياء. المواليد من جميع المخلوقات تُخلق في الأرحام وتخرج للوجود من بشر وحيوان وكائنات قابلة للمشاهدة وأخرى غير قابلة لذلك بالأعين المجردة، مثل الفيروسات المعروفة ممّا خلق وغير المعروفة، ولهذا تنتشر الأمراض بيننا والكائنات الأخرى والعلم يلاحقّها ليقي ويشفي المصابين.

قال تعالى: {أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السّماوات وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ}92 أي بما أنّه خلق السّماوات التي عرفناها ولم نعرفها: عرفناها بمعرفتنا للسماء التي قد عرفناها هي كما هي في علوها عن الأرض، ولم نعرفها لأنها لم تكن سماء واحدة مصداقا لقوله تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السّماوات السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}93. فنحن نعلم علم اليقين بأنها سبع سماوات ولكننا لا نعلم علمها. فالسّماء ليست فراغ بل هي امتلاء فيها ما خلق ممّا خلق وسيكون فيها وفي كلّ ما خلق ممّا سيخلق. أنّه الخالق الدائم، أي الذي خَلْقه لا ينقطع ولا يتوقف، وهو الخالق بالأمر (كن) وليس ببذل الجهد الذي توقّعه يهود المدينة. في توقعهم هذا هم يظنون كلّ شيء بمقارنة مع ما يستطيعون القيام به. ولذا فإنّهم يضعون الخالق عزّ وجلّ في موضع المقارنة مع ما خلق، وفي هذا الأمر معصية كلّما سمع بها المؤمن استغفر الله على ما يقولون وحمد ربّه تعالى على نعمة الإيمان.

إذن الخالق الذي خلق سبع سماوات والأرض، لم يقف عند هذا الحد، ولهذا قال: (بقادرٍ على أن يخلق مثلهم) أي بقادر على أن

92 ياسين، 81.

93 الإسراء، 44.

يخلق سماوات وأراضٍ أخرى، وهذا يعني أن خلقه غير منقطع (متصل لا منفصل). فنحن نعلم أنه خلق سبع سماوات وسبع أراضٍ مصداقا لقوله تعالى: {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}[94]. ونحن حتى على مستوى معرفتنا للأرض لم نعرف إلا أرض واحدة وهي التي نعيش عليها ولا نعلم بعلم الأراضي الست الأخرى التي وردت في الآية السابقة. وعليه لقد خلق الخالق الشيء، وخلق فيه ومنه أشياء لا تُحصى. اللهم يا الله زدني علما مثلما أمل أن تزدني إيمانا وتجعلني من المصلحين.

القاعدة تقول: (المخلوق دائما في حاجة والخالق دائما هو مصدر إشباعها) المخلوق تعني أي مخلوق، سواء ما خلق الخالق الأعظم أو ما خلق الخالق بالإضافة. فالإنسان وكلّ كائن مُسبِّح بحمد الله هو في حاجة لخالقه، وإلا لماذا يُسبِّح بحمده لو لم يكن في حاجة إليه؟ يُسبِّح بحمده ليشكّره على نعمه وفضله الذي أنعم به عليه حتى جعله من المسبِّحين.

من القاعدة السابقة نعرف أنّ الحاجة في طبع المخلوق، وإلا هل يمكن أن يلتفت المخلوق لخالقه لو لم يكن في حاجة إليه؟ ولهذا فنحن في حاجة لرضا خالقنا علينا، وفي حاجة لحفظه ورعايته لنا من كلّ شرٍ وسوء. فهو الذي جعل لنا في الأرض معاشٍ ومنها سكنٍ ولباسٍ.

ومن القاعدة السابقة عرفنا أنَّ الخالق ليس في حاجة، وذلك لأنه خالقها، أمّا نحن فهي المخلوقة فينا. ولأن الحاجة مخلوقة مثلما

[94] الطلاق، 12.

نحن خُلقنا فهي بطبيعة الحال هي في حاجة لخالقها، وهي تُسبِّح بحمده مثلما نحن نُسبِّح. وإلا هل هناك شيء مِنْ خلقه لا يُسبِّح بحمده؟ قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السّماوات السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}[95] ولأن الحاجة مخلوقة فهي بطبيعة الحال في حاجة لخالقها الذي ليس في حاجة إليها.

ولأنّ كلّ مخلوق في حاجة لخالقه، فنحن في حاجة لشجرة ونبتة نأكلّ منها، وفي حاجة لحيوان نشربّ منه لبنا وهو الآخر في حاجة للماء مثلما نحن في حاجة إليه، وكلّ من الشجرة أو النبتة والحيوان في حاجة للهواء مثل ما نحن في حاجة، وكلّنا في حاجة لأرض نعيش عليها ومطر أو نبعٍ نرتوي منه، والنبع والمطر في حاجة لقوة تُظهرهما وتسوقهما إلى من هم في حاجة، وهذه القوّة تحتاج لمن يصدر لها الأمر لتكون، وفي هذه الأمور لا يمكن أن تكون الاستجابة إلا من الخالق الأعظم جلّ جلّاله، ولذا فإن القاعدة (المخلوق دائما في حاجة والخالق ليس كذلك).

وبما أنَّ المخلوق في حاجة لخالقه، والخالق هو مصدر إشباع الحاجة، إذن كيف يعتقد البعض في إلهٍ لا يُشبع حاجة وهو في حاجة لمن يُشبع حاجته! فمن يتخذ من التمر إلها أو من الحجر إلها أو من البشر إلها فليعلم إنَّ ما يتخذه من آلهة هم في حاجة، فالتمر إن لم يُحفظ يفسد ويتعفّن، والحجارة تبلى وتتهدم ولا تُشبع حاجةَ من يتخذها إلها ولا تسمعه إن تحدث إليها ولهذا فهي لا تجيب دعاءه إذا دعاها، وهكذا البشر هم في حاجة يمرضون ويتألمون ويجوعون ويخسرون ويكذبون ويزوِّرونَ ويغشون ويزنون ويعملون الفواحش ما

---

[95] الإسراء، 44.

ظهر منها وما بطن فكيف مثل هؤلاء يُتخذون آلهة ويُعبدونْ. قال تعالى: {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آَلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا}96 ولهذا فإنّ في خلق السّماوات والأرض آيات لقوم يتفكرون {إِنَّ فِي خَلْقِ السّماوات وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السّماوات وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}97.

وعليه فإنَّ الخلق بِحُسبان، مصداقا لقوله تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}98. لا إله إلا هو سبحانه كلّ شيء قدَّره تقديرا ليهيأه لِما أراد كتهيأت الإنسان للإدراك والفهم والتدبر والاستنباط والتذكر والتفكر والاستقراء والاستنتاج والعمل والتفاعل والتوافق والتكيف ولذا قال تعالى: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السّماوات وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}99. ولذلك فالتقدير والحسبان لم يكونا عبثا. قال تعالى: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ}100

[96] الفرقان، 3.

[97] آل عمران، 191.

[98] المؤمنون، 15.

[99] الفرقان، 2.

[100] الحجر، 19 . 21.

ولأنّ القاعدة تنص على أن: {الإله يَخلُق ولا يُخلق)، فإنّ من يعتقد في غير الخالق ضل أي لم يهتدي إلى سبيل الاستخلاف في الأرض، ويفقد البقاء الدائم في الحياة الدائمة.

قال الزجاج: "فالخالق في اسم الله تعالى هو ابتداء تقدير النشء، فالله خالقها ومنشئها وهو متممها ومدبرها فتبارك الله أحسن الخالقين"101.

ولأنّ الله أحسن الخالقين مصداقا لقوله تعالى: {فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}102 فإنّ القاعدة تقول: (الخالق يخلق خلّاق) فالله خلق آدم وعلمه الأسماء وهي الأسرار، وخلقه إنسانا وعلمه البيان والحكمة، حتى استمد صفة الخلق منه جلّ جلّاله وأصبح خلاَّقا. ولهذا فإنَّ أحسن الخالقين تعني: أتقن الخالقين وهي تأكيد على وجود الخالقين بالإضافة وهؤلاء هم الذين يخلقون ما يُسهم في إشباع حاجاتهم ممّا خلق لهم خالقهم تعالى. ولكن مع عدم التأكيد على المقارنة فإن خالق الخالقين بطبيعة الحال هو الذي لا يقارن بهم وإن قبلنا بمقارنة ما خلق بما خلقوا فإننا نعود للتأكيد على القاعدة السابقة (الخالق لا يساوي ما خلق).

الخالق هو الله الذي يخلق الأشياء من اللاشيء، فبذلك هو خالق الكون بدون حاجة لأداة أو مادة خام أو حاجة لزمنٍ معين ومحدد، فهو خالق بلفظة "كن".

فالله تبارك وتعالى هو الخالق ولا خالق سواه وكلّ ما عداه هو مخلوق فالسّماوات والأرض وما فيهن وما بينهما من أقدار مقسمة

101 تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج، ص 36.

102 المؤمنون، 14.

من أرزّاق وأعمار وأعمال وأقوال كلّها مخلوقة، لأنّه هو الذي أوجد جميع الأشياء وركّبها ورتبها، قال تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}103، فالخالق لم يخلق هذا الكون وهذه المخلوقات جميعا عبثا وارتجالا، إذ أنه ليس من الحكمة خلق الأشياء وإهمالها، كما هو ظن الكفار، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السّماء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النّار}104، بل إنه خلق الخلق جميعا وأعدهم ليوم الحساب.

وقد أنشأ الخالق وأبدع في الخلق، قال تعالى: {الَّذِي أَحْسَنَ كلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشكّرُونَ}105، إذن فالخالق هو المكوّن لهذه المخلوقات والمقدّر لها، لأنه يخلق الخلق بعلمه المطلق والمسبق، ثم إنّه يقدّر الأرزّاق والأعمار وأقواله وأفعاله التي سيقوم بها ويحفظها في اللوح المحفوظ ولكلّ إنسان منا مكانٌ فيه، ولكلّ إنسان قدر يقع عليه من الخالق وحده دون سواه، لأنّه لا أحد يملك القدر إلا الخالق له.

والله تعالى قد خلق العدم، لأنّه لم يكن موجودا لولا الخالق له، والخالق سبحانه وتعالى لا يمكن أن يتجزأ أو يتركب من أشياء فهو واحدٌ أحد، قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ

[103] المؤمنون 14.
[104] ص 27.
[105] السجدة 7 ـ 9.

وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}106، والسورة القرآنية السابقة توضح أن الخالق واحد ليس له شريك من قريب أو بعيد، لهذا فهو عظيم بواحديته وكماله، وبالتالي لا يمكننا فصل صفة عن صفة فيه، أو فعل عن آخر لأن القائم بكلّ الأفعال والمتصف بكلّ الصفات هو إله واحد لا يتجزأ ولا يتغير، وإلا لكانت له بداية ونهاية لأنّ التركيب والتجزيء لابدّ له يوما من التفكك أو التحلل، أمّا المخلوق فهو مركب من عدة جزيئات بمجمل اتحادها تتكون المخلوقات وبالتأكيد بتحلل هذه الجزيئات المتحدة وتفككها ينتهي وجود هذا التركيب المخلوق ويفنى هذا الشيء.

والإنسان وهو مخلوق من خلق الله تعالى فقد كانت له بداية يبدأ منها ونهاية ينتهي إليها متى شاء الخالق، ومن مجموع هذه التركيبات والتقسيمات تكوّن خلق الإنسان بفعل الخالق وبنفخ الروح فيه.

وخلق الله تعالى الإنسان بتركيبة قابلة للخير والشر، داعي للخير والفتن، في دار ابتلاء وامتحان للخلق، فظهرت للعباد رحمة الخالق وبطشه، ولطفه وجبروته، على حسب درجة الإيمان لكلّ إنسان، فالغاية من الخلق أساسا هو عبادة الخالق، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}107، فالإيمان الكامل لا يكون بالمعلوم فقط بل أيضا يشمل الإيمان بخلق الله للغيب.

وقد خلق الله تعالى الإنسان مكونا إياه من عدة أشياء:

1-خلق الله للإنسان اللسان:

---

106 الإخلاص 1 . 4.

107 الذاريات 56.

لإخراج ما في القلب والعقل، فالتعبير عما في داخل الإنسان يتم عن طريق اللسان أولا من طيب الكلّام وبديع الأفكار هذا من شأنه حدوث التفاعل البشري الفكري والعملي بعد التوصل إلى أعلى مراتب التفاهم، فالإنسان كائن لا يستطيع الحياة إلا وسط جماعات بشرية تأخذ منه ويأخذ منها ويتفاعلون مع بعض وتطلب ذلك لغة ووسيلة للتفاهم فيما بينهم وكانت هذه الوسيلة هي اللسان الذي يتكلّم بلغة من حوله، وبذلك هو نعمة من الخالق أهداها لنا وأوصانا بها، فالخلق متفاوتون في حسن استعمال هذه النعمة فبدل أن تكون ألسنتهم شاهدة على الحقّ ناطقة به، داعية للخير ومخرجة لحسن نوايا القلوب، نجدها أحيانا لا تشهد إلا بالباطل ولا تنطق إلا به ولا نسمع منها إلا سوء القول الناتج عن سوء الفعل، لأنّ اللسان يجب أن يكون ترجمة لما في القلب ووسيلة تعبير عمّا فيه، فلو كان هذا القلب حاملا لإيمانٍ صادق نطق به اللسان، وإن كان حاملا للكفر والمعصية نطق به اللسان، وهناك بعض الأمراض التي خُلِقت لألسن الجاحدين والعاصين والمذنبين، مثل مرض الافتراء والكذب كما جاء في قوله تعالى: {وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النّار وَأَنَّهُمْ مُفْرَطُونَ}108، فالافتراء على الخالق الذي خلقهم من أشد ما يمكن أن يتقول به الإنسان، لأنّ من خلق لنا اللسان وجب علينا أن نشكّره لا أن نوجّهه للكفر به، كذلك مرض النميمة والغيبة ونجد هذا المرض منتشر بكثرة حتى في مجتمعاتنا الإسلامية اليوم، وهذا من شأنه إحداث شرخ في محبّة وثقة النّاس ببعض وتخلق العداوة والبغضاء بين المسلمين، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا

[108] النحل 62.

وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}109، فالتشبيه هنا من شأنه أن يوضح لنا ما الذي يمكن أن يقودنا إليه اللسان إذا تركناه دون رقيب أو حسيب، كذلك من الأمراض المهلكة التي تصيب اللسان شهادة الزور، التي تعمل على إماتة الحقّوق وسيادة الظلم بين البشر، قال تعالى: {وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا}110، فاللسان الذي لا يشهد الزور هو لسان يخشى الخالق يوم تشهد على الإنسان الألسن التي سينطقها من خلقها ووهبها لنا، كما جاء في قوله تعالى: {يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجلّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}111.

فاللسان إذن خلقه الخالق رحمةً بنا فجعله بعض البشر نقمة على نفسه وعلى من حوله، فمن شأن اللسان خلق مجتمع مسلم مترابط واثق قوي إذا أخضعه الإنسان لخالقه وجعله وسيلة مرضاة له فلا ينطق إلا بما أراد الخالق له، ويلزم الدعوة للخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيكون بذلك خليفة لله في الأرض بالإصلاح الاجتماعي والمادي والديني بين النّاس.

وخليفة الله من كان لسانه بلسما لقلوب النّاس بالكلّمة الطيبة، ومنبرا لدعوة الحقّ دون خوف أو رهبة من أحدٍ من الخلق، ناشرا للحب والصدق والرّحمة.

2-خلق الله العينين للإنسان:

[109] الحجرات 12.

[110] الفرقان 72.

[111] النور 24.

وهما جزء لا يقل أهمية عن اللسان، فهما من نعم ورحمة الله بنا فبهما نستطيع إبصار ما في هذا الكون من نعم الله وقدرته وأن نحمده عليها، فعظمة الجبال تراها أعيننا وانتشار النجوم في السّماء البعيدة منثورة أمام أعيننا، وتباين المخلوقات في الألوان والأحجام والأنواع تدركها أبصارنا قبل أي شيءٍ آخر، والأهم من ذلك أنهما لابدّ أن يكونا سببا في حبنا وقربّنا للخالق، وإيماننا بعظمة خلقه، قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ}112، فقد أهدانا الخالق هذه النعم لا للزينة والجمال بل لتكون مصابيح تنير لنا طريق الهدى والخير من طريق الضلال والشر، فالعين تستطيع أن تعاون العقل في تمييز الحسن من القبيح من الأعمال، فبتأملها وتركيزها تعطي إشارة للعقل بالتحليل للوصول إلى النتائج الإيجابية إذا كانت العين من الأساس عينٌ جادة باحثة عن عظمة الخالق، لذلك نجد أن الخالق قد لفت انتباه الخلق إلى استعمال أبصارهم في أنفسنا أولا، وفي هذا الكون ثانيا للوصول إلى منتهى الإيمان والطاعة والاعتراف بوحدانية الخالق الذي انفرد بالخلق، قال وتعالى: {وَفِي الْأَرْضِ آَيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}113، في هذه الآية الكريمة دعوة من الخالق لنا للتأمل بما أعطانا فيما أعطانا، إذ أنه وهب لنا العينين تحللان ما حولنا وتنقلان ما في هذا الكون من عظمة تدل على الخالق العظيم إلى النفس لتطمئن وتطيع وتخشع.

فعيني خليفة الله يجب أن يوجههما للتمعن والتأمل في عظمة الخالق، فتُنبه القلب والعقل لهذه العظمة التي بدون الإحساس بها يموت الإنسان في الحياة، حتى وإن كان هذا الخليفة فاقد لنعمة

1 البلد 8. 10.

113 الذاريات 20، 21.

البصر، فالعين تستطيع أن تبصر من خلال الروح والنفس، فكم من مبصر هو أعمي تائه في هذه الدنيا ضائع في دروب الضلال والكفر، كما جاء في قوله تعالى: {مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ}114، لأن من صفات الكفار والجاحدين هي فقدانهم لنعمة البصر رغم قدرتهم على الإبصار بعيونهم، قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النّاس شَيْئًا وَلَكِنَّ النّاس أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ}115، إذ أنّه لا فائدة تُرْجى من عين لا تخشى الخالق.

وصفة البصر من صفات الخالق تعالى مع الاختلاف فيه، فالبصر في حقّ الله هو البصر المطلق الذي لا حدود له، فهو يبصر ما لا نستطيع إبصاره نحن ببصرنا المحدود، قال تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ}116، وقوله تعالى: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْربّ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ}117، لأنه يبصر حتى ما في القلوب والعقول دون الحاجة إلى إخراجه، فالخالق جلّ جلّاله هو العالم بنا والقادر علينا.

3-خلق الله السمع للإنسان:

قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشكّرُونَ}118، فالسمع نعمة من نعم الله علينا يهدينا إلى

---

114 البقرة 17، 18.

115 يونس 43، 44.

116 الحاقة 38، 39.

117 الواقعة 83 . 85.

118 المؤمنون 78.

صواب الأمر، فمن الذي يستطيع أن يسمع كلّمات الخالق ولا يؤمن بها ولا يخشع له إلا من كان قلبه وعقله أصمين قبل أذنيه؟ قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ}[119]، أولئك الذين لا يستغلون سمعهم في الوصول للحقّ والاعتراف به، فيغيبهم الضلال عن الخالق.

وصفة السمع في حقّ الخالق تختلف أيضا عنها في الإنسان، فسمعه سبحانه وتعالى لا يحده زمان ولا مكان، كيف لا وهو من وهب لنا هذا السمع الذي نتمتع به، فسمعه عزّ وجلّ ليس مخلوقا يبدأ ببداية وينتهي بنهاية قال تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ وَاللَّهُ يَقْضِي بِالحقّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}[120]، فقدرة السمع عند الخالق ليست مقتصرة على أقوالنا وكلّامنا بل تتعدى ذلك إلى ما في الصدور من نوايا الخير أو الشر.

وعلى خليفة الله أن ينأي بسمعه عن مساوئ القول من توافه الكلّام ورذائله وما من شأنه أن يهوي بصاحبه إلى مستنقع الفساد، فبذلك يحافظ الخليفة على السمع كنعمة من نعم الله تعالى عزّ وجلّ، لا يسمع إلا طيب الكلّام.

وقد أنعم الله على المتقين بنعمة السمع الطيب سواء كانوا في الأرض أو حتى في جنان الخلد، قال تعالى: {جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرّحمن عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا

[119] الأنفال 20 . 23.

[120] غافر 19 . 20.

سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا تِلْكَ الجنّة الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا}121، فنوعٌ من الراحة والفرح ألا يسمع الإنسان إلا ما هو طيب وجميل.

وقد نجد الكثير من الخلق يفتقدون لنعمة السمع رغم تمتعهم بها، إذ أنه من الجحود والكفر الذي يسكن قلوبهم ما يغطي سمعهم عن قول الحقّ، قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ والإنس لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ}122.

4-خلق الله القلب للإنسان:

وهو الذي يجب أن يكون مكمن الطاعة ومستودع المحبّة والخضوع والاستسلام للخالق، ومنذ بداية خلق الله للبشر ساوى بينهم في امتلاكهم له كعضو وجهاز ينبض بالحياة، لكنهم تباينوا بعد ذلك في جعله منبعا للخير أو الشر، أو ملئه بالكفر أو الإيمان، كلّ حسب ما سعى إليه في حياته.

فالقلب كما نسقيه يُنْبِت، فإذا سقيناه الطّاعة وحب الخالق أنبت الإيمان والتقوى، وإذا شربّ من المفاسد واللهو أنبت الجحود والكفر، وفي الحقّيقة فإن القلوب هي مركز السمع والبصر والإحساس عامة، وليس أدلّ على ذلك من الذين نراهم حتى يومنا هذا لا يزالون في ضلال وكفر رغم تمتعهم بنعمتي السمع والبصر، كما جاء في قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي

[121] مريم 61. 63.

[122] الأعراف 179.

الصُّدُورِ}123، فقد خلق الله تعالى القلوب للإدراك والاستشعار بعظمة الخالق وقدرته، وللخشية من غضبه، وللإحساس بحب الخالق وقربّه منا، بذلك تتحقّق الراحة والطمأنينة التي يتميز بها قلب المؤمن المحسن التقي الذي استحقّ أن يكون خليفة الخالق في الأرض، في المقابل يكون القلق والفزع الدائمين من نصيب القلوب العاصية الكافرة، إذن فالطمأنينة صفة ملازمة لقلب خليفة الله، قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}124، لأن الإيمان إذا سكن القلب جلّب معه الأمان والطمأنينة من الخالق له، فحب الخالق حين يتمكن من القلب ويتقدم على جميع ما فيه من أنواع الحب الأخرى يخلق الأمن والأمان في القلوب المؤمنة.

بعكس القلوب المريضة بالكفر والنفاق والرياء، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ وَمِنَ النّاس مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ}125، تلك القلوب التي استضافت الفسوق والنفاق لم تعد نعمة على صاحبها بل تحولت إلى نقمة تحيط به، لأن النفاق مرضٌ إذا تمكن من قلب الإنسان حوله إلى مهلكة له ومضيعة، فالخالق ينفر من هذا

[123] الحج 46.

[124] الرعد 28.

[125] البقرة 6 . 10.

المرض الخطير بالإنسان بالأمة المسلمة، قال تعالى: {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ}126.

5-خلق الله العقل للإنسان:

وهو مركز التحليل والتفكير والتبصر في هذه الدنيا، إذ أنه لا يمكن للإنسان أن يتوصل للحقّيقة بدون وجود العقل واستعماله الاستعمال الصحيح، والعقل البشري هو بحد ذاته يُعَد إبداع في الخلق بكيفية عمله وتركيبته العجيبة، فبطريقه نتوصل إلى فهم وتحليل ما حولنا من غموض أو دلائل، لذلك نلاحظ أن أكثر مخاطبة الخالق لمن عصى وكفر موجهة للعقل الذي رقد في ظلمات الجهل والضلال: كمثل قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}127، وكذلك قوله تعالى: {وَمَنْ نُعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِي الْخَلْقِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ}128، إنه التعجب الذي يدرك جوهره العاقل، فكيف لا يتدبر من كان له عقلٌ صحيح في كلّ ما يحيط بهم أو حتى في أنفسهم وكيفية معيشتهم وبدايتهم ونهايتهم التي تتكرر كلّ لحظة أمام أعينهم في الحياة.

لذلك فالعقل لا فائدة منه إذا كان يقود صاحبه للضلال والهلاك، كمثل عالمٍ اكتشف واخترع وتوصل إلى علوم جديدة لم يسبقه أحد إليها وما زال عقله تائها عن الخالق الذي أوجد كلّ ما حوله من علوم وحقّائق كونية وطبيعية، فمثله كمثل من لا عقل له،

---

126 التوبة 125.

127 البقرة 170، 171.

128 يس 68.

قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السّماء مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ}[129].

أمّا خليفة الخالق فإنه لا بدّ أن يسخّر نعمة العقل لاكتشاف حقّيقة الكون ولبيان عظمة الخالق في تصويره فيدرك الإيمان قلبه باكرا ويضيء دربّه في الدنيا بنور العلم الحقّيقي.

6-خلق الله الإحساس والمشاعر في الإنسان:

لكن الإنسان هو الذي يحركها كيفما يشاء باختياره لنوعية الأحاسيس مهما كانت الظروف المحيطة به، فالرّحمة مخلوقة مع الإنسان والمحبّة والصدق والنقاء وكلّ الفضائل الأخرى كما أنّه توجد في المقابل الصفات القبيحة التي يكون الإنسان مخير في استقبال ما يشاء منها، لأن القلب مخلوق خصب تنمو فيه بذرة الخير أو الشر بسرعة متناهية.

وخليفة الله يجب أن يوجّه مشاعره كلّها لهدف واحد وهو رضا الخالق، وإذا تمكن حب الخالق من قلب الخليفة خلق فيه أنواعا من الحب منها:

أ- حبّ النفس على أنها نعمة من الخالق، وإكرامها بالترفع عن المفسدة والضياع، فيحافظ عليها كأمانة سيستردها الخالق وقتما يشاء، وطوبى لمن لقي الخالق بنفسٍ مؤمنة خاضعة خاشعة، قال تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كلّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ}[130].

[129] العنكبوت 63.

[130] البقرة 281.

وهنا يكون حب النفس ليس من باب التفضيل والأنانية بل كما سبق القول من باب إكرامها وإعطائها حقّها من السمو كما أراد الخالق لها، فالساجد لصنم من حجارة مثلا فهو يسحقّ حقّ نفسه في عبادة وتوحيد الله تعالى، والمنكر لوجود الخالق لهذا الكون فإنه يسير بذاته إلى وحل الدونية والكفر.

وخليفة الخالق في الأرض هو من يحافظ على نفسه من الشرور والمفاسد، ويُبقيها نقيه وصافية لحين لقاء الخالق ذلك بالبحث عن معالي القول والفعل وبالتحلي بمكارم الأخلاق، لأن من شأن حسن الخلق أن يرقى بالنفس البشرية إلى أعلى درجات الشرف والتقدير، ولنا في رسول الله – صلّى الله عليه وسلّم- أسوة حسنة، قال تعالى في رسوله الكريم: {وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ}131، هذا الخُلق الذي هو من خَلق الخالق أصلا قد رفع قدر الرّسول عليه الصّلاة والسّلام حتى بين أعدائه وخصومه، وقد ترك فينا هذا الخلق لنسير عليه فنكون بذلك خير الأمم وأشرفها، " عَنْ مَالِك أَنَّ مُعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ آخِرُ مَا أَوْصَانِي بِهِ رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم حِينَ وَضَعْتُ رِجلّي فِي الْغَرْزِ أَنْ قَالَ أَحْسِنْ خُلُقَكَ لِلنَّاسِ يَا مُعَاذُ بْنَ جَبَلٍ"132.

ب- حبّ الحياة: لأنّ بقيامها تقوم صلة الخليفة بالخالق، فخلق الحياة من أجلّ التوحيد والعبادة تستحقّ أن نحبها لحب المعبود فيها، هذا الحب الذي يتحكم في نتيجة امتحان الخالق للإنسان في هذه الحياة، فلما كانت الدنيا دار ابتلاء فإذا أحبها الخليفة حبا للتقربّ من الخالق تخطى الامتحان بنجاح وتفوق، قال سبحانه وتعالى: {أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا

---

131 القلم 4.

132 موطأ مالك، ج 5، ص 374.

وَكَانُوا يَتَّقُونَ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِّمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}133، لهذا يجب أن يكون الشعور بحب الحياة معتدلا بين بقية المشاعر الأخرى كي لا يطغى عليها، ولا يكون هذا الحب هو المحرك الأساسي لحياته.

وحب الدنيا ينقسم على قسمين، القسم الأول كما سبق وذكرنا يكون حب الإنسان للحياة على أنها نعمة من خلق الرّحمن فنشعر بمسؤوليتنا عنها وعلى الحفاظ عليها، فحبنا للحياة يكون من حبنا لخالق هذه الحياة وخالقنا.

والقسم الثاني هو من تغلب عليه حب الحياة على ما عداه من حب، فتجره هذه الدنيا بمغرياتها ويقضي العمر لاهثا خلف ملاهي الحياة الدنيا، فيكون هذا الحب نقمة على صاحبه ينقلب عليه يوم الحساب، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آَمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ}134، وكذلك قوله تعالى: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كلّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ}135، والحب الذي يعود بالخسارة على صاحبه هو حب فاشل من الأساس لأن من شأن الحب إذا وجهه الإنسان في الاتجاه الصحيح أن يخلق السعادة الأبدية للإنسان.

ج- حبّ الرّسول- صلّى الله عليه وسلّم-:

133 يونس 62 . 64.

134 البقرة 212.

135 الأنعام 70.

لقد فضل الخالق الرّسول الكريم عليه الصّلاة والسّلام على الخلق أجمعين، وشرّفه بحبه له، وقَبِل شفاعته لأمته يوم يقوم الحساب، بل إنه ربّط الشهادتين بالإيمان بواحديته تعالى والإيمان برسالة سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام في قولنا عند النطق بالشهادتين(أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمّدا رسول الله) وهذا هو الإيمان الحقّيقي، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}136.

فحب الخالق يخلق في قلب الخليفة حب رسوله الكريم عليه السلام، فيسعى في الدنيا به مثلا وقدوة مشرفة يحتذي بها، ومن أحب رسول الله عليه الصّلاة والسّلام أتبعه وسار على خطاه قدر المستطاع.

د-حب الوالدين: من وسع قلبه لحب الخالق وسع حب والديه، لأنهما مرتبطان ببعضهما البعض، إذ أنه يستحيل أن تجد من خلفاء الله من هو عاقٌ بوالديه أو كاره لهما، فمن أطاع الخالق أطاع والديه، قال تعالى: {وَقَضَى ربّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرّحمة وَقُلْ ربّ ارْحَمْهُمَا كَمَا ربّيَانِي صَغِيرًا}137.

هـ- حب العام لجميع الخلق:

136 النور 62.

137 الإسراء 23، 24.

يأتي ضمن هذا الحب الأهل والأصدقاء والأقاربّ والجيران والإحسان إليهم ومعاملتهم بالمعروف واللين، لأن من شأن حبنا لله خلق هذا النوع من الحب الشامل، قال تعالى: {وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا}[138].

و- حب الخير:

الخير اسمٌ جامع لكلّ معاني البر والمعروف والطاعة والإحسان، فلا يمكن أن يخلق حب المولى في النفوس إلا حب الخير والسعي فيه، قال تعالى: {وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُون}[139].

ز- حب الآخرة:

يكون المحب دائما بشوق للقاء من يحب، فيكون موعد اللقاء موعد محبب لقلبه، وهذا شعور خليفة الله، إذ أنه يسير في الدنيا بحب الخالق ويخرج منها بحب الخالق ولهفة لقائه يوم الحساب، لإيمانهم بصدق الخالق في وعده، كما جاء في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الجنّة هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الأنهار وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبّنَا بِالحقّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الجنّة أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَنَادَى أَصْحَابُ الجنّة أَصْحَابَ النّار أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا

[138] النساء 36.

[139] آل عمران 104.

وَعَدَنَا ربّنَا حقّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ ربّكُمْ حقّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}140، ومن أحب الخالق فقد أحب يوم اللقاء به وزهد في الدنيا بما فيها، لأنه لا يمكن أن يجتمع حب الدنيا والآخرة في قلب إنسان إلا وتغلب إحداها على الأخرى.

7-خلق الله للإنسان اليدين والقدمين وسائر الأعضاء الداخلية والخارجية:

وكلّ لها وظيفة تكمل بها الأخرى فيصل الإنسان إلى مخلوق متكامل الأعضاء والجوارح. فالإنسان مخلوق من عدة أجهزة وأعضاء مختلفة الوظائف تعاون كلّ منها الأخرى في تنظيم عملية الحياة للإنسان، ولتشكّيل وحدة متكاملة هي الإنسان الصحيح.

فخليفة الخالق لابدّ أن يكون دائم التأمل في خلقه والشكّر والحمد على ما عنده من نعم سواء أكانت تامة أو ناقصة، إذ أن نصيب البشر متفاوت منها فنجد بين البشر من هو فاقدا لنعمة البصر أو السمع أو الكلّام أو فاقد لأحد الأعضاء أو غيرها، لكن هذا لا يقف عائقا في وجه من أراد الحياة كخليفة لأن من أهم صفاته أن يتصف بإحياء البصيرة التي تقوده لتحقّيق هدف خلقه في هذه الدنيا.

8-خلق الخالق للقوى الكامنة في الشيء:

التي بواسطتها تنمو بها الأشياء وتتكاثر، ففي النواة قوى خفية كامنة تمكنها من النمو إذا توافرت لها الشروط الملائمة لذلك. وكذلك النطفة داخل الإنسان فهي مكمن لقوى خاصة تمكنها من الإخصاب عند لقائها بالبويضة التي تحمل نفس القوى وباتحادهما

---

[140] الأعراف 42 . 44.

وانقسام البويضة والانتقام من مرحلة إلى أخرى، كما جاء في قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ}[141]، فعملية خلق الإنسان تتم على مراحل مرتبة متناهية في الدقة تتجلّى فيها عظمة الخالق، إذ أنه بالرغم من تقدم العلوم والطب إلا أنه لم يتم الوصول إلى كنه هذه القوى التي تستمر بها الحياة.

وبما أنّ كلّ تلك النعم من خلق الخالق تعالى فهي بالضرورة تأتمر بأمره إذا شاء ومتى شاء، {يوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجلّهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الحقّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الحقّ الْمُبِينُ}[142]، فكيف لا تطيع من خلقها وأوجدها؟

ومن الظلم تشبيه الخالق العظيم بالمخلوق الضعيف، لأن الله متفرد ومتوحد في صفاته وأفعاله سبحانه وتعالى، فهو واحد لا يتجزأ ولا يتغير ولا يفنى.

والخالق بكلّ ذلك هو متضمن لعدة صفات وأفعال منها:

أولا: الخالق هو الرّحيم بخلقه:

الرّحمة في حقّ الخالق هي اتصافه بالرّحمة المطلقة التي تأتي في صور متعددة منها: هو الرّحيم بهدايتنا للحقّ، والابتعاد عن خطوات الشيطان، قال تعالى: {وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرّسول تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمّا عَرَفُوا مِنَ الحقّ يَقُولُونَ ربّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ

---

[141] المؤمنون 12 . 14.

[142] النور 24، 25.

الشَّاهِدِينَ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا جَاءَنَا مِنَ الحقّ وَنَطْمع أنّ يُدْخِلَنَا ربّنَا مَعَ الْقَوْمِ الصَّالِحِينَ فَأَثَابَهُمُ اللَّهُ بِمَا قَالُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنهار خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْمُحْسِنِينَ}143، فالهدى هو هدى الخالق لخلقه، بهدف شكّر الخلق له وقربّهم منه تعالى، مع أنّنا نجد الكثير منهم جاحدون ومنكرون، كما جاء في قوله تعالى: {وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشكّرُونَ}144، وهو الرّحيم بقبوله التوبة عن عباده التائبين المستغفرين من ذنوبهم، قال تعالى: {ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِين}145، قال تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرّحيم}146، فرحمته تأتي نجاة وأمان للمذنب الراجع للخالق، فاتحة أبواب الأمل والرجاء ممّا يحفز النفس المخلوقة على التوبة والعمل الصالح، وتوصد أبواب اليأس والخوف، فبذلك تكون رحمته بالخلق أسبق من غضبه.

والرّحيم هو الخالق لكلّ الخلق لذلك هو فوقهم جميعا، قال سبحانه وتعالى: {الرّحمن عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى لَهُ مَا فِي السّماوات وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى}147، بمعنى أنه القائم على أمور الخلق.

---

[143] المائدة 83 . 85.

[144] القصص 73.

[145] المؤمنون 14.

[146] الزمر 53.

[147] طه 5، 6.

فعلى خليفة الله أن يملأ قلبه رحمة وحب للخلق بصفة عامة سواء كانوا مؤمنين أو كافرين، فيكون حبه للمؤمنين متجسدا في حب الخير لهم كما يحبه لنفسه، ويكون حبه للكافرين بدعوتهم للصلاح والنجاة من الهلاك الذي هم فيه.

ثانيا: الخالق هو الملك:

لأنّه خالق فهم ملكٌ على ما قد خلق، فيكون له الأمر والنهي فيما خلق يتصرف كيف يشاء بأمره وفعله، قال تعالى: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السّماوات وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ ربّكُمْ قَالُوا الحقّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}148، ففي هاتين الآيتين تأكيد لملك الله، ففيهما توحيد للخالق بنفي أي معبود سواه مع توضيح عجز قدرة ما يعبد المشركون من آلهة عن الخلق ولأنهم غير خالقين فهم غير مالكين لأي شيء، قال تعالى: {الَّذِي لَهُ مُلْكُ السّماوات وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كلّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا}149، فهو الخالق الملك الذي استحقّ الكمال.

قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ}150، وكذلك قال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الحقّ لَا إِلَهَ

---

[148] سبأ 22، 23.

[149] الفرقان 2.

[150] الحشر 23.

إِلَّا هُوَ ربّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آَخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ ربّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} 151[151].

وخليفة الله هو من يحيي في قلبه حب الخالق الملك، ومن يراقبه في السر والعلن، ومن توكلّ عليه لأنه الأعلى والأقوى فأمور العباد بيده.

ثالثا: الخالق هو السميع البصير:

فكيف يكون خالقا من لا يسمع ولا يرى؟ فالخالق عزّ وجلّ له القدرة على سماع السر والنجوى، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السّماوات وَمَا فِي الْأَرْضِ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 152[152].

رابعا: الخالق هو الأوّل والآخر:

بما أنّه الخالق فلابدّ أن يكون قبل الخلق جميعا فليس قبله شيء، والباقي بعدهم جميعا فليس بعده شيء، فالخالق لا بداية ولا نهاية له.

هو الأوّل بخلقه للخلق وإيجادهم من اللاشيء، وهذا هو أصل الإيمان، فكلّ ما حولنا ينطق بهذه الحقّيقة التي تقر بها القلوب المؤمنة الصادقة، فهو الأول والآخر له المبدأ وله المرجع، كما جاء في قوله

---

[151] المؤمنون 116، 117.

[152] المجادلة 7.

تعالى: {يَوْمَ نَطْوِي السّماء كَطَيِّ السِّجلّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ}153.

ويقين الخليفة بأن له أوّل وآخر هي ركنا معرفة قدرة الخالق على المخلوق، فكلّ شيء له أوّل وآخر هو مخلوق.

خامسا: الخالق هو المهيمن:

أي أنّ الخالق هو المسيطر على ما خلق، فلا تخفي عليه أي شيء مهماَ ضئُل في ملكه، وهو محيط بخلقه وبما يقدمونه في الحياة الدنيا، وبما أنه الخالق العظيم إذن استوجبت عملية الخلق الرقابة عليهم لحسابهم على ما قدموه في الحياة الدنيا من صالح الأعمال أو سيئها، وبهذا فالخالق قائم على أمور الخلق كلّها، قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرّحمن الرّحيم هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السّماوات وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}154.

ومن شأن اسم الخالق المتضمن للهيمنة أن يزيد من تقوى خليفة الله في كلّ قول أو فعل، وأن يؤمن بأنّه المسيطر على الخلق قويهم وضعيفهم فيغذي هذا الإيمان شعوره بالثقة والقوّة فلا يتردد في قول الحقّ والعمل به.

سادسا: الخالق هو العظيم:

---

153 الأنبياء 104.

154 الحشر 22 . 24.

في عملية الخلق لهذا الكون إظهار لعظمة الخالق عزّ وجلّ، فمن مظاهر هذه العظمة ما يلي:

عظمة خلق السّماوات والأرض وما فيهما من دقة الخلق وقوته، فمن المعروف مثلا أنّ أيّ ارتفاع لابدّ أن يكون مسنودا بأعمدة تحميه من السقوط، في حين أن الله خلق السّماء بدون أعمدة تثبتها، وبالرغم من ذلك هي ثابتة بإذن الخالق لها، وتلك النجوم والكواكب المتناثرة فيها بالرغم من كبر حجمها إلا أننا نراها ضئيلة بسبب المسافة البعيدة بيننا، وكذلك موعد شروق وغروب الشمس اللذان لا يختلفان أبدا، وتظهر أيضا عظمة الخالق في خلق الأرض التي نحيا عليها، بما تحويه من جبالٍ شاهقة ومن بحار ممدودة وأنهار جارية وبما تملكه هذه الأرض في جوفها من البذور والثمار المتنوعة، قال تعالى: {اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السّماوات بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كلّ يَجْرِي لِأجلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ ربّكُمْ تُوقِنُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكلّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}155، فالخالق يثير العقل البشري بهذه الدلائل الماثلة أمامه ليصل إلي الإيمان بعظمة الخالق سبحانه وتعالى، قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا

[155] الرعد 1 . 4.

وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا}156.

وكذلك تظهر عظمة الخالق في خلق الإنسان، قال تعالى: {وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ}157، لأن الإنسان كمخلوق مجهز بكلّ هذه الأجهزة الداخلية التي تعمل وفق نظام عظيم في دقته فإنه دليل أكيد وقريب لكلّ العقول التي تبحث عن الخالق، بما في ذلك تلك العضلات الإرادية واللاإرادية التي تكوّن منظومة الجهاز الواحد، وكذلك تناسق وظائف الأجهزة الداخلية كلّ ذلك يوضح عظمة الخالق في خلق الإنسان نفسه، وهذا العقل البشري الذي يعمل بمنظومة خاصة به تجعل من الإنسان مبدع ومخترع وعالِم فكيف بخالق هذا العقل؟

وتظهر عظمة الخالق في بث الروح في سائر الكائنات الحية، هذه الروح التي تبقى سرا تكمن في عظمة الخالق فلا يستطيع الإنسان أن يصل إلى حقّيقتها أو التدخل فيها بأي شكّلّ، قال تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ ربِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}158.

فالخالق عظيم في خلقه لا يستطيع أي كان أن يصل إلى هذه العظمة الإلهية أو إلى سر من أسرارها، فيجب على خليفة الخالق أن يكون مطيعا ومؤمنا بعظمته وقدرته، لا يصله شكّ في هذه العظمة التي من شأنها أن تصغّر كلّ من يدّعي العظمة في هذه الدنيا.

---

156 النبأ 6 . 16.

157 الذاريات 21.

158 الإسراء 85.

سابعا: الخالق هو القادر:

الخالق سبحانه وتعالى إن شاء فعل، ومشيئته فوق كلّ شيء وأمره لا راد له، كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}[159]، فالخلق قدرة لا يتماثل فيها مع الله أحد، فله تعالى القدرة المطلقة على التفرد بالأشياء دون الحاجة إلى مساعدة الغير.

وتتمثل مظاهر قدرته في خلقه فيما يلي:

أ- بقدرته عزّ وجلّ خلق الهداية لمن استحقّها من البشر، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[160].

ب- علمه المطلق الذي لا حد له ولا يستطيع أن يحيط به أحد، فهذه القدرة الإلهية لا تضاهيها قدرة أخرى، قال تعالى: {للَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السّماوات وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السّماوات وَالْأَرْضَ وَلَا يَؤُدُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[161].

ج- قدرته على خلقه لهذا الكون الشاسع، ولكلّ ما يحتويه من مخلوقات مختلفة، من أرضٍ أو سماء، من إنسان أو حيوان أو نبات، وغيرها ممّا يحويه هذا الكون.

---

[159] النحل 40.

[160] إبراهيم 4.

[161] البقرة 255.

فعلى خليفة الله على الأرض أن يملك القدرة على التحكم في شهواته أولا فيكون بذلك مالكا لها لا أن تكون هي مالكةً له، وأن يكون قادرا على قول الحقّ والعمل به والسعي بالمعروف بين النّاس، وأن يكون قادرا على الصبر والثبات عند الحاجة إليها في الدنيا.

ثامنا: الخالق هو الودود:

الخالق ودود فهو المحب وهو المحبوب، فقد شمل حبه ووده أنبياءه ورسله وملائكته وعباده المخلصين وهو بالتالي المحبوب لهم جميعا، يظهر ود الخالق في كلّ ما حولنا، سواء في خلقه للهواء الذي ما أن نخرج للدنيا من أرحام أمهاتنا إلا ويكون الهواء المحمل بالأكسجين ينتظر رئتينا لتسير عملية التنفس بشكّلٍ طبيعي، وهذه الرياح التي تتحرك حولنا فتنثر حبوب اللقاح لتثمر الأشجار لنا، وكذلك الأمطار المحيية للأرض والإنسان والطير والحيوان، وجعل كلّ شيء مسخّر لنا لتسهيل عملية الحياة للإنسان على هذه الأرض.

إذن فالخالق يظهر وده للإنسان بكلّ ما خلق من حوله من أنعام يستفيد منها وطيور وزرع وغيرها ممّا خلق الخالق لتيسير سبل الحياة له، قال تعالى: {والأنعام خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكلّونَ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الأنفس إِنَّ ربّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السّماء مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كلّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي

الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآَيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكلّوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشكّرُونَ وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}162، فإذا كان الخالق بعظمته وقدرته وجلّاله ودودا للإنسان بكلّ ما سبق ذكره في الآية الكريمة فكيف يكون هذا المخلوق جاحدا منكرا لهذا الود الجلّيّ؟

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرّحمن وُدًّا}163.

وخليفة الله هو من تواصل مع الخالق مظهرا كلّ أنواع ومشاعر الود الصادق له سواء كان بالشكّر والحمد أو بالدعوة للتوحيد أو بإطاعة أوامره والخضوع له، والخليفة يبادل الخالق الود فيظهر أثر ذلك في سلوكه مع نفسه ومن حوله فلا يمكن أن يكون كارها لذاته فهي نعمة من الخالق، ويكون ودودا مع من حوله لا يؤذي أحد ولا يتعدى على غيره، بل أننا نجد أن محبّة الخالق الودود في قلب الخليفة سابقة لأي محبّة أخرى، وتلك المحبّة هي من خلق الرّحمن المحب لعبده الباحث عن رضاه، الخليفة له في الأرض.

الخالق هو المصور:

[162] النحل 5 . 14.

[163] مريم 96.

التصوير هو إظهار عملية الخلق بأشكّال متباينة، والتصوير لا يكون مجسدا في الوجوه وتقاطيع الجسد فقط بل يكون التصوير في الخلق فيما يلي:

أ- هو المصور بتقسيمه العقول البشرية:

فبالرغم من ملايين البشر الذين مروا في هذه الحياة والذين ما يزالون يسيرون فيها، وكلّ هذه الملايين فإن كلّ إنسان منها يملك عقلا وتفكيرا يخصه وحده ولا يمكن أن يتطابق مائة بالمائة مع تفكير إنسان آخر حتى وإن كان توأمه، وفي هذا الخلق تصوير لتباين العقول والتفكير.

ب- تصوير الخلق بصور متباينة:

فقد شكّلّ الخالق البشر بأشكّال مختلفة ليس ذلك من باب التفضيل والتمييز بل من باب خلق التعارف والتآلف بينهم: قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ}164، فقد صوّر البشر وهم في الأرحام وفي مراحل متتالية ليخرج بالصورة التي شكّلّها الخالق عليها، كما جاء في قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 165، وكذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الإنسان مَا غَرَّكَ بِربّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ}166.

[164] الحجرات 13.

[165] آل عمران 6.

[166] الانفطار 6 . 8.

بذلك يكون على خليفة الخالق في الأرض أن يحمد الله على حسن الخَلْق، وأن يشكّره ويرضى بالصورة التي هو عليها فتهدأ نفسه وتتفرغ لحب الخالق وطاعته.

ولو تأملنا في حقّيقة الخلق لوجدنا أن الخالق خلق الإنسان وجعله مستأمنا في ملكه بعد أن قبل الأمانة التي عرضها الخالق من قبله على السّماوات والأرض فرفضتها، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السّماوات وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسان إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}167، فاستوجبت هذه الأمانة التي تباين البشر في حملها أن يكون الخالق رقيبا بعد أن كانت هذه الدنيا دار ابتلاء وامتحان له فيها، قال تعالى: {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ}168، ويأتي بذلك الخالق الحسيب على كلّ ما قدم هذا المخلوق في الحياة الدنيا، إذ أنه ليس من المعقول أن يدخل في عدل الله مساواة الظالم والمظلوم والموحد والمشرك والمطيع والعاصي، فاستلزم ذلك الحساب العادل يوم يقوم النّاس للحساب على ما قدموا من أعمال، قال تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الإنسان مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ ربّكَ أَوْحَى لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النّاس أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}169

فحكمة وجود الخلق وتباينها وابتلائها لتمييز الموحدين للخالق عزّ وجلّ، قال تعالى: {يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ

[167] الأحزاب 72.

[168] المؤمنون 115.

[169] الزلزلة 1 . 8.

عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النّار هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}170.

وخلق الله تعالى لا ينحصر في الأشياء المادية الملموسة التي تتجسد، بل هو خالقٌ للأشياء المعنوية التي تؤثر في سير حياتنا مثل:

أ- خلقه للأمومة:

الأمومة شعور مخلوق مع الأم بمجرد حملها لجنينها يخلق الخالق هذا الشعور داخلها، ينمو مع نمو الجنين ولا يقف حتى عند بلوغ الابن لسن متقدمة، لأنه شعور مخلوق يعيش في النفس طالما هي تحيا وتتنفس، فهو شعور ينمو رغم التعب والألم والانتظار، قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الإنسان بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَربَعِينَ سَنَةً قَالَ ربّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ}171.

ب- خلقه للأبوة:

الأبوة شعور مختلط بين الحنان والمسؤولية والشدة، يخلقه الله تعالى في داخل الرجلّ عند خروج الجنين للحياة، فتصبح حياته من أجلّ هؤلاء الأبناء لتوفير ما يلزمهم من جميع النواحي المادية والمعنوية.

ج- خلقه للإنسانية:

---

[170] الأعراف 35، 36.

[171] الأحقّاف 15.

الخالق جعل أصل العلاقة بين الأفراد والجماعات والدول قائمة على أساس العدل والأمان والسلام، سواء كانت هذه العلاقة تجمع ما بين المسلمين فقط أو بين المسلمين وغيرهم من الديانات الأخرى، فخلق الخالق الإنسانية لتضم قلوب البشر لبعض فيشعرون ببعضهم البعض بذلك يتحقّق الغاية السامية والنبيلة من خلقنا إذ أنه بتوحيد الله وإقامة الحقّ يصلح الكون وتعمر الأرض باستقرار هذه المبادئ السامية. وهذه الرابطة الإنسانية قابلة للنمو والبقاء وهى أقوى من رابطة الدم أو الوطن أو اللغة.

إن غطى هذا الشعور كلّ نواحي وجوانب الإنسان في معاملاته ومشاعره لحقّق بصدق رسالته في الأرض من دعوة للخير والإصلاح، فلا يمكن توقع الخير من إنسان منزوع الإنسانية، وتتمثل الإنسانية في عدة صفات منها على سبيل الذكر لا الحصر:

1- الرّحمة والحب: وهما أساس الفضائل في الأحاسيس، لأن نبع النقاء والصفاء في الروح هذان الشعوران ففيهما تكمن الإنسانية. ولقد اتصف الخالق بهما قبل المخلوق مع الفارق، فالخالق رحمته وحبه لا يحدهما زمان ولا مكان مطلقان يوزعهما كيف يشاء بعلمه المطلق ومشيئته، وهو السابق بهما على الخلق، كما جاء في قوله تعالى: {قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ ربّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإنفاق وَكَانَ الإنسان قَتُورًا}[172]، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ}[173]، قال تعالى أيضا: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[174]،

[172] الإسراء 100.
[173] الأنبياء 107.
[174] فاطر 2.

فالخالق هو المالك للرحمة العامة يتصرف فيها كيفما يشاء، فهو يرحم من يشاء من عباده بعلمه وقدرته، والمخلوق حاجته لرحمة الخالق لا تنقطع لأنّه خطاء كثير الزلات، فعند تعثر الإنسان من متاعب الدنيا ومشاغلها يبحث عن واحة يستظل بها ويستريح عندها لن يجد هذا المخلوق إلا رحمة الخالق تعالى.

والحب مخلوق جميل ولطيف وهو أساس العلاقات الصحيحة والقوية سواء كانت بين العبد وربّه أو كانت بين العباد أنفسهم، وأروع وأعظم حب هو حب الخالق لأوليائه وعباده الصالحين، فهو حب نقي لا يدخله زيف أو مصلحة، قال سبحانه وتعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[175]، فقد سبق حب الخالق حب المخلوق كما جاء في الآية السابقة فهو الأول والأقوى في حبه ورحمته بمن خلق.

فمن كان خليفة الخالق لابدّ أن يكون محبا لله ولنفسه ولمن حوله، هذا الحب الذي ينضح به قلب يعمر بحب الخالق عزّ وجلّ.

2-الاعتراف بحقّ الإنسان وحماية كرامته:

الخالق عزّ وجلّ هو الذي كرّم الإنسان أولا بأنه إنسان وهذا كافٍ لنتأكد من أنه له حقّوق وواجبات بغض النظر عن الجنس أو اللون أو الدين، قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آَدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا

[175] المائدة 54.

تَفْضِيلًا}176، ومن دلائل تكريم الإنسان أن الله قد خلقه بيده، وجعل الملائكة تسجد له، قال تعالى: {وَلَقَدْ مَكَّنَّاكُمْ فِي الْأَرْضِ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ قَلِيلًا مَا تَشكّرُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ} 177، وسخّر الخالق كلّ ما على الأرض لخدمة هذا المخلوق، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السّماوات وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً} 178، وهذا التكريم للإنسان من أجلّ خلافة هذه الأرض وإعمارها، ولأنّ هذا المخلوق المكرّم عند الله كان من الضروري الحفاظ على حقّه في الحياة الكريمة وحقّه في الحرية التي تضمن الحفاظ على كرامته كآدمي وحقّه في إبداء الرأي وغيرها من الحقّوق التي شرعها الخالق له بل خلقها معه،

د- خلقه للقوة:

هذه القوّة التي يستمد المؤمن منها القدرة على الدفاع عن الحقّ، وتطبيق أوامر الخالق، والمحافظة على ما استخلفنا فيه الخالق يتطلب القوّة المعنوية والجسدية، وهذا كان نهج رسولنا الكريم عليه الصّلاة والسّلام ومن معه فوصلوا بهذه القوّة المعنوية والجسدية إلى أقاصي الأرض، قال تعالى: {محمّد رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ}179.

هـ- خلقه للممكن والمستحيل:

176 الإسراء 70.

177 الأعراف 10، 11.

178 لقمان، 20.

179 الفتح 29.

فالخالق عزّ وجلّ قد خلق الممكن والمستحيل معا، فكلّ مستحيل بقدرة الخالق يتحول إلى ممكن إذا شاء دون أدنى تدخل منا، ولنا في القرآن الكريم أصدق الأمثلة على خلق المستحيل من الممكن، كما في قصة السيدة مريم بنت عمران إذ أنها أنجبت دون أن يمسسها بشر كما جاء في قوله تعالى: {قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا قَالَ كَذَلِكِ قَالَ ربّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آَيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا} 180، أو حتى أن يتكلّم من كان وليدا صغيرا كما نطق المسيح بن مريم حين كان في المهد، قال تعالى: {فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آَتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا}181، فبالرغم من استحالة ما قد سلف ذكره إلا أن الخالق أوجده كعبرة ودليل على قدرته وعظمته.

و_ خلقه للمعجزات:

المعجزة هي الحدث الذي لا يستوعبه العقل البشري بسهولة، إذ أنه يكون مخالف للعادة، وقد نسمع بمعجزات قد قام بها البشر وسجلّها التاريخ، ولكن إذا تأملنا في حقّيقة هذه المعجزات لوجدنا أنها لم تُخْلَق من الأساس من اللاشيء بل أنها اسْتُمِدت من أشياء قبلها قد خلقها الله تعالى من قبل، فمثلا الأهرامات العجيبة التي تُعَد في مقدمة المعجزات البشرية فإنها مكونة من حجارة خلقها الخالق ومواد أخرى في الطبيعة لم يكن للإنسان أي دخل في تكوينها أو

---

[180] مريم 20، 21.

[181] مريم 29 . 33.

وجودها، فما كان عليه إلا أنّ أبدع في طريقة البناء، على خلاف ما قد خلق الخالق من معجزات من اللاشيء، كما في قوله تعالى: {وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ}182، من البديهي للعقول تصور ما قد يحدث للبشر إذا ابتلع أحدهم الحوت فما بالك بالمكوث في بطنه وقت وهو على قيد الحياة دون أن يموت! وكذلك قوله تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكلّ شَيْءٍ عَالِمِينَ}183.فمن الإعجاز أن تأتمر الرّيح القوية بأمر الإنسان الضعيف لولا إذ أمرها الخالق بذلك، فلو حاول الإنسان أن يجربّ كافة الطرق والوسائل العلمية المتطورة لحصول ذلك لعجزوا أشد العجز عن تحقّيق ذلك لأنهم غير قادرين على خلق المعجزات.

فالمعجزات الحقّيقية هي من صنع الخالق، ولا قدرة لبشر لخلق معجزة واحدة من اللاشيء ودون الرجوع لخلق الله، فالخالق سبحانه وتعالى يكون في حقّ الله وحده، أما الخلّاق فإنه اسم من أسماء الله تعالى، وقد يصح أن يطلق على الخليفة إذ أنه لا يكون خالقا بل خلاقا، ممّا خلق الخلاق العظيم، فالإنسان يحتاج إلى مواد خام ليستطيع أن يخلق شيئا، فمثلا هو لم يخلق الحديد لكنه استطاع أن يصنع من هذا الحديد الكثير من الأشياء، وغيرها من الصناعات التي

---

182 الصافات 139 . 147.

183 الأنبياء 81.

تُبْتَكر على يد الإنسان الذي وهب الخالق له العقل للتفكير والابتكار والتحديث.

ز_ خلق الخالق للعلم:

العلم مخلوق من عند الرّحمن عزّ وجلّ، ينمو ويكبر مع الإنسان وقد يصغر ويتلاشى أيضا إذا لم يُعْتَن به ويُرَاعى، والعلم صفة من صفات الخالق إلا أن العلم المخصوص بالله هو العلم المطلق غير المحدود، العلم الذي لا يصل إليه كائن من يكون من الجن أو الإنس، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كلّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السّماوات وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}[184]، وقال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السّماوات وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السّماوات وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ}[185].

ولقد أمرنا الخالق بالتزود بالعلم الذي من شأنه رفع قيمة البشرية إلى أعلى مستويات الرقي والإيمان، لأن العلم إذا كانت الاستفادة منه في الاتجاه الصحيح تَرفَّع الإنسان به عن كلّ أنواع الضلال والرذائل،

[184] البقرة 30 . 33.

[185] البقرة 255.

فالعلم يصل بالإنسان إلى توضيح الحقّائق من حوله وكشف الأمور وتجلّيها كي لا يكون على جهل بما يحيط به، الأمر الذي نفّر منه الخالق إذ أنه دعا البشر للعلم والمعرفة للوصول إلى حقّيقة عظمته وإبداع خلقه، ولذلك فقد كرّم الخالق المخلوق برفع درجاته عنده إذا كان من أصحاب العقول النيّرة بالعلم الذي من شأنه أن يقف بصاحبه على أبواب معرفة الخالق وبالتالي الخشوع له وخشيته، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السّماء مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ وَمِنَ النّاس وَالدَّوَابِّ والأنعام مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}186، وكذلك جعل العلم علامة تمييز بين النّاس، إذ أنه لا تقاربّ ولا تشابه بين من يدرك ومن لا يدرك الحقّائق والثوابت، قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}187.

فخلق الله للعلم هو رحمة بالإنسان، لأن العلم من شأنه أن يجعل الإنسان يعرف الخالق فيقدره حقّ قدره ويجلّه ويعظمه، ويستشعر بضعفه وقلة حيلته أمام الله عزّ وجلّ، فتكون بذلك الصلة بين الخالق والمخلوق صلة تقدير ومحبّة، بعكس الجهل الذي يهوي بصاحبه إلى أرذل المستويات بالجحود والضلال اللذان يميتان أي صلة بينه وبين الخالق، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس ضُربٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ

186 فاطر 27، 28.

187 الزمر 9.

يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حقّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ}188.

ولتأكيد الخالق على أهمية العلم في الحياة بشتى مجالاتها فإننا نجد أن آخر الرسالات السماوية التي نزلت على نبينا محمّد – صلّى الله عليه وسلّم- قد بدأت بالدعوة والأمر إلى القراءة، قال تعالى: {اقْرَأْ بِاسْمِ ربّكَ الَّذِي خَلَقَ خَلَقَ الإنسان مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وربّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنسان مَا لَمْ يَعْلَمْ}189.

إن الخالق هو العليم الذي لا حدود لعلمه فكيف يرتضي لخليفته الجهل والضلال بعد أن استأمنه على خلافة الأرض، إذ أنه ليس من خلفاء الخالق من جاهل أو ضال.

وليكن خليفة الخالق في أرضه حريصا على الحفاظ على العلوم الموجودة في الحياة والاستفادة منها بالشكّلّ الإيجابي الصحيح، وأن يدرك أنه بهذا العلم سيتعرف على الخالق فلا يجادل فيما يخص هذا الخالق العظيم الفائق القدرات وسترتفع مرتبته في الدنيا والآخرة، مع أنّه مهما تعرّف عليه فلن يستطيع أن يوفيه حقّه، قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حقّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسّماوات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}190.

وصحيح أن جميع الخلق هم للخالق الواحد الأحد، لكنهم مختلفون فيما بينهم، فقد تدرجوا في الأفضلية عند الله، فأفضل البشر هم الأنبياء والرّسُل، وأفضل الرّسُل والأنبياء هو سيدنا محمّد عليه

[188] الحج 73، 74.

[189] العلق 1 . 5.

[190190] الزمر 67.

صلوات الله وسلامه، وأفضل الأمم هي أمة محمّد – صلّى الله عليه وسلّم- في الخلق، قال تعالى: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}191، وكذلك قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النّار وَأَصْحَابُ الجنّة أَصْحَابُ الجنّة هُمُ الْفَائِزُونَ} 192، وفضّل الله من أمة محمّد عليه الصّلاة والسّلام خلفائه في الأرض المصلحين، كما جاء في قوله تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}193، فقد جعل الخالق شرف خلافة الأرض لهؤلاء العاملين بطاعة الله والخاشعين والمصلحين، فكان لهم ذلك التفضيل على باقي أمتهم الذين لم يتوحدوا في درجة طاعة وحبهم واستسلامهم للخالق، فخُلق هذا التفاضل بين العباد، قال تعالى: {لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}194، فالتفاضل

---

[191] آل عمران 110.

[192] الحشر 18 . 20.

[193] النور 55.

[194] النساء 95.

إذن يكون مخلوق أساسا وموجود لوجود هذا التباين في الأعمال حتى بين المسلمين مثل اختلافهم في حبهم للإنفاق قد خلق درجات الرضا عنهم، وكذلك حبهم للتضحية في سبيل الله.

ولكي تصل إلى درجة التفضيل هذه لابدّ أن يكون الخالق حاضرا معك في ركن من أركان حياتك وفي كلّ زاوية من زوايا النفس، فتتجه إليه بالتقدير والإجلّال أولا وأخيرا، ولا نكون كالذين نراهم يستشعرون الرهبة والتقدير والخوف أمام أفراد آدميين يعلوهم مكانة ومرتبة في الحياة، فنجدهم مرتجفين متأدبين في حضرة أحد الشخصيات المهمة، في حين أن هذا التقدير والأدب لا يحضره وهو أمام خالقه العظيم حين يتعدى حدود الله أو حين يقصّر في واجب من واجباته تجاه الخالق الجلّيل، مع أنّه الأحقّ بالخشوع والطاعة والتقدير، وكيف لا يستحقّ وهو من خلق الخلق جميعا فيسبح له ويخشع كلّ من السّماوات والأرض، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السّماوات وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النّاس وَكَثِيرٌ حقّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ} 195، فمن هو الذي لا يقدر الخالق حقّ قدره بعد ذلك إلا الجاهل بعظمته؟

وخليفة الخالق هو من تيقّن أنّ الله لم يخلق الخلق لقلة أو لعزّة فهو الغني الحميد ونحن الفقراء الضعفاء.

[195] الحج 18.

من

صفات النبي إلياس

1 . رسول:

الرّسول هو الذي اتخذه الله رسولا لقومٍ أو لشعبٍ أو لمدينة أو لقرية أو لقومٍ أو للكافة وتكون له رسالة مستوجبة التبشير والدعوة بها والهداية إليها لأجلّ أن تُتَّبع اتباع توحيد لله ربّ العالمين.

والنبي بصفة عامة: مخبر عن ربّه نبأ عظيم، يهدف إلى تغيير في المجتمع على صعيد من الأصعدة، قال الله تعالى: {عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ}196، لذلك فقد وصف الله عزّ وجلّ أنَّ ما جاء النبي به هو الخبر اليقين (العظيم) ليخبر به النّاس كافة.

والرّسول يكون مرسلا برسالة ذات شريعة وأحكام، أو يُرسل برسالة رسول آخر على شريعته يدعوا إلى ما دعا إليه، فيرشد النّاس إلى الحقّ الذي اختلفوا فيه أو بدَّلوه، ليعالج نقص ما طرأ على القوم.

والرّسُل كان منهم رُسُل الكافة وهو الرّسول محمّد الذي بُعث رسول خاتما وللناس كافة، وكان منهم رُسُل العامة كما هو حال يونس صلّى الله عليه وسلّم، وكان منهم رُسُل الخاصة كما هو حال إلياسين صلّى الله عليه وسلّم الذي بعثه الله رسولا محسنا لقومه وخاصة للذين آمنوا معه منهم، قال تعالى: {سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}197.

[196] النبأ 1.

[197] الصافات 130-131.

ولأنّ إلياسين من المرُسلين الكرام جاء لقومه هاديا للتي هي أحسن وأقوم بقوله تعالى: {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ ربّكُمْ وربّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}198.

أي أنّ إلياسين جاء مُرسلا لقومه لأجلّ أن يتّقون، ولهذا فرسالته هي رسالة تقوى وتوحيد لله ربّ العالمين.

ولذا؛ فقد بيّنَ الله تعالى لخلقه كيفية عبادتهم إياه عن طريق الأنبياء والرّسُل لمنع العذر وإسقاط الحجة، فقال تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرّسُل وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}199.

لقد أنذر اللهُ فأعذر، حتى لا يكون للناس على الله عذر يوم القيامة يعتذرون به قائلين: لولا أرسلت إلينا رسلا يبيّنون لنا الشرائع، ويعلموننا ما لم نكن نعلم من الأحكام، وينبهوننا من سنة الغفلة، فكانت الرّسُل تُرسل (تترى) بسبب قصور الكثير من النّاس عن إدراك جزئيات المصالح، وعجز أكثرهم عن إدراك كلّياتها، قال تعالى: {ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرَى كلّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبُعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ}200.

فهذه الآيات هي دلائل على أنّ إرسال الرّسُل وبعث الأنبياء للخصوص والعموم والكافة هي ضرورة للناس، ونعمة من الله ورحمة بهم، وهي أيضا حُجّة قاطعة في التبليغ، لذلك قال تعالى: {وَمَا كُنَّا

198 الصافات 123 . 126.

199 النساء 165.

200 المؤمنون 44.

مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا}201. فقد جاء الخطاب شاملا لأقوام الخاص والعام والكافة، وهي منتهى الحكمة البالغة من وجوه:

الأوّل، قوله: (رسولا) جاءت نكرة فأفادت الشمول واستغرقت كلّ من يعذَّب أو لا يعذَّب.

الثاني: الدعوة إلى الهدى والردع عن الضلال في إقامة الحُجج وتمهيد الشرائع قطعا للعذر.

الثالث: بعث الرّسُل واجب لا بمعنى الوجوب على الله، وإنّما بمقتضى حكمته لما فيه من المصالح للخلق.

ولذا؛ فقد كان بعث الأنبياء والرّسُل لحكمة وبحكمة.

أ ـ إرسالهم لحكمة، لأنّه تعالى يعلم أنّ النفس أمّارة بالسوء، فتحتاج إلى من يقوّمها ويردها إلى طرق الهدى وسُبل الرشاد، فكان إرسال الرّسُل لحكمة الله تعالى في مصلحة خلقه، ومحبّة لهم ورحمة ورأفة بهم، وهذه المعطيات تتحقّق عن طريق إرسال الرّسُل بالإيمان بالله تعالى وما جاء به المرسلون، من الإيمان بالله وباليوم الآخر الذي يجازي فيه بالخير خيرا وبالشر شرا، إنَّه قانون في العدالة لا مثيل له فهو يشمل العموم في دفع الإنسان إلى عمل الخير، وتتميز حكمة الله في هذا الأمر بأن الإنسان الذي يتبع ما جاء من عند الله عن طريق الرّسُل يحقّق ما يلي:

1 ـ يهذب النفس من الداخل وينظم مشاعره وفق الأخلاق والقيم النبيلة، لأنّ هذه الأمور هي حاجة عامة لا تقتصر على إنسان دون آخر أو قوم دون قوم.

---

[201] الإسراء 15.

2 ـ يُمكِّن الإنسان من حفظ نفسه في عدم الخروج على أحكام الله حيث لا مراقب إلا قناعة الإيمان.

3 ـ إنَّ عمل الخير الصادر عن النفس المؤمنة يكون عملا متقنا باعتباره صادرا عن إرادة الإنسان في رغبته وليس مكرها عليه.

وما تقدم فإنّه لا يخص قوما دون آخرين ولا شخصا دون آخر، وإنّما حاله يسري على كلّ قوم من الأقوام التي بعث الرّسُل إليها، وذلك لاتحاد النفس الإنسانية فيما تحب وتكره، وما ترغب وترفض من معطيات الحياة الدنيا.

ب ـ إرسالهم بحكمة وذلك يتمثل بأن الأنبياء والمرسلين هم من البشر، فمنهم للخصوص ومنهم للعموم ومنهم للكافة على فترات، بحيث كلّما ابتعد النّاس عن طريق الحقّ أرسل الله رسولا يردّهم إلى جادة الصواب، قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرّسُل أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ}[202].

ومن صفات الرّسُل صلّى الله عليهم وسلّم بحكمة الله تعالى أنّهم من البشر، فهم يحتاجون لما يحتاج إليه البشر من المأكلّ والمشربّ والملبس قال تعالى: {وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرّسول يَأْكلّ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ}[203].

وكما أنّ الأنبياء والرّسُل يصيبهم ما يصيب البشر من الأمراض، ويأتيهم الموت كسائر الخلق، فليس لهم من خصائص الربّوبية والألوهية شيء، ولكنّهم بلغوا التمام في الخِلقة الظاهرة، كما بلغوا الذروة في

[202] المائدة 19.

[203] الفرقان 7.

الأخلاق، وهم خير النّاس نسبا ولهم من العقول الراجحة، والألسن المبينة ما يجعلهم أهلًا لتحمل تبعات الرسالة والقيام بأعباء النبوّة العامة التي ترشد بالفضائل إلى ما هو أفضل.

والحكمة من بعث الأنبياء والرّسُل العموم:

تظهر لنا الحكمة من إرسال الرّسُل بشرا بأن القدوة تتمثل في واحدٍ من جنسهم، ومن ثم فإن اتباع الرّسول والاقتداء به يكون في مقدورهم وضمن حدود طاقتهم، غير أنّ الله تعالى خصهم بالوحي دون بقية النّاس، قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ}[204]،وقد اختارهم الله واصطفاهم واجتباهم رُسُل مفضلين بما أعدهم عليه من فضائل خيِّرة وقيم حميدة أسست للبشرية القدوة والأسوة الحسنة في القول والفعل والعمل والسلوك، من بين سائر الخلق، قال تعالى: {اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ}[205].

ولأنّ الرّسول هو المقربّ لله تعالى بالتصديق والاصطفاء والاجتباء والعلم والحكمة فهو العليم دون غيره بأمر الرسالة المرسل بها رسولا سواء أكان رسول للخاصة أم العامة أم الكافة.

وقد يتساءل البعض:

كيف يكون الرّسول قريب؟

نقول:

يكون قريب للعباد بالمودة والمحبّة والدعوة بالتي هي أحسن.

[204] الكهف 110.

[205] الأنعام 124.

ولذا فالقريب المطلق هو الله جلّ جلّاله ولا قريب يماثل قربّه فهو القريب من غير دم وهو القريب من غير مكان وهو القريب من غير زمان إنه القريب الذي قربّه لا يقاس بعلاقة ولا مسافة ولا سرعة ولا حركة ولا امتداد.

ولذا؛ فقربّ الله تعالى برُسُله بصفة خاصّة وللخلق بصفة عامّة ليس بقرب مسافة فلو كان قربّه قربّ مسافة لكانت المسافة قابلة للقياس وإن قيست كان لقربّه بداية ونهاية ولأنه القريب فقربّه لا بداية ولا نهاية تحصره فهو المحيط بكلّ بداية ونهاية وهو على كلّ شيء قدير.

ولأنّه القريب فهو الذي لا شكّ في قربّه ولا شيء يخالجه ببعد عن عباده، فهو القريب بصفاته وأفعاله قريب بعلمه وقريب بسمعه وقريب باستجابته وقريب بجبره وعزته ونصر ومناصرته وقريب بقوته وقدرته وقريب بهيمنته وسيطرته وقريب بفضله، ولذا فهو القريب بكلّ الصفات الحسنى التي نعرفها والتي لا نعرفها.

ولأنّه القريب فقربّه لا يقارن كما أنه في ذاته لا يقارن وفقا للقاعدة التي تنص على أنَّ (الخالق لا يقارن بالمخلوق).

وقد يتساءل البعض:

كيف نعرفه قريب؟

نقول:

أدعوه فهو السميع المجيب، ولكي يستجيب لك فعليك بالاستجابة له إيمانا صافيا ويقينا كاملا تجده إليك قريب مجيب.

إنّه القريب إليك وليس القريب منك فلو قلت قريب مني لكان للمسافة مقياس وإن قلت قريب إليَّ لوجدته أقربّ إليك من حبل الوريد، قال تعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}206.

ولأنّه القريب بذاته فهو القريب برحمته ولهذا يُدعى ويجيب لمن يُريد إصلاحا في الأرض أمَّا الذي يريد إفسادا فيها فلا إجابة له فهو الحقّ يسمع ويعلم ويحيط ولكنه لا يجيب على من يرتكب الباطل ويفعله بل هو المبطل لكلّ باطل وهو المحاسب لكلّ مرتكب لباطل وهو المجازي على كلّ عمل من شأنه أن يدمغ الباطل ويزهقه، قال تعالى: {وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}207.

ولأنّه القريب ولا قريب مثله حيث لا مثال له وهو ليس على مثال يرزق من يشاء ويعزُّ من يشاء ويذل من يشاء وهو على كلّ شيء قدير؛ فهو الذي أنشأنا في الأرض لنعمّرها وإن أخطأنا فسح لنا القربّ منه بالاستغفار وجعل باب التوبة مفتوحا حيث لا فاصل بيننا وبين قربّه منَّا، قال تعالى: {وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ}208.

ولأنّه القريب فقربّه لا تجاريه السرعة وقربّه لا تفصله الفواصل، ولذا فقربّه قربّ الخالق بمخلوقه الذي يعلم بأمره قبل أن يخلقه ولأنه كذلك فكيف لا يعلم بحاله وهو القريب إليه إنه علَّام الغيوب

---

[206] البقرة 186

[207] الأعراف 56.

[208] هود 61.

سبحانه جلّ جلاّله، قال تعالى: {فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ وَنَحْنُ أَقْربّ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لَا تُبْصِرُونَ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرّبِينَ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حقّ الْيَقِينِ فَسَبِّحْ بِاسْمِ ربّكَ الْعَظِيمِ}209.

وعلى المستخلفين في الأرض أن يكونوا إلى الحقّ فاعلين وعن الباطل بعيدين حيث لا علاقة، ويكونوا بالحقّ عادلين في الأرض إن حكموا بين النّاس فيما هم فيه يختلفون وأن يكونوا عن الظلم بعيدين حتى يتمكنوا من رميه ودمغه دون تردد.

وعلى المستخلفين في الأرض إذا أرادوا إصلاحا فيها أن لا يميلوا إلى قرابة دم أو مكان على باطل فإن مالوا إلى الباطل بعدوا عن مرضاة الله فليتقوا الله فيما يحكمون وما يقولون وما يعملون وما يفعلون وما يسلكون وما يؤتمنون عليه، وهذه دعوة سيدنا إلياس وجميع الرّسُل صلّى الله عليهم وسلّم.

ولأنّه لا علم بالنبأ العظيم والرسالات الخالدة إلا من العليم العالم المطلق عزّ وجلّ فقد كان الأنبياء والرّسُل عليمين بأمور البيّنات التي بُعثوا بها أنبياء مرسلين كما بُعث إلياس لقومه رسولا من عند الله تعالى داعيا لتوحيده {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ

---

209 الواقعة 83 . 96.

أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ ربّكُمْ وربّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}210.

ولأنّ مُرسل الرّسُل هو العالم المطلق فلا تخفي عليه خافية، أمَّا العلماء في دائرة النسبية فهم في كثير من الأحيان لا يعلمون وأولئك هم الذين لم يؤتوا من العلم إلا قليلا، ولذا فالعالم جلّ جلّاله يؤتي العلم ولم يؤت إليه علما، والأنبياء والرّسُل هم الذين يعلمون علم اليقين أن الله تعالى يعلم السر والجهر، قال تعالى: {أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ}211.

ولذا؛ فالعالم هو الذي يعلم بالشيء وما يترتب عليه، وغير العالم لا يعلم عن ذلك شيئا، فالذين كتب عليهم القتال لا يرون في القتال إلا كرها لِما يسبّبه من كوارث في الحياة الدنيا، ولكن لو نظروا إلى ما سيترتب عليه لِمن يقاتل في سبيل الله والدفاع عن الشرف والكرامة وعن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لعرفوا أن القتال على الحقّ فيه الخير الكثير ولكن الذين لا يعلمون بالمترتب على القتال في سبيل إحقّاق الحقّ قد يتوقفون عند الكره الذي كان سببه القتال، قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}212.

إذا كلّما كان الإنسان عالما في دائرة الممكن كان على بيّنة، وكلّما كان غير عالم بما يجري كان في حاجة لمن يعلم ليستنير بعلمه في نهج العمل وتحقّيق السلام، ولذا لا يستوي الذين يعلمون والذين لا

[210] الصافات 123 – 126.

[211] البقرة 77.

[212] البقرة 216.

يعلمون، ولهذا بعث الله رُسله الكرام إلى النّاس كي يعلموا الحقّ ويهتدون به، قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ}213.

وعلى المستوى البشري لو تساءلنا:

هل يمكن لنا أن نعرف المفسد من المصلح قبل أن تتاح أمامهم وأمامنا فرص للعمل التي تمكننا من إصدار الحكم بموضوعية؟

نقول:

بطبيعة الحال على المستوى البشري لا يمكن.

إذا هذه الإجابة مقصورة على البشر، وذلك لأن الله العالم جلّ جلّاله يعلم بالإفساد والمفسدين قبل وقوع أفعال الفساد وهكذا يعلم بالمصلح وحاله قبل وقوع فعل الإصلاح مصداقا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ}214.

وعليه فالعالم الحقّ الذي يجب أن يوصف بالعالم هو من يعلم بالشيء قبل وقوعه سواء أكان ذلك الشيء فعل إصلاحيا أم أكان فعل إفساديا.

ومع أنّ الأشياء موجودة ومبررات ظهورها وتنوعها موجودة إلا أن العلم بها قبل وقوعها وقبل امتداد مؤشراتها مجهولا بالنسبة للبشر، إلا الأنبياء والرّسُل فإن الله يطلعهم على علم من غيبه قبل النّاس ويأمرهم بالبلاغ المبين، ولهذا الله يعلم والنّاس لا تعلم مصداقا لقوله

213 الزمر 9.

214 البقرة 220.

تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[215]. فهو سبحانه وتعالى يعلم أمر السّماء وأمر الأرض وأمر الحياة وأمر الموت وأمر البعث وأمر الحساب وأمر الثواب والعقاب والجنّة والنّار وهو بكلّ شيء عليم.

ولأنّ الله هو العالم جلّ جلّاله فأنزل من علمه الكتاب هدى ورحمة للعالمين، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آَمَنَّا بِهِ كلّ مِنْ عِنْدِ ربّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[216]، الذي يعلم تأويل الكتاب هو العالم به وهو الله تعالى، أمَّا الراسخون في العلم هم المتيقّنين بأن الكتاب هو مصدر الحقّ وإحقّاقه، ولهذا؛ فهم يؤمنون به تسليما مطلقا ولأنهم أولو الألباب فلهم ضمائر وقلوب صافية وواعية بآيات الله تعالى فلا يخفون إيمانهم بل يظهروه إيمانا بالعالم الذي وحده يعلم تأويل الكتاب الذي آمنوا به وعرفوه آيات ومعجزات عظام ليس لهم بدا إلا التسليم به والأخذ بما جاء فيه مع الطاعة التامة لله ربّ العالمين.

ولذا؛ في غير مقارنة لا علاقة بين علم العالم وعلم البشر، فالعالم عزّ وجلّ واجد الأشياء (خالقها) يعلمها خلقا بالمطلق فتبارك الله أحسن الخالقين، أمَّا البشر فيعلمون بالأشياء في دائرة النسبية معرفة محدودة.

---

[215] البقرة 238.

[216] آل عمران 7.

قال تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السّماء وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ}[217].

القول موجَّه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وكأنه يقول له: الم تعلم يا محمّد أنني أعلم ما في السّماوات والأرض، أي يا محمّد أنت تعلم أنني أعلم ما في السّماوات وما في الأرض، ودليل علمك ما أظهرتك عليه وهو على البيّنة في الكتاب الذي بين يديك. ولهذا فالرّسُل يعلمون بعلم من علم الله الذي أظهرهم عليه كما أظهر سيدنا إلياس على ما أظهره عليه من علم الرسالة التي جاء بها رسولا لقومه.

قال تعالى: {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ ربّكُمْ وربّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}[218].

يفهم من هذه الآيات الكريمات تحدّي إلياس ومقدرته على قهر الأعداء متي ما سأل ربّه القهّار جلّ جلاّله، وهنا يقول الشيخ الشعراوي: "القهر في اللغة هو السيطرة والغلبة، وهو اسم من أسماء الله الحسنى، وهو يعني لا شيء يخرج عن سيطرته وغلبته، وكلّ شيء خاضع لأمره في حركته وسكونه"[219]. ومن ثمّ فلا قهر إلّا بإرادة القهّار المطلق الذي يلتجئ إلياس إليه في كلّ أمر.

قال الإمام الصديقي: القهَّار: "هو الذي لا موجود إلا وهو مقهور تحت قدرته، مسخر لقضائه، عاجز في قبضته، وقيل هو الذي أذل الجبابرة وقصم ظهورهم بالهلاك، وحصل مراده من خلقه طوعا أو

---

[217] الحج 70.

[218] الصافات 123 . 126.

[219] الشعراوي، أسماء الله الحسنى. ص 214.

كرها، والقاهر: هو الغالب أمره وقضاؤه نافذ حكمه في مخلوقاته على وفق إرادته"220.

القهر صفة حسنة بها يُقهر الأعداء بالحقّ، والقهر قوة بها يتم ترويض الطغاة والمتكبرين كما يتم ترويض الشاة لِما تنفر؛ ولذا فالقهر صفة مغالبة لإحقّاق الحقّ.

قال الله تعالى: {وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ}221. هذه الآية تعني: أنّه خلقكم وخلق لكم ما تعملون؛ ولا تعني أنّه لم يترك لكم شيئا لتفكِّروا فيه وتصنعوه بأيديكم. وترك لكم حرية الصنعة، ومع ذلك فقد صنعتم أصناما آلهة تعبدونها من دونه تعالى، فكيف يكون حالكم وأنتم لا تعملون ممّا خلق الله لكم ما يُمكنكم من معرفة علمه الذي لم تؤتوا منه إلا قليلا ولتؤمنوا؟

فالله خلقكم وما تعملون: جاءت لتُذكِّر من يَعمل ويصنع بيديه فَضْلُ الله عليه ليحمده ويشكّره لا لأن يكفر به ويشرك به أحدا.

هناك من يظن بأن الله خلقكم وما تعملون، تُبرئ المسؤولية عن بني آدم ممّا يقترفون من ذنوب وجرائم حتى ظن البعض بأن من يقتل بريئا عمدا أو خطأ فإنما قتله الله؛ استغفر الله تعالى، الله لا يقتل. الله يميت، والموت حقّ. أما القتل فهو فعل بشري ترتقي الإنسانية عنه فيحرمه الله.

قال الشيخ الشعراوي: "إنَّ فكرة المصير المحتوم مسبقا إلى الجنّة أو إلى النّار فكرة خاطئة، وما دُمت على قيد الحياة فتؤمن أن مصيرك

220 محمد حسين، شرح أسماء الله الحسنى. الإسكندرية، المدائن للنشر والتوزيع، 1996، ص 36.

221 الصافات، 96.

لم يتحدد بعد، ولو كان العلم الإلهي المسبق بالأحداث بهذا المعنى الخاطئ الذي يفهمه هذا الشخص لما قال المولى عزّ وجلّ في سورة البقرة222: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}223.

فلو كان المصير كما يظن البعض بأنه محتوم فلماذا الاستجابة إذن؟ ولماذا يقول {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ}224؟

وعلينا أن نتذكر قوله تعالى: {وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}225 وقوله عزّ وجلّ {وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ}226

لقد خلق الله الإنسان قوة بقوته حتى أنه فضَّله وميَّزه على ما خلق؛ ومع ذلك فهو ضعيف إذا قارن قوته بقوة الله الواحد القهار. ولذا جعل له من العقل قوة للتفكُّر والتذكُّر، ولم يجعله له ليخون الأمانة ويشرك به ولا يوحده واحدا أحدا. ولقد خلق له البصر والسمع والفؤاد قوى للمشاهدة والملاحظة ولإدراك الحقّ ولم يخلقها له ليُفسد بها في الأرض ويسفك الدماء فيها بغير حقّ.

القهَّار الحقّ هو الذي يحيي ويميت، والقهار بالإضافة هو المقهور بعدم الاستطاعة لتنفيذ هذا الأمر، ولكنه يستطيع أن يقتل،

[222] الشعراوي، أسماء الله الحسنى. القاهرة، دار أخبار اليوم، ص 218..

[223] البقرة 186.

[224] غافر، 60.

[225] الأنبياء، 86.

[226] الأنبياء، 90.

ومع ذلك حُرّم عليه قتل النفس إلا بالحقّ. وأمَّا من غيرها فيستطيع أن يقتل الصيد ويذبح الغنم وينحر الإبل في حدود القتل الحلال.

القهَّار الحقّ هو الذي خلق للإنسان ما يعمل فخلق له الطبيعة، والقهَّار بالإضافة هو الخليفة الذي يُصلح فيها ويعمل لِما يُشبع حاجاته كما يشاء في مرضاة الله تعالى.

القهر: مغالبة الظلم بالحقّ ودمغه حتى يزهق، والقهَّار قاهر الظلم ودامغه بالحقّ. ولذا فإن القهر مغالبة الباطل بغير باطل مصداقا لقوله تعالى: {فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ}[227].

القهَّار: الفعَّال لِما يُريد، والغلاَّب الذي لا غالب له، مِلؤه الكمال، كاشف الأمر هو كما هو حُجَّة دامغة، مع التحكم التام الذي لا يُمكِّن من التبدل والتغيير والجحود.

وبما أنّ القهر مغالبة الباطل بالحقّ. إذن القهَّار هو الغلاَّب بالحقّ.

وبما أنه الغلاَّب بالحقّ. إذن فلماذا الخوف؟

للإجابة عن هذا السؤال نقول للخوف وجهتي نظر:

الأولى . الخوف من الحقّ: بالنسبة لأهل الباطل لا يخافون إلا من إحقّاق الحقّ، الذي به يُكشف أمرهم وما يخفون من ورائه، فالزاني لا يأمل أن يشهد عليه أحد إذا انتشر أمره بين النّاس، والسارق كذلك، والظالم أعظم. ولذا فإن الخوف من القهر لَكشِفه الحقّيقة بلا مجاملة، التي على ضوئها يُبرأ من يُبرأ ويُدان من يُدان. وأصحاب

---

[227] الضحى، 9 . 11.

الباطل هم الذين يُقهرون بإظهار الحقّيقة، ومع أنّهم يعرفون أنها الحقّ، إلا أنهم لا يأملون كشفها أمام أعين النّاس وخاصة المناصرين لها، ولذا فهم يُقهرون.

والثانية ـ الخوف من الباطل: أصحاب الحقّ دائما يلحُّون مع سعيهم الجاد وآمالهم على كشف الحقّيقة وإظهارها أمام أعين النّاس حتى ينجلّي الظلم عنهم.

المؤمنون الذين يُظهرون إيمانهم بالحقّ لا يأملون نصر المشركين عليهم، وإن انتصروا عليهم لا قدَّر الله فأنفسهم تُقهر بنصر المشركين عليهم، ومع أنّهم يؤمنون بأنهم الغالبون في النهاية إلا أنهم يتألمون مع الحسرة الشديدة على قهرهم المؤقت. وهكذا حال أنفس الضالين والمشركين فهي تحس بالقهر كلّما انتصر عليها مهتدٍ لله تعالى ومؤمنٍ به.

فالقهر دائما مترتب على ما يناقض الأمر. فإن تُصدِرَ أمرا ولا يُنفذ، وأنت لا ترغب ألا ينفذ، قد تثور وتغضب وقد تَقدِم على فعل لتعاقب به من عصاك أمرا، وقد تكتشف أنك لن تستطيع أن تعمل له شيئا، بعد أن استمد القوّة التي جعلتك لن تستطيع أن تفعل له شيئا، وإلى جانب ما كنت تعتقد ألا يجاهرك أحد بعدم الطاعة سواء كنت على حقّ أو على باطلٍ فبطبيعة الحال في هذه الحالة ستحس بالقهر من الذي كنت تعتقد أنه لا يساويك في شيء، وأصبح من المتطاولين عليك ويرفض أن يسمعك وينفذ أمرك.

وللقهر خاصيتان:

الخاصية الأولى: القهر المطلق، للذي يمتلك القوّة المطلقة، ممّا يجعل الكلّ يأتي مُسلِما له طوعا وكرها مصداقا لقوله تعالى: {أَفَغَيْرَ

دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السّماوات وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ}228. نزلت هذه الآية ردا على أقوال المتخاصمين في الأمر، وقال الكلّبي: "إنّ كعب بن الأشرف وأصحابه اختصموا مع النصارى إلى النبي صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: أينا أحقّ بدين إبراهيم؟ فقال النبي صلّى الله عليه وسلّم: (كلّا الفريقين بريء من دينه) فقالوا: ما نرضى بقضائك ولا نأخذ بدينك. فنزلت هذه الآية الكريمة (وله أسلم من في السّماوات والأرض طوعا وكرها)"229. وله أسلم تعني: وله اعترف الكلّ من غير استثناء بالمقدرة والقوّة التي ليس بإمكانهم مقارعتها، كما هو حال إبراهيم والنمرود في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آَتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}230. النمرود كان ذو مُلك كبير حتى أنه كان يَمِير الذين يؤمنون به طعاما؛ وذكر زيد بن أسلم: "أن النمرود كان يأمر النّاس بالميرة، فكلّما جاءه قوم يقول: من ربّكم وإلهكم؟ فيقولون أنت؛ فيقول ميروهم. وجاء إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام يمتار فقال له: من ربّك وإلهك؟ قال إبراهيم: ربّي الذي يحيي ويميت؛ فلما سمعها النمرود قال: أنا أحيي وأميت فعارضه إبراهيم بأمر الشمس فبهت الذي كفر؛ وقال لا تميروه. وقال الرّبيع وغيره في هذا القصص: أنّ النمرود لما قال أنا أحيي وأميت أحضر رجلّين فقتل أحدهما وأرسل

---

228 آل عمران، 83.

229 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء الرابع، ص 127.

230 البقرة، 258.

الآخر فقال: قد أحييت هذا وأمت هذا؛ فلما رد عليه بأمر الشمس بهت"[231].

وقوله: (له أسلم من في السّماوات والأرض) تعني ولله تم الاعتراف بالمطلق بعدم المقدرة التي يمتلك لها تعالى القوّة الفاعلة وينفرد بأمرها. ولذا لقد قُهر النمرود بأمر إبراهيم بالرغم من أنه في حاجة لمير الطعام، وازداد قهرا بعدما كانت النّار على إبراهيم بردا وسلاما، مصداقا لقوله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام: {قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ}[232]. فكانت بردا وسلاما عليه فالحمد لله ربّ العالمين.

وقوله تعالى: (طوعا وكرها) تعني الآتي:

طوعا: إرادة وإيمانا؛ حيث كان له الاعتراف بالقوّة القاهرة لأية قوة؛ إنها القوّة التي استوجبت من بعضهم الطاعة بالإيمان. قال تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّماءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}[233] أي بإرادة تامة واعترافٍ خالصٍ بقوتك القاهرة التي تفردت بها لقهر أية قوة ولذا فنحن من الطائعين المسبحين بحمدك.

وكرها: مغالبة بالحقّ برغم كيد الكائدين ومكر الماكرين مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ

---

[231] القرطبي، ج 3، ص 285.

[232] الأنبياء، 66. 69.

[233] فصلت، 11.

رُوَيْدًا}234 وقوله تعالى: {وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}235.

وعليه: فقوله تعالى: (وله أسلم من في السّماوات طوعا وكرها) تدل على أنَّ الاستسلام قد كان من قبل الجميع دون التبعيض؛ التبعيض جاء من أنهم لم يكونوا جميعا مسلَّمين له بالعرفان طواعية، ممّا جعل البعض يستسلمون له كرها، وجعل البعض إليه مسلمون. وقوله (له أسلم) تعني له أقرَّ واعترف بعدم المقدرة والاستطاعة على فعل ما يستطيع أن يفعله هو تعالى بذاته العلية. ولو استطاعوا أن يفعلوا لفعلوا، ولهذا كانت المغالبة لمن أسلم طوعا ولمن أسلم كرها.

والفرق بين من أسلم طوعا وبين من أسلم كرها هو أن الذي أسلم طوعا: اعترف بثلاثة أشياء هي:

الشيء الأول: الطاعة بعد العرفان بأنهم قاصرون عمّا يقدر عليه ويفعل.

والشيء الثاني: الطاعة بعد العرفان بأنّ الذي قهرهم بإظهار القوّة المطلقة يستوجب الإيمان به واحدا أحدا.

الشيء الثالث: التصديق بما يقوله على لسان من يصطفيهم من أنبياء ورسل صلوات الله تعالى وسلامه عليهم جميعا.

والذي أسلم كرها: اعترف بشيء واحدٍ على أنهم لا يغلبوه في الإعجاز وهم مجبورون على أن تكون قدراتهم هكذا طبيعيا، ومع أنّهم لا يغالبوه تعالى في شيء إلا أنهم يظنوا أن بإمكانهم أن يفعلوا ما

234 الطارق، 15، 16.

235 الأنفال، 30.

يُمكِّنهم من امتلاك زمام القوّة. حتى أنهم ظنوا وكأن الحياة في أساسها مرتبة طبيعيا دون تدخل من أحد. فهم اعترفوا بأنهم لن يأتوا بالشمس من المغربّ، وأنهم لن يُحيوا الموتى وأنّهم لن يخلقوا حياة أو يبعثوا أحدا من جديد، ومع ذلك لم يعترفوا بما قاله على لسان أنبيائه ورسله صلوات الله تعالى عليهم وسلّم تسليما.

وكلّمة كرها: تحتوي في مضمونها التبيان المنكشف أمره، فهو التبيان الذي لا يمكن أن يُخفي ممّا يستوجب الاعتراف به وبالقدرة التي من ورائه. وإلا هل هناك من يخفي الشمس والقمر والنجوم وحركتها الفلكية؟

وهل هناك من ينكر الشروق والغروب والأهلة والحساب؟

ألا تكون هذه دلائل وحجج ثابتة مَثَلُ حُجَّتها كمثل حُجَّة وجودنا ونحن مميزون عن غيرنا ممّا خلق تعالى؟

ألا تكون هذه الحُجج دامغة لمن آمن ولمن كفر؟

فإذا كانت كذلك، ألا تكون هي القاهرة لمن آمن طوعا وكرها؟

وإذا كانت الإجابة ببلى؟ ألا يكون فوق ما يُقهر قهّارا؟

القهّار: هو العادل مصداقا لقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرُمٌ وَمَنْ قَتَلَهُ مِنْكُمْ مُتَعَمِّدًا فَجَزَاءٌ مِثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ النَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ هَدْيًا بَالِغَ الْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّارَةٌ طَعَامُ مَسَاكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَلِكَ صِيَامًا لِيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِ عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ وَمَنْ عَادَ فَيَنْتَقِمُ اللَّهُ مِنْهُ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ}[236] فالذي نخصّه بالاستشهاد للقهر هو قوله تعالى: (ليذوق وبال أمره). وبال الأمر

[236] المائدة، 95.

مرارته وقسوته فكانت الاستعارة بالذوق الذي به تُميز المرارة عن الطعم اللذيذ، وذلك للتذكير بالمشابهة من حيث معرفة الأثر المترتب على مرارة الذوق مع مرارة الألم والتأسف على ما يحدث من أمرٍ لا خير فيه. ويقال الوبال سوء العاقبة.

ولذا فوبال أمره: هو ما يترتب على ما قام به من فعل منهي عنه من الله تعالى أو محرمٍ على من كان حُرم ممّا يستوجب قهر النفس التي قبلت بأن تتبع ما نهى الله عنه.

في هذه الآية النهي لم يأت مطلقا للكافة، بل جاء للخاصة وهم المؤمنون الذين هم في حالة إحرام. مصداقا لقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدلٍ منكم) في هذه الآية الكريمة مجموعة من الأحكام الرئيسة:

الحكم الأول:

مخاطبة المؤمنين بدون استثناء بأمر المحُرم.

الحكم الثاني:

نهي المؤمن عن قتل الصيد وهو حُرم وليس أي صيد وذلك لاستثنائه لصيد البحر وقصوره على صيد البر. ولأنّه ليس كلّ صيد بر بمحللٍ لذا فحرَّمه تعالى بالمطلق على المؤمن المحرِم، ولذلك ليس للمؤمن إلا الطاعة للأمر المنهي عنه.

الحكم الثالث:

المؤمنون الذين هم حُرم، ممّا يجعل النهي عنه لا يتعلق بالمؤمنين غير الحُرم.

الحكم الرابع:

قتل الصيد المتعمد وليس القتل الخطأ. قال: قتل ولم يقل ذبح أو نحر أو أي نص من النصوص التي لا التباس ولا غموض في معاني استخدامها أو القيام بها وفقا للمتعارف عليه بين المؤمنين، وذلك ليشمل الصيدين (صيد البر وصيد البحر) حيث أنَّ صيد البحر في أساسه لا يُذبح ولا ينحر، ومع ذلك فهو نعمة من أنعم الله التي انعم بها على الإنسان.

وقتل الصيد تعني كلّ حيوان بري أو بحري هو صيد، والفرق بين الصيدين: أن صيد البحر لا محرم فيه وصيد البر محرم على الحُرم، مصداقا لقوله تعالى: {أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ}237. في الآية 95 من سورة المائدة نهى عن قتل صيد البر على المؤمن المحرم وفي الآية 96 من نفس السورة حرَّم قتله بالمطلق ولذا فإن قضايا التحريم أكثر شدة من القضايا المهني عنها، ولهذا ليذوق من يرتكب الجرم وبال أمره.

وقد يتساءل البعض: لِماذا حُرِّم صيد البر على المؤمن المحرم، ولم يُحرَّم عليه صيد البحر؟

نعتقد لوجود السببين الآتيين:

السبب الأوّل: أنّ طبيعة البيئة في مكة والمدينة المنورة والمساحات التي بينها والتي يمشيها الحجيج تعيش فيها الحيوانات البرية وخاصة أيام تنقل الحجيج على الأقدام والخيل والإبل وما يتيسر لديهم من حيوانات مساعدة على التنقل والنقل والترحال، ممّا يجعل

[237] المائدة 96.

الحجيج يبيتون بين المسافات أياما وهم في طرقهم قد يتعرضون إلى حيوانات برية فليأخذوا حذرهم حيث المفترس والضار منها؛ فنهى الله عن قتلها مع أخذ الحيطة، ففي حالة ما إذا حسَّ المؤمن المحرم بخطورة عليه أو على آخرين معه من صيد بري مفترس فليس له بد من قتله.

ثم حرَّم صيده عمدا تحريما قاطعا، أي حرَّم أن يقتل مُحرِما صيدا بريا عن عمدٍ إلا إذا واجهته منه خطورة.

والمحرِم بلباس الحج إذا قتل صيدا ثم ثنى عليه بالانقضاض وقد لا يلحقّه بأنفاسه وفي هذه الحالة قد يختلط أمره بين حلال وحرام، ويتعرض إلى ذبحه وسلخه وقد يتعرض إلى شيء من الدم الذي قد يدنس إحرامه وقد يشوه طهارته.

وفي مقابل ذلك كلّ ما يخرج من البحر صيدا فهو حي إلى أن يتم إخراجه.

السبب الثاني: ليس كلّ صيد بر يؤكلّ حلالا طيبا، وفي مقابل ذلك كلّ صيد بحر يؤكلّ حلالا طيبا.

الحكم الخامس:

الجزاء بالممّاثلة أي الجزاء بالقيمة التي تساويها قيمة الصيد المقتول عمدا وهو المقصود بالنعم، أي أن الصيد نعمة من النعم التي أنعم بها الله على عباده.

الحكم السادس:

الحكم الذي لا يصدر جزافا بل يشترط فيه المشاركة بين ذوي العدل من المؤمنين وذلك لتقدير القيمة المناسبة موضوعيا للصيد المقتول خطأ من المؤمن المحُرم.

وبناء على هذه المتغيرات فمن يتمعن فيها وفي الأسرار التي من ورائها ألا يكون من ورائها القهّار العدل الذي به تطمئن نفوس المؤمنين بعد أن يُكفِّروا عن ذنوبهم؟

نحن نعتقد في ذلك وقد لا يرى غيرنا ما نرى؟

ولذا لا عيب أن تتباين وجهات نظرنا حتى يتبيِّن لنا الخطأ من الصواب لنبتعد عن الخطأ ونجتنبه، ونستأنس للصواب ونأخذ به.

وقوله تعالى: (هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين أو عدل ذلك صياما) في هذه الآية أيضا أحكام:

الحكم الأوّل:

الهدي إلى الكعبة: أي أن تعود قيمته إلى ما يخدم بيت الله الحرام. حيث يُفعل به كما يُفعل بالهدي من تصدق وأعمال الخير.

الحكم الثاني:

الكفارة عن قتل صيد البر عمدا لإطعام المساكين الذين هم في حاجة.

الحكم الثالث:

الصيام للذي لا يستطيع أن يهدي شيئا إلى الكعبة وهذا الصوم هو أيضا في حاجة لمن يُقدِّره عددا من ذوي العدل من المؤمنين.

وفي قوله تعالى: (ليذوق وبال أمره عفا الله عمَّا سلف ومن عاد فينتقم الله منه والله عزيزا ذو انتقام) تحتوي هذه الآية على الأحكام الآتية:

الحكم الأول:

ذوق الوبال، الذي فيه شدة وقسوة على من آمن طوعا حتى ينال المغفرة والرّحمة بالهدي أو الكفارة أو الصوم.

الحكم الثاني:

العفو عمَّا سلف قبل نزول هذه الآيات المبيِّنة للمنهي عنه والمحرَّم منه.

الحكم الثالث:

انتقام الله تعالى من الذين يعودون بتكرار الفعل المحرَّم من قِبله تعالى.

وبناء على ما تقدم نلحظ التضاربّ بين ما يرغبه بني آدم وبين كبحهم عنه فهم لو لم يحبوا الصيد ويهووه ما ابتلاهم الله بتحريمه عليهم في فترات كونهم حُرما، ولذا فهم مقهورون بهذه الحجة من الذي يؤمنون به ويحجون إلى بيته الحرام أي مجبرون إجبارا ومكرهون على الالتزام وإلا يتعرضون للعقاب الشديد من القهَّار الأعظم جلّ جلّاله.

الحكم الرابع:

عزة الله للمؤمن المحرم بأن يكون طائعا له غير عاص لأمره، فإن عصاه سيكون ذو انتقام شديد. ولذا فإن العزّة لله بالإيمان به والأخذ بما يأمر والابتعاد والاجتناب عما ينهى عنه ويُحرِّم.

يقول الدكتور محمّد بكر إسماعيل: "قهره مصاحب لعدله، وعدله مصاحب لرحمته، وانتقامه مصاحب لحلمه، وهذا هو السر في

كمال أسمائه وصفاته، فلا ينفرد اسم عن اسم، ولا صفة عن صفة، فهو سبحانه واحد في ذاته وصفاته وأفعاله، وهذا هو السر في اقتران القهَّار بالواحد في القرآن الكريم"238.

نعم يتم الاتفاق في هذا الأمر مع ما قاله الدكتور فأسماء الله وصفاته تتعدد وهو واحد لا يتعدد، ولذا فالله هو المحتوي لمضامين أسمائه وصفاته الحسان، وكلّ صفة أو اسم فهو يحتوي الصفات الأخرى ويتضمن كلّ ما تدل عليه.

قال تعالى: {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (39) مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}239. صاحبي السجن هما الفتيان اللذان دخلا مع يوسف عليه الصّلاة والسّلام السجن، واللذان اعتقدا فيه حُسنا فطلبا منه أن يُنبئهما برؤية كلّ منهما حيث أحدهما رأى أنه يعصر خمرا، ورأى الآخر أنه يحمل فوق رأسه خبز تأكلّ الطير منه فاستفتاهما بما رأى كما هو مبين في سورة يوسف عليه الصّلاة والسّلام الذي صدق استفتاؤه لِما رأى.

وقوله تعالى: (أأربّاب متفرقون خير أم الله الواحد القهّار) في هذه الآية تساؤل استغرابي وتعجبي، مع حملهِ لمضمون السخرية من الذين يعبدون أربّابا من دون الله الواحد القهار. فأربّاب متفرقون تعني: غير متساوين في الرأي والقدرة والاستعداد والأمل والرغبة والحاجة فهم إن كانوا بشرا فهم يمرضون ويتألمون ويطمعون ويتسيسون ويظلمون ويجوعون ويضحكون مع وعلى، متى ما يشاؤون وكيف

---

238 محمد بكر إسماعيل، أسماء الله الحسنى آثارها وأسرارها. القاهرة، 2000، ص 66.

239 يوسف، 39.

يشاؤون؛ وهم الذين ينامون ويختصمون ويتصادمون وهم الذين لهم غرائز تجعلهم يُقهرون بتُعرَّضهم للضعف والاستسلام، وهم الذين ينتهون وبالموت يُقهرون؛ فهل مثل هؤلاء يحقّ أن يُتخذوا أربّابا؟

ولو كانوا أربّابا لفسدت حيث امتلاك كلّ منهم القوّة التي تقيم الساعة والقوّة التي تُعيدها بعد قيامها؛ وهكذا تصبح الحياة بين أيدي الغاضبين مِنْ، والغاضبين عَلى. وبما أنهم لا يملكون هذا الأمر ولو اجتمعوا بقواهم جميعا؛ إذن هم يفتقدن القدرة التي تجعل من الربّ إلها يُعبد.

وما بالك إن كان الربّ إلها صنما من حجارة أو تمر أو حديد، فهو الذي لا يغضب لحقّ، ولا يفعل خيرا ولا يُحيي ولا يُميت، ولا يشفي مريضا ولا يرحم ولا يغفر، ولا يتحكم في الأمر وهو بالزمن يبيد.

هذه الأصنام لو كانت تنطق لقالت: أنا المخلوقة ومن ورائي خالق قهَّار، وأنا التي تُسبِّح بحمد خالقها صباحا مساء، فأنا في حاجة لرحمته ممّا تفعلون بي، فلو كانت لي مقدرة لقوَّمتكم قبل أن تقيموني صنما، فأنا في حاجة لرضاه، وأستغربّ أنكم لا تسعون لنيله قبل أن تنتهوا وحينها لا ينفعكم الندم. فأنا أيها العُبَّاد مخلوقة من خالق قهار، فأنا المنتهية وهو الباقي، فعليكم بالحياد عمن لا يبقى وتمسكوا بالحي الدائم الذي لا يموت.

يَقهر: تعني يَهزِم ويَغْلِب، والقهَّار: هو الغالب الفعَّال الذي لا غالب له.

وقد يتساءل البعض: كيف يَهزِم القهَّار ويَغلِب؟

. يهزم بالحجة، مصداقا لقوله تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّماء كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيْطِرٍ}240.

وقوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}241

. ويغلب بالبرهان: مصداقا لقوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}242.

الربّ الذي يستوجب أن يُعبد هو الربّ القهّار، الذي يقهر بالحجة والبرهان ولا يُقهر بغلبة.

وعليه أتساءل: عندما تعرف بأنّ الله يخلق كلّ شيء حيا، وأنت لا تستطيع أن تخلق شيئا حيا، ألا تكون مقهورا أي مغلوبا في هذا الأمر؟

. وإذا قيل لك أن الله يحيي ويميت، وأنت لا تستطيع على واحدة منهما ولو اجتمعت معك الإنس والجن، ألا تكون مغلوبا أيضا في هذين الأمرين؟

[240] الغاشية 17 . 21.

[241] التين، 4.

[242] البقرة، 258.

. وإذا عرفت أن الله جلّ جلّاله يأتي بالشمس من المشرق وأنت لا تمتلك المقدرة على إيقافها أو الإتيان بها من المغربّ، ألا تكون مقهورا وأنت لا حُجَّة لك ولا برهان.

. وإذا قيل لك أن الله غفَّار الذنوب جميعها وأنت لا تقدر على غفران ذنب واحد ألا تكون مقهورا مغلوبا.

. وإذا قيل لك أن الله يخلق ما يشاء كيف يشاء وأنت لا تستطيع إيقافه عما يخلق، ألا تكون مقهورا لأنك لا تستطيع أن تفعل شيئا؟

. وإذا قيل لك أنه بكلّ شيء عليم، وأنت لا تعلم، ألا تكون مقهورا مع مجموع ما قُهرت به سابقا؟

. وإذا عرفت أنه القوي وأنت الضعيف ألا تعترف بأنك المقهور في هذا الأمر.

وللإجابة على هذه التساؤلات: على الإنسان أن يبحث حتى يأتي بما يخالف ذلك أو يتمكَّن بمعرفة تامة بأنه المغلوب أمام قدرته تعالى، وحينها ليس له بد إلا أن يؤمن بأنه الله الواحد القهار.

قال تعالى: {قُلْ مَنْ ربّ السّماوات وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كلّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}243. الأمر (قل) موجّه إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، بأن يسأل المشركين عمن ربّ السّماوات والأرض؟ وأمره بأن

[243] الرعد، 16.

يقول لهم إني يُجيبهم بأنه الله عزّ وجلّ. وذلك لأن أمر الله بالنسبة للرسول والذين آمنوا معه هو أمر تسليم.

ثم قال الله تعالى لرسوله الكريم: قل لهم (أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا) في هذه الآية تساؤل استغرابي يتساءل عن الكيفية التي هم عليها أي كيف تعترفون بالله تعالى وتعبدون من دونه من لا يستطيع على مشاركته في شيء ولا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا؟

ثم قال له قل لهم: (هل يستوي الأعمى والبصير)؟ بطبيعة الحال يحمل هذا التساؤل ما يفيد الإجابة، بعدم التساوي، وفي ذلك استدلال على من يرى الحقّيقة ويعرفها وعلى الذي لا يراها. ممّا جعله يؤكد ذلك بقوله: (هل تستوي الظلمات والنور) بمعنى هل يستوي الجهل والعلم، والشّرك والإيمان؟ أم أنهم (جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم)؟ إنه استهزاء بعقولهم مع سخرية تُمكِّن من الإدراك، فكيف يكونون عقلاء وهم لا يميزون بين الظلمات والنور ولا يميزون بين الأعمى والبصير ويعرفون أن آلهتهم لا تخلق شيئاَ وهي المخلوقة بأيديهم ممّا خلق الخالق الأعظم. ولذا فإن كانت خلاَّقة فعليهم أن يَروا ما خلقت، أم أنَّ ما خلقته اختلط مع ما خلقه الله تعالى حتى أنهم لا يستطيعوا فرزه وتمييزه عن بعضه البعض؟

جاءت الإجابة على جميع التساؤلات السابقة بقوله تعالى: (قل الله خالق كلّ شيء وهو الواحد القهَّار). أي بما أن الله هو خالقهم وخالق المادة التي خُلقوا منها آلهتهم أو صوَّروها، وأن آلهتهم لا تقدر على أن تفعل شيئا لها ولا لهم، وأنها لم تكن مشاركة في أي أمر ولن تكون؛ إذن فعليهم أن يعترفوا بأنهم مقهورون بمغالبة الحقّ للباطل فليؤمنوا أو لا يؤمنوا فإن الله هو الواحد القهَّار.

وعليه من أراد أن يكون من خلفاء لله تعالى في الأرض، فعليه بالحقّ فيها، وألا يُغيِّب عقله الذي ميزه به عن الضمير الذي يعود به إليه تعالى، وهو العرفان بالعبودية الممتلئة بالطاعة التامة في غير معصية ولا شرك.

إنَّ قهر الخالق لعباده يزيدهم إيمانا تاما به، وذلك لإدراكهم على أنهم مهما عملوا وفعلوا من خير فلن يستطيعوا أن يعملوا ما خلق لهم خالقهم من خير، وإذا اكتشفوا وعرفوا وتعلموا يجدوا أنفسهم لن يؤتوا من العلم إلا قليلا ممّا علمهم الله تعالى من آيات وعلوم ومعارف واسعة، وهكذا يسعون ويبحثون حتى يُدركوا أنهم مهما فعلوا وعملوا وخلقوا فهم مقهورون أمام خلق الله وعلمه وأسراره وعزته وقوته وجبروته سبحانه لا إله إلا هو الواحد القهَّار.

قال تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}244 المؤمن لا يناقش أنّ الأرض والسّماوات تُبدل أو لا تبدل فهذا الأمر بالنسبة له قول حقّ لا يأتيه الباطل من خلفه ولا من بين يديه. بل الذي يود أن يُظهره: هل يمكن أن يتم هذا التبُّدل بدون قوة قاهرة؟ وعندما تأتي الساعة التي سيحدث فيها هذا الأمر هل يمكن أن تكون هناك إجابة غير الاستسلام لله الواحد القهار؟ في الاعتقاد الإيماني ليست هناك إجابة غير أن يؤذِّن ذلك المؤذِّن المؤمن الذي اطمأن قلبه بإجابة أصحاب النّار الذين وجدوا ما وعدهم الله حقّ بعد ما قال لهم لقد وجدنا ما وعدنا الله حقّا.

أمَّا مع غير المؤمنين إذا كانت الإجابة بنعم بين اتفاق واختلاف، فما هي الإجابة التي يمكن أن تكون لنا حُجَّة؟

---

244 إبراهيم، 48.

بالتأكيد من يقول نعم لن يجد إلا الله الواحد القهار. ومن يقول لا، لن يجد إلا الله الواحد القهار.

وعلى الذين يعيشون على الأرض قبل تبدلها والسّماوات، أن يتبينوا الأمر قبل فوات الأوان فإن الله غفور رحيم. وليبدأوا بموضوعية تامة، بطرح التساؤلات التالية على أنفسهم ولا داعي لأن يجيبوا عليها فإجاباتها محمولة فيها وهي:

. ألا يكون الألم فعل قهر ومغالبة؟

. ألا يكون المرض فعل قهر ومغالبة؟

. ألا يكون العطش فعل قهر ومغالبة؟

. ألا يكون الجوع فعل قهر ومغالبة؟

. ألا يكون الجنس فعل قهر ومغالبة؟

. ألا يكون الهرم والكبر فعل قهر ومغالبة؟

. ألا يكون الموت فعل قهر ومغالبة؟

. ألا يكون البعث فعل قهر ومغالبة؟

. وختاما فمن الذي يملك أمر ما قدمنا من تساؤلات؟ بالتأكيد سيكون الإجماع على نعم تلك التي جعلت المؤمن يؤذن بين أصحاب الجنّة بعد ما سمع بأمر أصحاب النّار بأنهم قد وجدوا ما وعدهم به ربّهم حقّا. والذين عندما سئلوا: لمن الملك اليوم أجابوا أنه لله الواحد القهار.

وبالعودة إلى قوله تعالى: (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسّماوات) قالت عائشة رضي الله عنها: "سأل رسول الله صلّى الله

عليه وسلّم: عن قوله: (يوم تبدل الأرض غير الأرض والسّماوات) فأين يكون النّاس يومئذ؟ قال صلّى الله عليه وسلّم: (على الصراط) أخرجه ابن ماجه بإسناد مسلم وأخرجه الترمذي عن عائشة وهي السائلة"245.

قال تعالى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنْذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}246. الرّفعة والعلو خاصية من خاصيات الله تعالى، وإلا هل يمكن أن يكون قهّارا لو لم تكن هذه من خاصيته؟ فالرفعة والعلو خاصية القوي القادر على القهر لمن يحاول أن يعلو عليه. وهو الذي يرفع من يشاء بالإيمان درجات. فرفيع الدرجات تعني: رفيع المكانة والعرش والصفات الحسان. فهو الذي يرفع درجات من يشاء بالتوبة والعمل الصالح.

وجاءت (الدرجات) جمع للشمولية حيث مقدرته الشاملة لرفع الدرجات بالعلم والعمل والإيمان والصدق والكسب الحلال، فهو الغني الذي يغني، وهو مالك الملك الذي يؤتي الملك لمن يشاء وينزعه ممن يشاء، وهو الذي يعزُّ من يشاء ويذل من يشاء، وهو الذي بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير.

ولذا فمن أراد أن يكون من بين الذين يُستخلفون في الأرض فعليه بالإيمان الذي يمده بالرفعة والعلو عن النواقص وعن الطمع والجهل والرذيلة ويمده بالهيبة ويجعله في مقام محمود.

245 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. الجزء التاسع، ص 383.

246 غافر، 15، 16.

وقوله (ذو العرش) تدل على اختصاصه به دون غيره، وجاء العرش مُعرَّف، لعدم التثنية والجمع والتعدد بالمشاركة، فالعرش واحد مثلما الله واحد، ولذا لا مشاركة فيه. ومع أنّه لا تجوز المشاركة فهو يؤتى لمن دونه ممن يشاء من الملك، وينزعه منه متى ما شاء كيف يشاء. فذو العرش: تعني الملك والحُكم الذي لا يزول كما تزول عروش الملوك والسلاطين والأمراء والحكام بمختلف أنظمتهم ومذاهبهم وأساليبهم السياسية، ولذا تتكوّن العُروش بمشيئته وتُنزع بمشيئته، فهي لم تكن موضع مقارنه مع العرش القهَّار رفيع الدرجات الذي بيده أمر الروح والملائكة والإنس والجن.

ولأنّه مالك الملك فهو الذي يبعث الحياة في مُلكه وينظمه كما يشاء، ولأنّه كذلك بعث الأنبياء والمرسلين واستخلفهم في الأرض مبشرين ومنذرين على اتباع ما يريده القهار الأعظم لصالح مخلوقاته وتنظيم العلاقات بينها. فمن يعمل خيرا يجد الله مجازيا له بالخير الأوفر، ومن تجني يداه إثما سيجد الله شديد العقاب ويجده غفورا رحيما لمن استغفر وتاب وعمل صالحا واهتدى إلى سبيل ربّه بالحكمة والموعظة الحسنة.

ويوم التلاقي: هو اليوم الذي يُبعثون فيه، فيلتقي فيه السابقون مع اللاحقّين، ويلتقي المذنب والشاهدين عليه، والظالم والمظلوم والسارق والمسروق، ويلتقي فيه المؤمن مع الكافر، ويلتقي أهل السّماء والأرض ليبرزوا هؤلاء جميعا أمام الخالق القهَّار للجزاء بالثواب أو العقاب أي بالجنّة أو النّار. اللهم اجعلنا من أهل الجنّة ولا تجعلنا من أهل العار والنّار يا عزيز يا قهَّار يا الله.

وبارزون تعني: واضحون هم وأعمالهم وذنوبهم على الأشهاد حيث لا سرَّ ولا جرم بعد ذلك اليوم، الذي سيسألون فيه (لمن الملك

اليوم)؟ حيث لا إجابة في ذلك اليوم إلا قول الحقّ القاهر للجميع: (لله الواحد القهار).

قال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}247. قل يا محمّد لمن يشرك أنا رسول الله أنذر بأمره ولا أشرك بعبادة ربّي أحدا، إنّه الله الواحد القهَّار. ولذا فإن محمّد صلوات الله وسلامه عليه جاء منذرا مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}248.

قال تعالى: {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}249 بما أنّ الله تعالى هو خالق كلّ شيء، فخالق كلّ شيء لا يحتاج لأيِّ شيء. ولذا من يُسلِّم بأنه خالق كلّ شيء، يُسلِّم بأن الخالق لو لم يكن سابقا على ما خلق ما خلقه، وبما أنه سابق على كلّ ما خلق، فهو ليس في حاجة لِما خَلَقَ، وذلك لأن الحاجة لو كان فيها لكان في حاجة لِما يُشبِعَها حتى يتمكن من أن يَخلق، ولأنه خلق كلّ شيء وهو لم يكن في حاجة لشيء، لذا فإن الله هو الواحد القهَّار.

قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ}250 القهر: الغلبة؛ والقهَّار هو الغلاَّب؛ والقاهر: هو الغالب بأمره وقوته

---

247 ص، 65.

248 الأنعام، 19.

249 الزمر، 4.

250 الأنعام، 18.

وعزته وهيمنته وقدرته ومقته وكيده ومكره، ولذا فهو فوق عباده بالمغالبة بالرّحمة والعزّة، والقوّة والقهر.

وفوق عباده: مكانةً ومُلكا وعرشا وهيمنةً وعلما وحكمةً، أي منزلة لا محلّ لها في المقارنات، حيث التفرد بالوحدانية والقهر.

والحكيم الخبير: العالم بما يجب والمقدِّر له، ولهذا خلق كلّ شيء بميزان مصداقا لقوله تعالى: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ}251 أي كلّ شيء أسس وقُدِّر بمقدار معين تقتضيه حكمته.

قال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الحقّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}252. القاهر: كما بينا هو الغالب، وهو صاحب المكانة العلية والعرش المحمول من قبل الملائكة المسبِّحين بحمد الله تعالى والداعين للعباد بالمغفرة والتوبة والهداية.

والحفظة هم الملائكة المأمورون بحفظ العباد والدعاء لهم بالهداية ومتابعتهم ومتابعة أعمالهم وحفظها، وهم شهود الحقّ الذين لا يفعلون إلا ما يُؤمرون.

حظ الخليفة في الأرض من هذا الاسم والصفة الحسنى، أن يستمد منها ما يُمكّنه من مغالبة الجهل وقهره بالعلم، ومغالبة الفقر وقهره بالغنى، ومغالبة المرض وقهره بالشفاء، ومغالبة الظلم وقهره بالعدل، ومغالبة الباطل وزهقه بالحقّ، ومغالبة الانفراد بالأمر وقهره

---

[251] الحِجر، 19.

[252] الأنعام 61، 62.

بالمشاركة والمشورة، ومغالبة الأنا الطاغية وقهرها بالنحن سويا. ومغالبة التخلف وقهره بالتطلُّع.

ومن يدَّعي القوّة فليتذكر قوة الله عليه، ومن يدَّعي القدرة فليتذكر قدرة الله الواحد القهار؛ والذي يعتقد أنه بماله وغناه يقدر على قهر النّاس فليتذكر غنىَ الله ومُلكه الواسع مصداقا لقوله تعالى: {أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ}253. والذي يعتقد أنه قادر على قهر النّاس بعلمه فليتذكر قوله تعالى: {وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا}254 وقوله عزّ وجلّ: {وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا}255. ومن يعتقد أنه قادر على قهر النّاس بفصاحته فليتذكر البيان الحكيم، ومن يعتقد أنه قادر على قهر النّاس بعرشه فليتذكر العرش العظيم الذي تحمله الملائكة وليتقِ الله به. ومن يعتقد أنه قادر على قهر النّاس بجماله فليتذكر قوله تعالى في كتابه العزيز: {وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ ربِّي إِنَّ ربِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ}256. ومن يعتقد أنه قادر على تخويف النّاس فليخف الله ولِيتذكر قوله تعالى: {إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}257 وقوله تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}258.

ولذا فالخليفة هو الذي يقهر الذل في نفسه ولا يقهر الآخرين بغير حقّ، وهكذا يقهر الخوف والظلم والجشع والشّرك وأن يفوض

[253] فاطر، 15.

[254] الإسراء، 85.

[255] طه، 114.

[256] يوسف 53.

[257] يونس، 62.

[258] قريش، 4.

أمره لله الواحد القهار. وليعلم أن المغفرة لا تتم إلا بمثوبة وعمل صالح، فليتب إليه ويعمل عملا صالحا حتى يغفر الله له ذنبه وخطاياه.

فالمؤمن هو الذي بذكر القهار يطمئن قلبه بالإيمان ثقة بأنه لا يُهزم أبدا مادام يؤمن بالواحد القهار ويلتجئ إليه في كلّ أمر؛ ولهذا من يقول أنا الغالب يقال له: لا غالب إلا الله الواحد القهار. وليتذكر قهره تعالى للجبابرة وأخذه لهم أخذ عزيز مقتدر، فقد قهر فرعون وهامان وقارون والنمرود وأُبي بن خلف، وأبو لهب وكلّ ملك أو طاغية من يوم الخلق الأول إلى يومنا هذا سيقهر وإلى أبد الابدّين الله الواحد القهار.

القهَّار مُغالب لكلّ قوة ولكلّ قدرة، ولذلك فهو فعَّال لما يريد، ولذا فهو مالك الملك ومالك الأمر سبحانه جلّ جلّاله.

قهر القهار مستلزم لحياته وعزته وقدرته فلا يتمّ قهره للخليقة إلا بتمام حياته وقوّة عزته واقتداره. إذ لولا هذه الأوصاف الثلاثة لا يتم له قهر ولا سلطان[259]، فالقهار حي، قال تعالى: {هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ ربّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِربّ الْعَالَمِينَ}[260]، وهو عزيز، {إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[261]، وهو مقتدر، {وَاضْربْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السّماء فَاخْتَلَطَ بِهِ

[259] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 66.

[260] غافر 65-66.

[261] المائدة 118.

نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كلّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا}262.

وهذه الصفات الثلاث توضح بجلّاء قهره سبحانه لمن يشاء من عباده، فالحي متمكن من إدامة القهر لكلّ شيء، ولا يزال قهره يتكرر أبدا، ما دامت السموات والأرض، فالحي قادر على القهر من قبل ومن بعد، فالله عزّ وجلّ أهلك قوم نوح وقهرهم، وقهر قوم هود، وقهر فرعون وهامان والنمرود، قال تعالى: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادا الْأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْل إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أظلمَ وَأطغَى وَالمؤْتَفِكة أهْوَى فغَشَّاهَا مَا غشَّى فبِأيّ آلاء ربّكَ تَتَمَارَى هَذا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذرِ الأولَى}263.

والله سبحانه قهَّار لكلّ متكبر جبَّار، والدنيا فيها المتكبرون وما أكثرهم، وفيها المجرمون وما أظلمهم، والمستضعفون كثيرون وعاجزون يفتقرون إلى معين قهَّار، وملك قادر جبار، فالواحد القهار هو ملجأهم وهو بالمرصاد لكلّ متكبر جبار264، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ ربّكَ بِعَاد إِرَمَ ذَاتِ العِمَادِ التِي لَمْ يُخْلقْ مِثلهَا فِي البِلادِ وَثمودَ الذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالوَادِ وَفِرْعَوْنَ ذي الأَوْتَادِ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ فَأَكثرُوا فِيهَا الفَسَادَ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ ربّكَ سَوْطَ عَذَابٍ إِن ربّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}265، وسيقهر بالحقّ من يكتب عليه القهر من المستحقّ من عباده، فهل في هذا القهر ظلم؟ إن الذات القاهرة منزهة عن ذلك، فالقهار ليس ظالما وقد نص على نفي الظلم عنه في خمس

262 الكهف 45.

263 النجم 50-56.

264 أسماء الله الحسنى 72-73.

265 الفجر 6-13.

آيات ثلاث منها باسمه الأعظم فقال: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}266، وقال: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}267، وقال تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}268، والملاحظ في الآيات الثلاث نسبة عمل السوء إلى العبد ممّا يجعل نسبة الظلم إلى القهار منتفية، فلولا هذا العمل الذي أقدم عليه العبد ما كان القهر بالعقوبة، أمّا في الآيتين الأخريين فقد كان نفي الظلم عنه سبحانه بصفة الربّوبية في الأولى منها وذلك في قوله سبحانه وتعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}269، أما الثانية فجاء النفي بصيغة الخطاب المباشر من القاهر سبحانه وتعالى لعباده إذ يقول لهم: {قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}270، وفي هذه الآيات دلالة بالغة لكلّ ذوي الألباب تفيد بأن قهر القهّار حقّ وعدل.

وللمعاند ولمن في قلبه مرض يزيد القهار الإفادة بكون قهره حقّ، فيأتي بالآيات الدالة على أنّه لا يحب الظلم ولا يحب الظالمين، قال تعالى: {وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ}271، ومن كرهه لهم جعل العقاب يحل بهم في الدنيا والآخرة، ففي الدنيا يعذب الظالمين ويتوعد من يرغب بالظلم بعذاب شديد في الدنيا فيقول: {فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَالِيَهَا

[266] آل عمران 182

[267] الأنفال 51.

[268] الحج 10.

[269] فصلت 46.

[270] ق 28-29.

[271] الشورى 40.

سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ مَنْضُودٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ ربِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ}272، أما الآخرة فإن عقاب الظالم فيها أشد من عقابه في الدنيا بكثير، وقد أتى في مشهد يذهل منه العقول، {لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ}273، والصورة المتمثلة في هذه الآية شديدة على المتأمل لحال الظالمين في النّار، فهم يتوسدون هذه النّار ويلتحفون بها وكأنما هم يحتمون منها بها! لا حول ولا قوة إلا بالله، هذا ما عملت أيديهم وما ربّك بظلام للعبيد.

وتوصلنا هذه الحجج البينة إلى حقّيقة مفادها أن قهره سبحانه حقّ، فعلى الخليفة أن يعي هذا الدرس فيكون قهره للمستحقّ عن حقّ، أي نتيجة لجرم ارتكبه العبد وليس دون فعل موجب للقهر لأن ذلك يجعل القهر باطلا، والحقّ أي أن يكون القهر لأجلّ إقرار الحقّ ومنع الفساد وكلّ ما سوى ذلك يوقع الخليفة في غياهب الباطل التي نهاه ربّه عنها وحذره منها، وبحقّ أي أن يكون القهر بما علمه القهار من وسائل القهر فلا يجور على العباد، وإذا سأل سائل عن وسائل القهر المتاحة للخليفة نقول: إن كلّ ما نص عليه القهَّار في شرعه من وسائل لمعاقبة الجناة من تعزير إلى جلّد إلى قطع إلى قتل هي من وسائل قهر الظلم المؤدي إلى إقرار الحقّ ومنع الفساد وإعمار الأرض، وقد يُرى في هذه الوسائل بعض الوهن وهو حقّيقة يُفسرها النقص في قدرة القهار بالإضافة (الخليفة)، أما القهَّار المطلق فقهره لا يشبه بشكّلّ من الأشكّال قهر خليفته في الأرض.

[272] هود 82-83.

[273] الأعراف 41.

والقهّار الحي العزيز، فهو الواحد القهار الذي قهر بعزته وعلوه الخلق كلّهم، فنواصيهم بيده، وما شاء كان لا يمانعه فيه ممّانع، وما لم يشأ لم يكن، فلو اجتمع الخلق على إيجاد ما لم يشأه الله لم يقدروا، ولو اجتمعوا على منع ما حكمت به مشيئته لم يمنعوه274، ويرتبط فعل القهّار بالعزّة، فأخذ القهار أخذ عزيز مقتدر، {وَلَقَدْ جَاءَ آَلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ كَذَّبُوا بِآَيَاتِنَا كلّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ}275، فهو عزيز مقتدر، إذ هو الواحد في ذاته واحد في صفاته واحد في أفعاله وقهَّار لجميع خلقه داخلون تحت قدرته والسّماوات مطويات بيمينه ومقهورون في قبضته وتحت سلطانه قهر اقتدار276، والاقتدار من صفات القهار ويتجسد في شمول القهر لمن يشاء، قال تعالى: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آَيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا}277، وانتفاء منع قهره من أحد من المخلوقات، قال تعالى: {يُبَصَّرُونَهُمْ يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ كلّا إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِلشَّوَى تَدْعُوا مَنْ أَدْبَرَ وَتَوَلَّى}278.

ويجمع ابن القيم هذه الصفات الثلاث في أبيات شعر فيقول:

وكذلك القهار من أوصافه... فالخلق مقهورون بالسلطان

---

[274] شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 41.

[275] القمر 41-42.

[276] حز الغلاصم، ابن الحاج القفطي، ج 1، ص 69.

[277] النساء 140.

[278] المعارج 11-17.

لو لم يكن حيا عزيزا قادرا... ما كان من قهر ولا سلطان[279]

فالقهار قادر على قهر من يشاء من المخلوقات، فهو القادر على قهر الأحياء بالموت، {كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ}[280]، وهو القادر على تحديد وقت ذلك دون أن يكون لأحد القدرة على تأخير أو تقديم هذا القهر، قال تعالى: {وَلِكلّ أُمَّةٍ أجلٌ فَإِذَا جَاءَ أجلّهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ}[281].

ويمتد القهر ليشمل غير الأحياء، فالجبال تنسف، {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا ربّي نَسْفًا فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا}[282]، أي أنّ القهار بقوته وقدرته ينسف كلّ قوة، ولهذا فهو القهار للأرض والسّماء مصداقا لقوله تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}[283].

والقهار هو المذل، فالقهر في وضع العربيّة الرياضة والتذليل يقال قهر فلأن الناقة إذا راضها وذللها، والله تعالى قهر المعاندين بما أقام من الآيات والدلالات على واحديته وقهر جبابرة خلقه بعز سلطانه[284]، وذل القهار شامل للدنيا والآخرة، ففي الدنيا يذل المعاندين بالهزيمة، {وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا ربّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ

---

[279] توضيح المقاصد وتصحيح القواعد في شرح قصيدة الإمام ابن القيم، أحمد بن إبراهيم بن عيسى، ج 2، ص 232.

[280] الأنبياء 35.

[281] الأعراف 34.

[282] طه 105-107.

[283] إبراهيم 48.

[284] تفسير أسماء الله الحسنى، الزجاج، ج 1، ص 38.

وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}285، وبالخزي، {ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ مِنْ دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ أُسَارَى تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}286، وبالموت، {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الحقّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ}287، فالقهّار هو الذي يقهر عباده بالموت، فهل يمكن لمخلوق أن يرد الموت عنه أو عن أحد آخر! وهو الَّذِي يَقْهَرُ وَلا يُقْهَرُ بِحَالٍ، وَقَهَرَ الْخَلْقَ كلّهُمْ بِالْمَوْتِ288.

أمّا في الآخرة فإنه قاهر الجميع، قال تعالى: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ}289، قهرا خاصا بقدرته وعزته وتفرده عن بقية خلقه، وقد أشار سبحانه إلى ذلك تذكرة لمن يعقل فقال:

[285] البقرة 250-251.

[286] البقرة 85.

[287] الأنعام 63.

[288] الأسماء والصفات للبيقهي، ج 1، ص 164.

[289] الشورى 45.

{فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ}290، ويستثني القهّار من خلقه صفوة من أحسن القول والعمل في الدنيا من قهر ذلك اليوم ويبشرهم بذلك بقوله سبحانه: {مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ}291.

والقهّار هو الذي قهر الخلق على ما أراد292، وذلك بأن كتب لإرادته العلو على كلّ إرادة، وهو بذلك أنزل القهر بمن يعارض هذه الإرادة عن طريق العجز الحاصل فيه عن رد إرادة القهار وهذا هو القهر الحقّيقي، أن يكون المعاند مسلوب القدرة على رد أو منع إرادة الله، وإذ عرفنا ماذا يريد القهار لاشكّ سنفهم نوع القهر الذي يقع على المعاند أو الكافر، ولذا فالقهار يريد أشياء تقع بالقوّة والقدرة دون معاندة ومن هذه الأشياء:

. يريد البيان والهداية، قال تعالى: {يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}293، وهذه الإرادة متحقّقة قهرا لكلّ من لا يريد لها أن تكون شريعة الأرض، فكلّ الأمم كانت بين أمرين لا ثالث لهما من القهار، إما الإقرار والإيمان بما يريد القهار أو أن يحل بهم القهر المطلق الذي عليه تترتب أفعال العذاب الماحقّ الذي لا يبقي ولا يذر، وقد قربّ القهار العباد من سبل الهداية بأن أرسل إليهم الأنبياء والرّسُل في كلّ الأمم والشعوب والمدن والقرى، مبشرين ومنذرين وداعين للعمل الصالح والفلاح في الأرض وإعمارها، {وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كلّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ

290 الفجر 25-26.

291 النمل 89.

292 الاعتقاد للبيقهي، ج 1، ص 56.

293 النساء 26.

اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حقّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ}294، فإذا أبوا بعد ذلك قهرهم القهار بقوته وعزته فأرسل عليهم العذاب الدنيوي ولهم في الآخرة عذاب أليم، قال تعالى: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ}295، بينما الناجي من هذا القهر الخليفة المتقي، ولاشكّ يظهر هنا للمتأمل أن القهر حقّ وليس فيه ظلم أو جور على أحد من العباد، وهذا ما يجب أن يعيه الخليفة القهار بالإضافة، وأن يتمثل دلالة القهر الحقّيقية فينزهها من الشوائب التي تنحى به إلى الظلم فيتحول من قهر حقّ إلى قهر باطل.

2 . يريد تمييز المؤمن عن الكافر، هذه الإرادة من حِكم القهَّار سبحانه لا يعلمها إلا هو، لأن سبحانه قادر على أن يجعل النّاس كلّهم على الهدى وليس فيهم ضال ولا جاحد ولا كافر ولا منافق، ولكن ذلك يعني بالتأكيد أن يكون الإنسان مسيرا محكوما وله طريق واحد هو الإيمان والعمل بالطاعات على أساس الجبر لا الاختيار، وليس هذا هو المراد من خلق الإنسان ومن استخلافه على الأرض، فالإنسان خلق لغاية يذكرنا بها القهار في كتابه وفي كلّ رسالته، فيقول سبحانه وتعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإنس إِلَّا لِيَعْبُدُونِ}296، فالمطلب الأول هو العبادة ولكن أي عبادة! إنها عباد الاختيار أي أن تؤمن بالله القهار سبحانه إيمانا مطلقا وتاما وذلك بأن تتمثل قوله جلّ وعلا: {آمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كلّ آمَنَ بِاللَّهِ

294 النحل 36.

295 فصلت 17-18.

296 الذاريات 56.

وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}297، هذا هو الإيمان المطلق، ونعود إلى إرادة التمييز فبعد كلّ الدلائل وكلّ الأمثال يبقى الاختيار عند الإنسان إما الإيمان وإما الكفر، فهل يمكن لأحد من المخلوقات رد هذا الاختيار، لقد قهر القهار عباده به فهو لا يرد ولو لم يقهرهم به لما بقي من حجة على كافر يعذب أو مؤمن يجازى.

3 . عذاب الكافرين في الدنيا والآخرة، قال تعالى: {وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ}298، ويلاحظ في إرادة القهّار أن منعها مستحيل بالمطلق وذلك لأن الأداة المحقّقة للقهر مكنونة في ذوات هؤلاء الكافرين على سبيل الافتخار، فهم يحبون المال حبا جما، {وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا}299 والقهار سبحانه يزيدهم منه في الدنيا، {وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ}300، والأموال كما الأولاد هما من الفتن التي فتن بها القهار هؤلاء الكافرين، قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ}301، فهل يستطيع أحد من هؤلاء أن يرفض ما جُبل على حبه؟ وهل يستطيع بعد ذلك أن يرد إرادة القهار؟ فإذا كان الجواب لا وهو كذلك علمنا ما هو القهر.

---

[297] البقرة 285.

[298] التوبة 85.

[299] الفجر 20.

[300] آل عمران 178.

[301] التغابن 15.

4 . إرادة التسليم بالطاعة، يريد القهار أن يسلم العباد له بالأمر والطاعة بعد أن يرسل إليهم من ينبههم ويدعوهم ويذكرهم، فإذا أطاعوا فقد قهر القهار تجبرهم وأبدلهم به إيمانا يجزون عليه في الآخرة فلا يقهرون بالعذاب كما يبشرهم القهار سبحانه وتعالى بقوله: {وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}302، وأما إذا أبوا التسليم فالقهار يقهرهم بقدرته، ويضربّ لنا القهار مثلا عميق الدلالة على قدرة القهر وطبيعتها فيقول: {وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحقّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا}303.

القهار: غالب لا يُغلب304، وغلبة القهار مطلقة بالأمر كما يقول سبحانه: {وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}305، وهو غالب بجنده، قال تعالى: {وَلَقَدْ سَبَقَتْ كلّمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ}306، وحزبه غالب: {وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ}307، (حزب الله) هم المتعاضدون على الحقّ بالحقّ. وأصل الحزب؟ القوم يجتمعون لأمر حزبهم. ويحتمل أن يريد بحزب الله: الرّسول والمؤمنين. ويكون المعنى: ومن يتولهم فقد تولى حزب الله، واعتضد بمن لا يغالب308، وهو القهار سبحانه.

---

302 الأنعام 48.

303 الإسراء 16.

304 المواقف الإيجي، ج 3، ص 308.

305 يوسف 21.

306 الصافات 171-173.

307 المائدة 56.

308 تفسير الزمخشري، ج 2، ص 39.

وعباده غالبون، على الخصوص كما حدث مع سيدنا موسى، {قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ}[309]، وعلى العموم كما تنص الآية على غلبة المؤمنين عموما، {إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ}[310]، أما أعداء القهار فلن يغلبوا وإن سعوا وأعدوا واستعدوا، قال تعالى: {فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ}[311]، ولن يغلبوا وإن طال بهم الأمد وغرهم الأمل، {بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ قُلْ مَنْ يَكْلَؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ}[312]، وإن اعتضدوا بالشيطان وجنوده، {وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ}[313].

---

[309] القصص 35.

[310] آل عمران 160.

[311] الشعراء 44-47.

[312] الأنبياء 40-44.

[313] الأنفال 48.

هنا يجب أن يعلم الخليفة أنه قهار غالب إذا كان له من العمل والغاية ما يرتقي بهما إلى مصاف القهار بالإضافة، وذلك بأن يعمل بالحقّ وللحقّ عندها سيكون بالتأكيد غالب لا يغلب كما القهار جلّ وعلا. والقهَّار من العباد "من قهر أعداءه وأعدى عدو الإنسان نفسه التي بين جنبيه فهي أعدى له من الشيطان الذي قد حذر عداوته ومهما قهر شهوات نفسه فقد قهر الشيطان إذ الشيطان يستهويه إلى الهلاك بواسطة شهواته وإحدى حبائك الشيطان النساء ومن فقد شهوة النساء لم يتصور أن ينعقل بهذه الأحبولة فكذلك من قهر هذه الشهوة تحت سطوة الدين وإشارة العقل ومهما قهر شهوات النفس فقد قهر النّاس كافة فلم يقدر عليه أحد إذ غاية أعدائه السعي في إهلاك بدنه وذلك إحياء لروحه فإن من مات عن شهواته في حياته عاش في مماّته"[314]، قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}[315].

والقهار: "قهر الكلّ ولم يدخل في القهر ذاته وصفاته"[316]، فهو الذي قهر النّاس بالحُجَّة المعجزة، فكلّما ارتقى النّاس في أمر واتخذوه حُجة على قوتهم وجبروتهم وتسلطهم جاء القهار بحجة من جنس ما يعرفون فقهرهم بها، وأول من احتج بوحي القهار سبحانه سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ

---

[314] المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، الغزالي، ج 1، ص 82.

[315] آل عمران 169-170.

[316] الإنصاف، الباقلاني، ج 1، ص 56.

الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}317، ويلاحظ أن معجزة زمن سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كانت الفكر والجدل الذي عُرفت به بابل حيث كان النمرود يحكم، لذا فإن الحجَّة القاهرة كانت من جنس ما يعرفون وهو جدال إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام جدلا عقليا وذلك باستخدام أسلوب الاستدراج العقلي حيث استدرج إبراهيم النمرود إلى ما يستطيع الرد عليه (ربِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ) فجاء النمرود بشخصين كما تذكر الروايات فقتل واحدا ثم ترك الآخر، ثم انقض عليه إبراهيم بما لا يستطيع رده (قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ) مستمدا المعطيات الواقعية وهي الشمس وشروقها والقمر وغروبه وكلّها ممّا شاهده النمرود وعايشه يوميا، وهؤلاء قوم فرعون عرفوا السحر حتى خدعوا أعين النّاس به وأوجسوا في أنفسهم ما لا يرضي الله، {قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النّاس وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ}318، لكن القهّار غالب لا يغلب فلابدّ أن تكون حجته غالبة قاهرة، {قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آَمَنَّا بِربِّ هَارُونَ وَمُوسَى}319، وفي الآية دلالات عظيمة من القهار، ففيها إشارة إلى عِظم سحر هؤلاء تتمثل في خوف سيدنا موسى عليه الصّلاة والسّلام من سحرهم، لكنه من جند القهار فهو أعلى وإن عَظُم فعلهم مهما كان، وفيها إشارة إلى أن فعل هؤلاء سحر أما فعل موسى فهو قهر لهذا السحر.

[317] البقرة 285.

[318] الأعراف 116.

[319] طه 66.

وهذا عيسى عليه الصّلاة والسّلام حجته من جنس ما يبرع فيه القوم الذين أرسل إليهم، فقد كان الطب عمل القوم الذي برعوا فيه، فما من مرض إلا ووجدوا له علاجا حاشا بعض الأمراض التي أعيتهم، فجاء عيسى عليه الصّلاة والسّلام بعلاج لها متحديا ومحتجا بذلك عليهم، فلما لم يؤمنوا قهرهم بما لم يتخيلوا فجاء بإحياء الموتى بإذن الله، قال تعالى: {وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}320.

ثم جاء النبي الخاتم محمّد عليه الصّلاة والسّلام حيث كان العربّ في أوج بلاغتهم وفصاحة لسانهم إلى الحد الذي كانت فخرهم الذي يفتخرون وعزهم الذي يأملون، فكانت القبائل تذبح الذبائح وتقيم الولائم إذا ظهر فيها شاعر، لأن من شأن ذلك أن يشهد لهذه القبيلة بالبلاغة والفصاحة، لذلك كانت الحجة القاهرة من جنس علمهم وهو القرآن الآية في الفصاحة والبلاغة مع تحدٍ من القهار أن يأتوا بعشر سور من مثله، قال تعالى: {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}321، فلما تبين عجزهم تحداهم الإتيان بسورة واحدة من مثله، {أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}322، طويلة كانت أو قصيرة مّثْلِهِ في البلاغة وحسن الارتباط وجزالة المعنى على وجه الافتراء، وحاصله على

[320] آل عمران 49.

[321] هود 13.

[322] يونس 38.

ما قيل: إن كان ذاك افتراء مني فافتروا سورة مثله فإنكم مثلي في العربيّة والفصاحة وأشد تمرنا واعتيادا في النظم والنثر، وعلى هذا فالمراد بإتيان المخاطبين بذلك إنشاؤهم له والتكلّم به من عند أنفسهم لا ما يعم ذلك وإيراده من كلّام الغير ممن تقدم، ويجوز أن يكون المراد ما ذكر ولعله السر في العدول عن قولوا سورة مثله مثلا إلى ما في النظم الكريم، أي إن كان الأمر كما زعمتم فأتوا من عند أنفسكم أو ممن تقدمكم من فصحاء العربّ وبلغائها كأمرؤ القيس وزهير وأضاربّهما بسورة ممّاثلة له في صفاته الجلّيلة فحيث عجزتم عن ذلك مع شدة تمرنكم ولم يوجد في كلّام أولئك وهم الذين نصبت لهم المنابر في عكاظ الفصاحة والبلاغة وبهم دارت رحى النظم والنثر دل على أنّه ليس من كلّام البشر بل هو من كلّام خالق القوى والقدر323.

ولابدّ لنا من الوقوف مع مسألة اختيار الحجة من جنس علم القوم التي تنزل عليهم، ولماذا هي قريبة من إفهامهم مع قدرة الله على أن يأتي بما هو أقوى وأعظم؟ إن في هذا الاختيار أعظم العبر على أن القهَّار عادل، فلو كانت الحُجة ممّا يفوق قدراتهم ومعارفهم لاختل ميزان الاحتجاج، ولسقط التحدي، من هنا كانت الحجة قريبة تُمكّن من يشاء أن يحاول تحدي هذه الحجة، فالسحرة حاولوا غلبة حجة موسى لكن القهار سبحانه وتعالى قهرهم، والعربّ حاولت أن تأتي بمثل القرآن إلا أن تلك النصوص بدت سخيفة سمجة لا ترقى إلى مستوى فصاحة العربّ وبلاغتهم ممّا جعلهم يستهجنوها قبل غيرهم.

والقهار يقهر ولا يُقهر، ومن مظاهر قهره قهر الكيد والمكر، ونقول أنّ هذا من شأن القهَّار وحده سبحانه وتعالى القادر على قهر الكيد والمكر وذلك لما فيهما من السرية والكتمان من قبل الكائد

323 تفسير الالوسي، ج 4، ص 8.

والماكر، ولكن القهار عالم علام، {وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفي} 324، وقال تعالى: {يَوْمَ يَجْمَعُ اللَّهُ الرّسُل فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُوا لَا عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلّمُ النّاس فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ والإنجيل وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آَمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آَمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ ربّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السّماء قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكلّ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ} 325 من هنا من علمه سبحانه قهر كيد الكائدين ومكر الماكرين، قال تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} 326، وقد سألنا معاند عن وصف القهار نفسه بخير الماكرين، فرددنا عليه بما قال من سبقنا من العلماء حيث فسروا المكر بأن قالوا: "إن أصل المكر في اللغة، السعي بالفساد في خفية ومداجاة، قال الزجاج: يقال مكر الليل، وأمكر إذا أظلم، وقال الله تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذين كَفَرُواْ} 327، وقال: {وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ

324 طه 7.

325 المائدة 109 ـ 113.

326 آل عمران 54.

327 الأنفال 30.

إِذْ أَجْمَعُواْ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ}328، وقيل أصله من اجتماع الأمر وإحكامه.

فالمكر هو إحكام تدبير الأمر، وهو على نوعين إما مكر سيء ذكره القهار بقوله جلّ شأنه: {اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا}329، ومكر حسن نسبه القهّار إلى نفسه فقال: {وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كلّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ}330، وهذا المكر الحسن هو رد مكر السوء عن النّاس فهو أفضل وأحسن من مكرهم، وهو كذلك أقوى وأعلى من مكرهم، قال تعالى: {وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ}331. وهو أسرع لأنّ من صفات المكر السرعة في تنفيذه لكن مكر القهار أسرع، {وَإِذَا أَذَقْنَا النّاس رَحْمَةً مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُمْ مَكْرٌ فِي آيَاتِنَا قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ}332.

ومكر هؤلاء وإن كان عظيما كما وصفه تعالى بقوله: {وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا}333، إلا أنّ القهّار قهر مكرهم هذا بقدرته التي ليس لهم ولا لغيرهم القدرة على مطاولتها أو ردها، {قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ

328 يوسف 102.

329 فاطر 43.

330 الرعد 42.

331 النمل 50-51.

332 يونس 21.

333 نوح 22.

قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ}334.

ومكر الله جلّ وعلا "من صفاته التي تطلق مقيدة، فالله – جلّ وعلا – يمكر بمكر من مكر بأوليائه وأنبيائه المستخلفين في الأرض، وبمن مكر بدينه؛ وذلك لأنها في الأصل صفة نقص، ولكن تكون صفة كمال إذا كانت بالمقابلة؛ لأنها حينئذ فيها معنى إظهار العزّة، والقدرة والقهر والجبروت وسائر صفات الجلّال والكمال، فمكر الله – جلّ وعلا – من صفاته التي يتصف بها، على وجه التقييد، فنقول: يمكر بأعداء رسله، ويمكر بأعدائه، ويمكر بمن مكر به، ونحو ذلك"335.

وتظهر في تفسير اسمه القهار سبحانه قضية اقتران الواحد بالقهار في كلّ الآيات التي ذكر فيها اسم القهار سبحانه والآيات هي:

1 . {يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}336.

2 . {قُلْ مَنْ ربّ السّماوات وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لأنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا

---

334 النحل 26.

335 التمهيد لشرح كتاب التوحيد، صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، ج 2، ص 39.

336 يوسف 39.

كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كلّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}337.

3 . {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}338.

4 . {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}339.

5 . {لَوْ أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا لَاصْطَفَى مِمَّا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}340.

6 . {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}341.

وللعلماء في تفسير ذلك آراء كثيرة منها:

1- جاء هذان الاسمان الكريمان (الواحد القهار) في القرآن مقترنان معرّفتان في المواضع كلّها، وكلّ ذلك في سياق إقامة الحجة على المشركين في الألوهية الزاعمين أن لله شركاء في استحقّاق العبادة. فحصل المقصود مع بقاء الاسم (الواحد) على معناه المعروف الموافق لسائر الآيات، هذا ولما كان الاسم (الواحد) إنما هو صريح في نفي

---

337 الرعد 16.

338 إبراهيم 48.

339 ص 65.

340 الزمر 4.

341 غافر 16.

النظير في الربّوبية، وما يقتضي استحقّاق العبادة، أردف في الآيات كلّها بالاسم (القهار) ليتمم المعنى المقصود342.

2- واسم الله القهار ارتبط باسمه الواحد في القرآن والسنة وذلك لأن الله قاهر فوق كلّ قاهر، فلا يوجد الانفراد في القهر إلا لله وحده، وذلك لأن كلّ مخلوق فوقه مخلوق يقهره، ثم فوق ذلك القاهر قاهر أعلى، حتى تنتهي قوة القهر للواحد القهار، فالقهر والتوحيد متلازمان343.

3- الواحد القهار، وذلك لأنّ شرط القهار ألا يقهره أحد سواه وأن يكون هو قهارا لكلّ ما سواه وهذا يقتضي أن يكون الإله واجب الوجود لذاته إذ لو كان ممكنا لكان مقهورا لا قاهرا ويجب أن يكون واحدا، إذ لو حصل في الوجود واجبان لما كان قاهرا لكلّ ما سواه، فالإله لا يكون قهارا إلا إذا كان واجبا لذاته وكان واحدا344.

ويمكن لنا أن نقول بالإضافة إلى ما سبق: أن اقتران الواحد بالقهار فيه إيحاء عظيم الدلالة بقدرته عزّ وجلّ، فهو الواحد وغيره يكون أكثر من واحد كآلهة الكافرين، وكثرة المعاندين، وأصناف المنكرين فلمن تكون الغلبة؟ ألهؤلاء المجتمعين؟ أم للواحد؟ لاشكّ أنها للواحد الذي قهر الجميع فهو القهار جلّ شأنه.

والفرق بين القاهر والقهار أنّ القاهر هو الذي له علو القهر الكلّي المطلق باعتبار جميع المخلوقات وعلى اختلاف تنوعهم، فهو

---

342 القائد إلى العقائد، عبد الرحمن المعلمي اليماني، ج 1، ص 138.

343 أسماء الله الحسنى، ج 6، ص 22.

344 تفسير الرازي، ج 9، ص 45.

قاهر فوق عباده، له علو القهر مقترنا بعلو الشأن والفوقية، فلا يقوى ملك من الملوك على أن ينازعه في علوه مهما تمادى في سلطانه وظلمه وإلا قهره القهار، ومعلوم أن المقهور يحتمي من ملك بملك، ويخرج بخوفه من سلطان أحدهما ليتقوى بالآخر، لكن الملوك جميعا إذا كان فوقهم ملك قاهر قادر فإلى من يخرجون وإلى جوار من يلجؤون، قال تعالى: {قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كلّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}345، فالقاهر هو الذي له علو القهر الكلّي المطلق.

أمّا القهّار فهو الذي له علو القهر باعتبار الكثرة والتعيين في الجزء، أو باعتبار نوعية المقهور، فالله عزّ وجلّ أهلك قوم نوح وقهرهم، وقهر قوم هود، وقهر فرعون وهامان والنمرود، قال تعالى: {وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادا الأُولَى وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَى وَقَوْمَ نُوح مِّن قبْل إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أظلمَ وَأطغَى وَالمؤْتَفِكة أهْوَى فغَشَّاهَا مَا غشَّى فبِأيِّ آلاء ربّكَ تَتَمَارَى هَذا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذرِ الأولَى}346، وقهر قوم صالح وقوم لوط، وقهر أبا جهل والمشركين وقهر الفرس والصليبيين، والله سبحانه قهار لكلّ متكبر جبار، والدنيا فيها المتكبرون وما أكثرهم، وفيها المجرمون وما أظلمهم، والمستضعفون كثيرون وعاجزون يفتقرون إلى معين قهار، وملك قادر جبار. فالقهار كثير القهر قهره عظيم أليم، يقصم ظهر الجبابرة من أعدائه فيقهرهم بالإماتة والإذلال، ويقهر من نازعه في ألوهيته وعبادته، وربّوبيته وحاكميته وأسمائه وصفاته347.

345 المؤمنون 88.

346 النجم 50-56.

347 أسماء الله الحسنى -72-73.

2 . تقي:

التقي هو المتجنب لكلّ ما يجب اجتنابه والبعد عنه، ولذا فالتقي هو الذي يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويعظ بالحقّ ولا يقدم على شيء إلا وهو في مرضاة الله.

ولأنّ التقي هو الراضي فهو من لا تلحقّه النواقص والندم وهو الذي يقبل الأعمال من المرضي عليه في رضائه تعالى.

وعليه: فالراضي هو الله تعالى بأفعاله وصفاته الحسنى ونعمه التي لا تُحصى فهو على كلّ شيء قدير فإن أراد شيء يقول له كن فيكون.

إذا الراضي هو الذي في ذاته الرضا حيث لا رضا إلا ومستمد منه، فهو الذي يمد بالرضا ولا يستمده من شيء.

والرّضا قبول بالقول أو الفعل أو الاثنين معا عن إرادة مع تقدير لكلّ قول ولكلّ فعل.

وعليه: فالرضا تقوى الله بالفضائل التي يرتضيها ممّا يجعل التقوى ممتدة وغير متوقفة، بل متصلة من الدار الدنيا إلى الدار الآخرة، ولهذا فمن أراد نيل رضا الله فعليه باتقائه وذلك بأن يقول الحقّ في الدار الدنيا ليكون من المرضي عنهم في الدار الآخرة، ومن أراد أن ينال رضا الراضي العظيم في الآخرة فعليه أن يعمل خيرا في الدار الدنيا ويتقي الله ربّ، ومن أراد أن يحصد الخير الوفير في الآخرة عليه بزراعة بذوره في الدار الدنيا التي فيها التربّة الصالحة لزراعة الخير، ولكن الذين لا يزرعون إلا الشرور فلن يجنوا إلا العذاب الشديد.

ولأنّ إلياسين صلّى الله عليه وسلّم رسول من المتقين كان داعيا لقومه إلى التقوى {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ} بدون شكّ المتقي ليس له بدا إلا أن يدعو إلى التقوى طاعة لله واهتداء للحقّ، ولهذا كان إلياسين قد أدى رسالته على الوجه الحسن وأتمّها في مشيئة الله دعوة للهداية والتقوى.

ولذلك، لا مخرج من هذه الدار الفانية إلا الصدق والتقوى، ولهذا؛ فمن يتقي الله يجد له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب، {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَلّ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكلّ شَيْءٍ قَدْرًا}348، إذا خير مخرجٍ من هذه الدار إلى الدار الآخرة هو الصدق بالقول الحقّ والفعل الحقّ وخير مجازي على الصدق هو الراضي الذي برضاه يدخل الصادقين الجنّة أمّا أولئك المنافقين والفاعلين للشرور والمفاسد في الأرض لن ينالوا إلا العذاب الشديد وجزاؤهم جهنّم خالدين فيها أبدا.

وعليه: فالتقوى هي التي جعلت الرّسُل والأنبياء حامدين شاكرين لأنعم الله عليهم وعلى خلقه؛ فالحمد لله جاعل يوما فيه ينفع الصادقين صدقهم بأن لهم جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا، والحمد لله الذي جعل الخلود في النّار للكفّار مساويا للخلود في الجنّة للصالحين والذين قد أصلحوا في الدار الدنيا، والحمد لله الذي جعل الرضا متبادلا بينه وبين عباده الذين أصلحوا ولم يُفسدوا، مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ

348 الطلاق 2، 3.

جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}349.

ولأنّ الله تعالى هو الراضي فهو الذي رضي على السابقين الأولين الذين اتقوه كما كان إلياسين متقيا ثم اتبعوه بإحسان فكتب لهم الجنّة، ولذلك كان الراضي راضٍ عن المتقين الذين بايعوا رسول الله محمّد تحت الشجرة المباركة بايعوه عن صدقٍ وصفاء نية لا تخاذل ولا نفاق فهم المتقون الذين جازاهم الله مرتين:

في الحياة الدنيا بنيل رضا الله تعالى عليهم بأن أنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا عزيزا كان متحقّقا في حياتهم برضا الراضي جلّ جلّاله، ثم مدهم بمغانم كثيرة قد أخذوها أخذا كريما، قال تعالى: {لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}350.

ولأنّه الراضي بالمطلق فقد جعل رضاه صفة يمكن لمن أراد أن يستمد صفة الرضاء منه فليستمدها بالإيمان والإسلام والعمل الصالح والفلاح في الأرض وإعمارها والأمر بالمعرف والنهي عن المنكر، ومن يستمد صفة الرضا من الراضي تعالى يصبح من الراضين برضا الراضي وبما يرضيه عنهم وعن غيرهم، ولذا فالذين ينالون رضا الراضي لا يمكن أن يناصرون ظالما أو كافرا أو مشركا أو ضالا ولو كان من بين هؤلاء آباؤهم أو إخوانهم أو أي قريب من أقربّائهم فهؤلاء الذين كتب الراضي في قلوبهم التقوى والإيمان بالحقّ وجعلهم محقّين له وزاهقين للباطل وهم راضون، ممّا يجعل جزاؤهم الجنّة خالدين فيها أبدا، رضي

---

349 المائدة 119.

350 الفتح 18، 19.

الله عنهم في الحياة الدنيا بما عملوا ورضا عنهم في الآخرة فأدخلهم الجنّة وكذلك هم راضون بما جازاهم الراضي به من جنة نعمها لا تُحصى، قال تعالى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آَبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}351.

وعليه: فمن يخشى ربّه ويتّقيه بالقول الحقّ والفعل الحقّ ويطيعه في كلّ أمرٍ أمرَ به وفي كلّ نهي نهى عنه وفي كلّ محرَّمٍ حرّمه يجازيه جنة عرضها السّماوات والأرض رضا من الراضي على عباده الذين آمنوا واتقوا وعملوا صالحا، وكذلك رضا من العباد على الراضي الذي جازاهم بجنَّة النعيم التي تجري الأنهار من تحتها، ولذا فمن يتقي الله ويخشاه يجد له مخرجا ويجازيه الجنّة مصداقا لقوله تعالى: {جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ}352.

ولأنّه الراضي بالحقّ على الحقّ فهو ليس بالراضي على العباد الذين يُظهرون ما لا يبطنون من القول، وهؤلاء الذين يختانون أنفسهم يعلم بما تَكنَّه صدورهم، ولذا لا يحقّ لمؤمنٍ أن يجادل عن الذين يختانون أنفسهم والله يعلم حقّيقة أمرهم وهو لا يحب من كان خوانا أثيما، فالذين يستخفون من النّاس ولا يستخفون من الله لن ينالوا من الله رضا وهو بما يعملون محيطا، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا يَسْتَخْفُونَ

---

[351] المجادلة 22.

[352] البينة 8.

مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا}353.

وعلى الخليفة أن يكون صادقا في القول وناصحا وصادقا في العمل لكي ينال رضا الراضي جلّ جلاله ولكي يجد نفسه في الآخرة من الراضين بما أتاهم الله الراضي من خيرات ونعم هي على الكثرة المطلقة التي لا تُعد ولا تُحصى، ولكي لا يأخذ برأي المنافقين عليه بالتبيُّن والتقصي حتى يتبيّن الحقّ من الباطل وأن لا يتسرَّع في إصدار الأحكام على الأقوال التي يسمعها من الذين لم يكن له حكما عليهم بالمخالطة والمشاركة والرفقة والمعرفة الوافية فالحياة مدرسة وعليه بالتعلم فيها والتعلم منها ولا يقول أنني قد تعلمت فإن قالها فقد جهل وعليه بتقوى الله في كلّ كبيرة تقال أو تُفعل أو تُعمل.

ولذا، فالتقي الذي يعلم بالأمر ليس له بدا إلا أن يعظ بما لديه من مواعظ وذلك لعلمه بالعاقبة المترتبة على الفعل المستهدف بالأداء قبل أن يتحقّق، وهذه من أفعال الأنبياء والمرسلين الذين منهم إلياس صلّى الله عليهم وسلّم فأولئك الرّسُل هم الذين يُعلِمهم الله بالنبأ العظيم قبل غيرهم ممّا جعلهم على الهداية طائعين وهادين إلى كلّ ما أظهرهم الله عليه ووعظهم به.

ولذا؛ فالواعظ هو المرشد للحقّ عن تبيُّنٍ وخبرة وعلمٍ.

وفي اللغة: "الوَعْظ والعِظةُ والعَظةُ والمَوْعِظةُ النُّصْح والتذْكير بالعَواقِب"354.

---

353 النساء 107، 108.

354 لسان العرب، ج 7، ص 466.

والواعظ بالمطلق هو الله الذي يعلم بالشيء وحاله والمخلوق وحاله وما يجب حياله فيعظ بما يجب قبل الإقدام على أي خيار من الخيارات في دائرة الممكن على المستوى البشري.

ولذلك؛ فالواعظ جلّ جلّاله هو الذي أنزل لنا كلّ ما يجب أن يُتَّبع وكلّ ما ينبغي اجتنابه وكلّ مُحَرَّمُ وكلّ منهي عنه لنتعظ بقصصه وحكمه في التنزيل الحكيم، قال تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}355.

ولأنّه الواعظ لقد بيّن كلّ شيء تبينا وتفصيلا لرُسُله ثم أمرهم بهداية النّاس به وإليه مبشرين ومنذرين ومحرِّضين وآمرين بالمعروف وناهين عن المنكر وحافظين للأمانات وإذا حكموا بين النّاس حكموا بالعدل، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النّاس أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا}356.

إذا المتقون هم الذين يأخذون بالمواعظ الحِسان، ولهذا كان إلياس واعظا لقومه بالتقوى كما كان غيره من الرّسُل واعظون بها ومن مواعظ الرّسُل الكرام لأقوامهم وشعوبهم وللكافة الآتي:

ـ أن تؤدّى الأمانات إلى أهلها وإلا ستكون المشاكلّ والمفاسد في الأرض.

ـ وإذا حكم أحد بين النّاس أن يحكم بالعدل وإلا ستنتشر المشاكلّ والفتن في الأرض.

---

[355] البقرة 231.

[356] النساء 58.

ولأنّه الواعظ فهو الذي أنزل الحِكم والفضائل الحسنة التي ترشد لأفعال الخير وتجعل العباد على التقوى في طاعة الله، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ}[357].

يُفهم من هذه الآية الكريمة مجموعة من المواعظ التي إنْ سادت بين العباد سادت بينهم التقوى والرّحمة ومن هذه المواعظ:

ـ العدل: فضيلة مُرضية لجميع الأطراف حيث لا ظلم من بعد سيادة العدل.

ـ الإحسان: فضيلة وقيمة تربّط النّاس بأحاسيس المودة والمحبّة والألفة فإن سادت ساد التلاحم والوحدة وانتهت الفتن بين العباد.

ـ إيتاء ذي القربّى حقّوقهم التي أوجبها الله في شرعه.

ـ النهي عن الفحشاء التي تُفسد مكارم الأخلاق.

ـ النهي عن المنكر الذي نهى الله عنه وجرَّم فاعليه.

ـ النهي عن البغضاء الذي يملأ الأنفس بالحقّد والكراهية ويؤدّي إلى المكائد والدسائس بين النّاس.

ولأنّ الله تعالى هو الواعظ المطلق أرسل رُسُله إلى العباد ليجعلوهم على التقوى والإحسان، ولهذا يعظ النّاس عن ارتكاب المحرمات وينهي عنها ولذلك فقد نهى عن البهتان والكذب على النّاس حتى لا تكون الفتنة ونهى عن العودة إليه فالعودة إليه ذات إثم عظيم، قال تعالى: {إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ

[357] النحل 90.

لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ يَعِظُكُمَ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ}[358].

ولأنّه الواعظ عزّ وجلّ فقد وعظ عباده أن لا يعودوا لِما حُرِم بعد إن كان محللا كما هو حال الذي يعود لزوجته بعد أن طلقها طلاقا يُحرمها أن تعود ثانية له إلا بعد تحليلا قبل أن يتماسا، مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجلّهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُمْ بِالْمَعْرُوفِ ذَلِكَ يُوعَظُ بِهِ مَنْ كَانَ مِنْكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآَخِرِ ذَلِكُمْ أَزْكَى لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}[359]، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنْ نِسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَتَمَاسَّا ذَلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[360].

وعليه: فالموعظة هي فضيلة حسنة فمن أخذ بها أخذ بما هو أحسن تفضيلا واتقى الله ربّه جلّ جلّاله، فالموعظة تُذكِّرُ العباد بما ينبغي أن يفعلوا حتى لا يضلوا السبيل الحقّ فيصبحوا على ما فعلوا نادمين، والموعظة إن أخذ بها أصبحت هي الشفاء للصدور إي شفاء للأنفس والعقول من الجهل الذي يقود للتهلكة، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ ربّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ}[361].

---

[358] النور 15 . 17.

[359] البقرة 232.

[360] المجادلة 3.

[361] يونس 57.

وعلى الخليفة أن يتعظ بمكارم الأخلاق وبالأخذ بالفضائل التي وعظ بها الواعظ عزّ وجلّ ليكون الإنسان خير خليفة على الأرض، ولا يمكن أن يكون الإنسان خليفة إن لم يأخذ بما وعظ الواعظ جلّ جلّاله في كلّ ما يجب أن يقال وكلّ ما ينبغي أن يُفعل ويُعمل ولهذا فإتباع الموعظة يجعل الإنسان على التقوى ويؤدّي إلى سلامة القول والفعل والسلوك وسلامة النفس والقلب والبدن من الذنوب وارتكاب الأخطاء.

ولأنّه خليفة فهو الذي يأخذ بما أمر الواعظ وينتهي عما نهى عنه وبعلمه وإيمانه بالنعم التي تُجنى من وراء الأخذ بالمواعظ عليه أن يُسهم في وعظ الآخرين الذين في حاجة لأن يوعظوا حتى تسود القيم الحسنة النظم الاجتماعية والإنسانية ويؤخذ بها في المقررات والمناهج التربّوية والتعليمية من أجلّ جيل حميد السلوك والسيرة.

ولأنّ إلياس متقي فقد كان أمرا بالمعروف وناه عن المنكر من خلال دعوته لتوحيد الله وطاعته وبما أمر جلّ جلّاله، (وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ ربّكُمْ وربّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ).

فالأمر على المستوى البشري غير محدد يمكن أن يكون أمر زواج ويمكن أن يكون أمر طلاق ويمكن أن يكون أمر مشاركة وتعاون وإعمار وإصلاح في الأرض ويمكن أن يكون أمر إفساد وسفك دما فيها بغير حقّ ويمكن أن يكون الأمر سياسة داخلية أو سياسة خارجية ويمكن أن يكون أمر سلم أو أمر حربّ ويمكن أن يكون أمر قتال وجهاد وغيره كثير، ولذلك فأمر الآمر يتعدد ويتنوع؛ فقد يكون الأمر هو الفتح الذي به يدخل المسلمين الأمصار بعد أن تتم دعوة أهلها للهداية أو أن يكون الأمر اتفاق تتم به المعاهدات والمواثيق التي

تنصّ على تبادل المنافع والتعاون إلى حين الهداية وهكذا، قال تعالى: {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ}362.

وعلى الخليفة أن يتبيّن كلّ أمر يتعلق بأمره في الحياة سواء أكان مع نفسه أم مع محيطه من الأقاربّ والأباعد وسواء أكان مع الآخرين على المستوى الإنساني وأن يرسم سياساته وفقا لِما أمر الله تعالى ليكون خير خليفة في الأرض وخير وارث في الدارين.

ولأنّ إلياس متقي لذا فهو الناهي عمَّا يجب الانتهاء عنه، (أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ ربّكُمْ وربّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ).

الناهي هو الذي يعلم ما يترتب على ارتكاب الأفعال التي تؤدّي إلى المهالك قبل أن تُفعل فينهى عنها حيطة.

والناهي هو المبيّن لِما هو حرام ولما هو حلالا وما يقع بينهما من معطيات تؤدّي إليهما فينهى عن المؤدي السالب ويحث ويحرض على المؤدي الموجب.

وفي اللغة "النَّهْيُ خلاف الأَمر نَهاه يَنْهاه نَهْيا فانْتَهى وتناهى كَفَّ؛ والنِّهايةُ كالغاية حيث يَنْتَهِي إليه الشيء وهو الإنهاء"363.

ولذا؛ فالناهي جلّ جلاّله ينهى كي لا تكون الفتن والشقاق والعداوة والبغضاء والاقتتال بين العباد، ولهذا جاء إلياسين ناهٍ لقومه عن كلّ ما من شأنه أن يؤدّي إلى الفتن والفرقة والعداوة والبغضاء، فكان نهيه لقومه عن عبادة ما يشركون به ويكفرون، ومع ذلك فقد

---

362 المائدة 52.

363 لسان العرب، ج 15، ص 343.

كذبوه كما كذبت الأقوام رُسُلها من قبله، قال تعالى: {أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ ربّكُمْ وربّ آَبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ فَكَذَّبُوهُ فَإِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ}364.

إذا طاعة الرّسول صلّى الله عليه وسلّم وأمره طاعة لله تعالى، ونهي الرّسول هو نهي من عند الله تعالى، فنهي الرّسول من نهي الناهي الأعظم عزّ وجلّ، ولذا فالنهي بين المؤمنين من أجلّ إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل هو طاعة لأمر الناهي تعالى، فالذين آمنوا بالحقّ مع إلياس صلّى الله عليه وسلّم هم من الناهين ولهذا فهم لا يتماثلون مع الذين لا ينهون عن منكرٍ فعلوه.

والخليفة في الأرض هو الذي يقف عند كلّ حدٍ حدَّه له الناهي وأن لا يتجاوزه فإن تجاوزه خرج من دائرة المستخلفين في الأرض وإن وقف عند حدّهِ الذي حُدِّدَ له وانتهى عنده كان من المستخلفين فيها، وعليه أن يتبع ما نهى عنه الرّسول الكريم محمّد صلّى الله عليه وسلّم فنهيه من نهي الناهي جلّ جلّاله، وإن يقبل التناهي من الذين هم لربّهم طائعون وأن ينهى غيره من الذين يمرون على ما نهى الله عنه مر الغافلين وعليه أن يُذكِّرَ وينهى من أجلّ الحقّ وإحقّاقه والباطل وزهقه ويتقي الله تعالى ربّه في كلّ تذكيرٍ وأمر ونهيٍ.

3. مسلَّم عليه:

المسلَّم عليه هو المعزّ من عند المعزّ الأعظم جلّ جلّاله، ولهذا فالسلام على إل ياسين كان دليل عزة ومناصرة وتأييد وتقدير خاص

364 الصافات 125 . 128.

لرسولٍ خاص هو إل ياسين صلّى الله عليه وسلّم، {سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ}365.

ولأن المعزّ هو المقدِّر تقديرا عاليا لذا جاء السلام عليه من عند الله عزّ وجلّ طمأنة على نفس وقلب إل ياسين صلّى الله عليه وسلّم الذي كان رسولا طائعا لأمر الله وهاديا لقومه ليكونوا على الطاعة والإخلاص لله الواحد القهّار، وفي هذا الأمر قال ابن القيم في نونيته:

وهو المعزّ لأهل طاعته وذا... عزّ حقّيقي بلا بطلان366.

ويقول مشرف الحمداني الغامدي بالتمام كما جاء في لسان العربّ: "العز خلاف الذل ويقال عزه على أمر يعزه إذا غلبه عليه والعزّة القوّة والغلبة"367.

وقال البيهقي: "المعزّ هو الميسِّر لأسباب المنعة"368.

ولذا؛ فالمعزّ هو المحب، والمعزّة لا تبنى إلا على علاقة متصلة ورضا ومحبّة.

وفي هذا الشأن يقول الله تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آَمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}369. فالذي يجعل

---

[365] الصافات 130.

[366] شرح أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته الواردة في الكتب الستة. حفصة بنت عبد العزيز، الرياض، دار القاسم، ص 236.

[367] منهج الإمام ابن القيم في شرح أسماء الله الحسنى، ص 429.

[368] المرجع السابق، ص 430.

[369] المائدة، 54.

الخلفاء لا يخافون لومة لائم هو مصدر العزّة الذي يسندهم ويحمي ظهورهم فيُحفِّزهم على الإقدام دون تردد من أجلّ قول الحقّ وفعل الحقّ وعمل الحقّ.

وعليه المعزّ هو مصدر العز الذي منه العزّة تُستمد، وهو الذي يعِزُّ جُند الحقّ بالآتي:

أولا ـ عزّة النيّة: النية تكمن في الضمير، مثلما تكمن الفكرة في العقل، ومثلما تكمن النبتة والشجرة في البذرة والنواة، ومثلما يكمن صفاء الزيت في نقاء حبَّةُ الزيتون، كذلك تكمن العزّة في صفاء النية.

ولذا؛ فبالنية تُعزَّز الأقوال والأعمال والأفعال والسلوكيات، فلا قول بدون فكرة سابقة عليه، ولا عمل إلا ومن ورائه غاية، ولا فعل إلا والتصميم دافعه، ولا سلوك إلا بقوة الحركة.

ولهذا، تؤسس العبادات جميعها على النية، أي أن النية هي المعزّزة للصوم فبدونها يصبح الصوم امتناع عن الأكلّ أو إضراب عنه، وبدونها تصبح فريضة الحج حركة جماعية أو تظاهرة بشرية استعراضية ليس إلا. وبدون النية قد توصف الصلاة بأنها حركة أو مران رياضي أو ما شابه ذلك، وأيضا قد توصف الزكاة بدون نية بأنها صدقة أو تبرعات مادية.

وعليه: فإنّ النيّة هي المعزّزة للقول الهادف والفعل الهادف والعمل والسلوك الهادفين؛ ولتبيان ذلك علينا باستعراضها وفقا لدائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع) حتى نستبين الحقّ من الباطل:

ثانيا ـ عزة القول: القول في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع يُمكِن أن يكون حُجَّة لنا ويُمكن أن يكون حُجَّة علينا، فعندما يكون

حُجَّة لنا يُعزز مواقفنا بدون تردد، وعندما يكون حُجَّة علينا يُضعفها ويعزز مواقف آخرين.

ولذا؛ فالخليفة دائما تكون الحُجَّة له ولا تكون عليه، ولهذا لقد أعز الله رسوله إل ياسين بالسلام عليه وأخصه به خصوصية رفعة وعلو منزلة وعظمة رسالة (سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) فكانت له العزّة بالبيّنة التي تُظهر الحقّ وتُزهق الباطل، ولذلك لا إظهار للحقّ ولا إزهاق للباطل إلا بالقوّة الظاهرة في القول بالبيّنة.

ثالثا ـ عزة الفعل: لا يُمكن أن يكون للفعل عزة تسنده إن لم تكن من ورائه نية. ولا يمكن أن يكون للنية قوة إن لم يكن من ورائها حقّ يسندها مصداقا لقوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالحقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ}370. وقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}371. وعليه لا عزّة للفعل إلا بتحقّيقه.

رابعا ـ عزة العمل: العمل في دائرة الممكن يمكن أن يكون سالبا، ويمكن أن يكون موجبا، فإن كان إصلاحا في الأرض كان موجبا، وإن كان إفسادا فيها، كان سالبا، وبذلك يكون الجزاء هو المترتب على الفعل بالثواب إيجابيا وبالعقاب سلبيا. وفي ذلك يقول الله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا ربّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}372. ويقول تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ

[370] الأنبياء، 18.

[371] ياسين، 82.

[372] فصلت، 46.

أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}373.

وعليه بقوله تعالى: (سلام على إل ياسين) نال إل ياسين اعترافا وتقديرا عظيمين بأنه في مرضاة الله عزّ وجلّ. وكما كُتبت هذه الشهادة من الله جلّ جلاّله لإل ياسين كذلك كتبت لرسول الله محمّد صلّى الله عليهما وسلّم قال تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آَلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}374.

إذا الاعتراف قيمة إثباتيه بوجود الآخر الذي له من الأهمية ما يساوي أهمية الآخرين، وهي القيمة الانتشارية التي يرغب الكلّ في نيلها من الكلّ، فهي تربّط الفرد بالمنزلة، وتربّط الخصوصية بالمكانة. ومع أنّ العبودية من محرمات ممّارسة الحرية بإرادة إلا أن الذي تجبره الحاجة بقبول العبودية، يريد هو الآخر أن ينال الاعتراف من سيده بأنه عبد ناجح. ولذلك فإن جميع النّاس يريدون نيل الاعتراف من الجميع.

ولذا، يحاول الوالدان أن يخلصا في رعاية أبنائهما، وذلك لكي ينالا منهم الاعتراف، ويحاول الأبناء أن يكونوا صالحين لكي ينالوا الاعتراف أولا من آبائهم وثانيا من الآخرين. وهكذا المسؤول المحترم يكد ويجد لكي ينال الاعتراف من ذوي العلاقة به. وفي مقابل ذلك نحتفظ بأن لكلّ قاعدة شاذ عنهاّ، وأنَّ كلّ إنسان يسعى لنيل

---

373 النور، 55.

374 الأنعام، 19.

الاعتراف به وبأهميته وأن يعترف له بوجوده وبمقدرته على العمل والمشاركة والتفاعل والعطاء بلا حدود إلى النهاية.

ومع أنّ الاعتراف قيمة يسعى الجميع لنيلها إلا أنها لم تكن هي الغاية، بل الغاية بالنسبة للأنبياء الذين منهم إل ياسين فهم يسعون من وراء نيل الاعتراف إلى نيل رضا الله عليهم والفوز بالجنّة، ولهذا فهم يسعون إلى الاعتراف وكذلك إلى نيل الاعتبار الذي هو قيمة معرفيِّة تربّط الوجود بالمكانة، كما يرتبط التاريخ بالعبر؛ ونتيجة لقيمة الاعتبار وتقديرها، لا يُغيِّب أنا آخر، ولا يسعى لتجاهله في كلّ أمر يتعلق بهما، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا، وذلك من خلال حقّوق تمارس وواجبات تؤدى ومسؤوليات يتم تحمُّلها؛ فالاعتبار مكانة تُعطى لمن يستحقّها من الأفراد والجماعات والمجتمعات، ولذا لا يتم الإغفال أو غض النظر عمن هو ذو مكانة اجتماعية أو علمية أو نفسية أو أخلاقية أو ذا نبأ عظيم أو رسالة خالدة؛ فالمكانة يُلتفت إليها وهي لا تُخفي أبدا، ولذا فهي تُقدّر.

والقاعدة تقول:

(اعتبرني أعتبرك وإذا تجاهلت وجودي أتجاهل وجودك).

ومع أنّ المكانة تنال بالاعتراف والاعتبار فهي كذلك تنال بالتقدير، ولذلك؛ فالتقدير قيمة تقييميه، تربّط الجهد بالإنتاج أو المدخلات بالمخرجات. إنَّها القيمة التي عليها يكون التسابق بكلّ قوة مع المحافظة على المسافة التي تسمح للآخر بالحركة في ذات الاتجاه دون عرقلة مقصودة، وبناء على النتائج المنجزة تتميز كلّ خصوصية بما تمتاز به عن خصوصيات الآخرين، ولذا لا يمكن أن تسود قيمة التقدير بين النّاس إن لم يمارسوا الحرية بأسلوب فائق الاحترام.

ولهذا؛ فالتقدير مطلب يُشبع رغبة، ممّا يستوجب من راغبٍ في ممّارسة السلطة أو امتلاك الثروة، أن يحس بتماثل حاجات الآخرين له في ممّارسة هذه الحقّوق وامتلاكها. ولذا عندما يصل (الأنا والآخر) إلى هذا المستوى من التقدير ينال كلّ منهما نصيبه بإرادة، ويتمكنان من العيش سويا في المكان والزمان الواحد، وينال كلّ منهما مكانة عند الآخر، ممّا يجعلهما يحسان بحاجتهما للبعض وأن كلّ منهما على درجة من الأهمية التي لا ينبغي أن يستهان بها أو يَغفل عنها.

وعليه: فمن أراد نيل العزّة فليعلم أنَّ العزّة لله وحده وليعمل على نيلها؛ فهي في دائرة الممكن مُيسَّرة للعاملين عليها، ولذلك فمن يعمل صالحا يجني من ورائه خيرات حِسان ومن يقرض الله قرضا حسنا يضاعفه له ويرزقه من حيث لا يحتسب، ولذلك فمن نال رضا الله قد فاز كما فاز رسوله إل ياسين بالسلام عليه من الله جلّ جلّاله وكما فاز رسوله محمّد بالصّلاة والسّلام عليه وكما فاز جميع الأنبياء والرّسُل بعدم التفرقة بينهم ممّا أوجب تعميم الصّلاة والسّلام على جميع أنبيائه ورسله.

ولأنّنا نحن اتباع رسالة محمّد الرسالة الخاتمة رسالة النّاس كافة لا نفرِّق بين أحد من رُسُله فإن عدم تفريقنا جاء طاعة واتباعا لأمر الله بعدم التفريق بين احدٍ من رسله وقالوا سمعنا واطعنا، ولذلك قلنا بوجوبية تعميم السلام على جميع الرّسُل الكرام مصداقا لقوله تعالى: {سُبْحَانَ ربّكَ ربّ العزّة عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ}375. في هذه الآية الكريمة تنزيه للذات الربّانية ممّا يقوله الكفرة والمشركون، و(ربّ العزّة) ربّ المكارم والفضائل والقوّة المطلقة والخير الوفير، وربّما تعني مالكها والمهيمن عليها فلا تفلت منه

[375] الصافات 180 . 182.

أبدا، ولن تؤتىَ العزّة أو تُمنح إلا منه، ولذلك في العزّة مناصرة وعون وسند ودعم وتأييد ومغالبة فسبحان ربّ العزّة عمَّا يصفون.

وعليه: لم تكن العزّة هدفا يُنجز، بل غاية تُبلغ بالأعمال، فالعزّة متصلة بالاستخلاف في الأرض والدوام في الآخرة، ولم يكن حالها كحال الأعمال المنفصلة، فمن يُعزُّ في الدنيا يُعزُّ في الآخرة.

ولأنّ الله عزّ وجلّ كامل الصفات والأفعال جاء قوله تعالى: (عمَّا يصفون) تنزيه له عن القصور والحاجة والصاحبة والولد، ولهذا فالعزّة صفة ذات وصفة فعل.

(وسلام على المرسلين) اعتراف إيماني بجميع الرّسُل صلّى الله عليهم وسلّم، مصداقا لقوله تعالى: {آَمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ ربّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كلّ آَمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ ربّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}[376]. ولذا فمن وجوب الإيمان بالرّسُل ألا نُفرّق بينهم، مع علمنا التام بتفضيل الله لبعضهم على بعض من حيث الزمان والمكان والموضوع والغاية.

(والحمد لله ربّ العالمين) شكّر بعد اعتراف وتقدير للعزة والرّحمة الربّانية، التي تمتد وراء كلّ شيء، ممّا يجعل المؤمن موحدا لله تعالى، ومصلّيا ومسلّما على أنبيائه ورُسُله صلّى الله عليهم وسلّم الذين جاءوا بالحكمة والهداية مبشرين ومنذرين ومحرِّضين وفاعلين للخير.

ولأن العزّة لا تتحقّق إلا بالنيّة والأعمال الخيّرة، لذا فالمعزّ يَعِزُّ الإنسان بالمعطيات الآتية:

---

[376] البقرة 285.

ـ العزّة بالإيمان: قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}377.

ـ العزّة بالفضل: قال تعالى: {فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}378. وقال تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرّسول مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النّاس إِنَّ النّاس قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ}379.

ـ العزّة بالعقل: الذي به نتذكّر ونتفكّر قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}380. وقال تعالى: {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}381. وقوله تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كلّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}382. وقوله تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}383.

377 الشورى 51، 52.

378 البقرة 64.

379 آل عمران، 172 . 174.

380 القصص 43.

381 القصص 51.

382 الزمر 27.

383 البقرة 269.

. العزّة بالنعيم: قال تعالى: {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}384. وقال تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}385.

. العزّة بالاستجابة: قال تعالى: {وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}386. وقال تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ}387. وقال تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ}388، وقال تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا}389.

. العزّة بالعمل الصالح: قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}390.

. العزّة بالاستغفار والتوبة: قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}391. وقال تعالى: {وَمَا

384 البقرة 271.

385 البقرة 274.

386 الأنبياء 76.

387 الأنبياء 84.

388 الأنبياء 88.

389 الأنبياء 90.

390 البقرة 62.

391 آل عمران 135.

أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرّسول لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا}392.

ـ العزّة بالاستخلاف: قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا}393.

العزّة بالرّحمة: قال تعالى: {ما يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}394.

المعزّ، هو الذي يعزُّ من في نفسه نية صافية وصادقة، كما هو حال سيدنا إل ياسين صلّى الله عليه وسلّم الذي أعزَّه الله بسلام عليه؛ فكان قدوة حسنة لقومه في القول الحقّ والفعل الحقّ والعمل الحقّ والسلوك الحقّ، ولذا فمن أراد الفوز بعزة الله فعليه بتقوى الله وان يتَّبع ما أمره به وأن ينتهي عمَّا نهى عنه ويُعزَّ الله بتوحيده ونصرة دينه الذي ارتضى للكافة دون أن يفرِّق بين احدٍ من رُسُله.

ولذا، فالمعزّ هو الذي يَهَبُ العِزَّ لمن يشاء من عباده395، والمعزّ ذو صلة بالاسم العزيز فهو مظهر من مظاهره. وهو الذي عزّ النبي إلياس عليه السّلام حتى نصره على كيد الكائدين والماكرين من بني إسرائيل الذين كفروا وعبدوا صنما (بعلا) من دون الله.

392 النساء 64.

393 النور 55.

394 البقرة 104، 105.

395 لسان العرب، ج 5، ص 374.

ولهذا؛ فالمعزّ هو: "الذي يهبُ العزّة لِمن يشاء من عباده. والعِزُ: خلاف الذل. والعزُّ في الأصل القوّة والشدّة والغلبة وّالرفعة والامتناع"396.

ولأنّ المعزّ أعز إلياس عليه السّلام على من اتخذوا العجلّ معبودا لهم، فجعل عزّته مسخّرة لعزة من يعزّ إلياس نبيا من الصّالحين. وهنا؛ فالمعزّ: هو: مالك القوّة المطلقة، والساند والداعم بها لكلّ ضعيف. فهو الغالب الذي لا يُغلب، والقاهر الذي لا يُقهر. وهو الذي أنزل الحقّ ساندا للحقّ. أي أنه أظهر الحُجَّة الساندة للمتحاجين، وذلك إظهار للحقّ وإزهاقا للباطل. فأظهر البيّنة دليل إثبات وشهادة حقّ ليكون الخليفة على الإيمان شاهدا، ولله موحِّدا، وعلى الرّسول مصلّيا ومسلِّما.

وقال ابن القيم في نونيته:

وهو المعزّ لأهل طاعته وذا عز حقّيقي بلا بطلان397.

ويقول مشرف الحمداني الغامدي بالتمام كما جاء في لسان العربّ: "العز خلاف الذل ويقال عزه على أمر يعزه إذا غلبه عليه والعزّة القوّة والغلبة"398.

وقال البيهقي: "المعزّ هو الميسر لأسباب المنعة"399.

---

396 لسان العرب المحيط. مصدر سابق، ص 764.

397 شرح أسماء الله تعالى الحسنى وصفاته الواردة في الكتب الستة. حفصة بنت عبد العزيز، الرياض، دار القاسم، ص 236.

398 منهج الإمام ابن القيم في شرح أسماء الله الحسنى. مرجع سابق، ص 429.

399 المرجع السابق، ص 430.

المعزّ هو المحب، والمعزّة لا تبنى إلا على علاقة متصلة ورضا ومحبّة.

وفي هذا الشّأن يقول الله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}[400]. فالذي يجعل الخلفاء لا يخافون لومة لائم هو مصدر العزّة الذي يسندهم ويحمي ظهورهم فيُحفِّزهم على الإقدام دون تردد من أجلّ قول الحقّ وفعل الحقّ وعمل الحقّ.

ولذا فالمعزّ هو مصدر العز الذي منه العزّة تُستمد، وهو الذي يعِزُّ جُند الحقّ بالآتي:

أوّلا ـ عزّة النية: النية تكمن في الضمير، مثلما تكمن الفكرة في العقل، ومثلما تكمن النبتة والشجرة في البذرة والنواة، ومثلما يكمن صفاء الزيت في نقاء حبَّةُ الزيتون، كذلك تكمن العزّة في صفاء النية.

ولذا فبالنية تُعزَّز الأقوال والأعمال والأفعال والسلوكيات، فلا قول بدون فكرة سابقة عليه، ولا عمل إلا ومن ورائه غاية، ولا فعل إلا والتصميم دافعه، ولا سلوك إلا بقوة الحركة.

ولهذا تؤسس العبادات جميعها على النية، أي أنّ النية هي المعزّزة للصوم فبدونها يصبح الصوم امتناع عن الأكلّ أو إضراب عنه، وبدونها تصبح فريضة الحج حركة جماعية أو تظاهرة بشرية استعراضية ليس إلا. وبدون النية قد توصف الصلاة بأنها حركة أو مران رياضي

[400] المائدة، 54.

أو ما شابه ذلك، وأيضا قد توصف الزكاة بدون نية بأنها صدقة أو تبرعات مادية.

وعليه فإنّ النية هي المعزّزة للقول الهادف والفعل الهادف والعمل والسلوك الهادفين؛ ولتبيان ذلك علينا باستعراضها وفقا لدائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع) حتى نستبين الحقّ من الباطل:

ثانيا . عزة القول: القول في دائرة الممكن المتوقع وغير المتوقع يُمكِن أن يكون حُجَّة لنا ويُمكن أن يكون حُجَّة علينا، فعندما يكون حُجَّة لنا يُعزز مواقفنا بدون تردد، وعندما يكون حُجَّة علينا يُضعفها ويعزز مواقف آخرين.

ولذا فالخليفة دائما تكون الحُجَّة له ولا تكون عليه، وذلك لأنه لا يقول إلا الحقّ وليس له نية وغاية غير إحقّاقه. فعزة القول لا تتحقّق إلا بالبيِّنة التي تُظهر الحقّ وتُزهق الباطل، ولذلك لا إظهار للحقّ ولا إزهاق للباطل إلا بالقوّة الظاهرة في القول بالبينة.

ثالثا . عزة الفعل: لا يُمكن أن يكون للفعل عزة تسنده إن لم تكن من ورائه نية. ولا يمكن أن يكون للنية قوة إن لم يكن من ورائها حقّ يسندها مصداقا لقوله تعالى: {بَلْ نَقْذِفُ بِالحقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ}401. وقوله تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}402. وعليه لا عزة للفعل إلا بتحقّيقه.

---

[401] الأنبياء، 18.

[402] ياسين، 82.

قال تعالى: {وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ}403. بالحكم بين النّاس تترسخ العزّة بين الحُكم والأطراف المتعددة التي يكون فيها للظالم أو المفسد دورا، وللمظلوم أو المصلح دورا، وللحاكم بينهم بالعدل دورا وفقا للآتي:

1 . بالنسبة للظالم أو المفسد: يتعزَّز موقفه بالتخلي عن مظالمه أو إفساده في الأرض بعد أن يتبين من الحاكم العادل أنّه على باطل وأن الباطل لا يُرضي الخالق ولا المخلوق، وأنَّ من يَقترِف ظلما أو فسادا في الأرض فسينال العقاب في الدارين. وأنّ من يستغفر ربّهُ ويُكفِّرَ عن أخطائه ومظالمه وسيئاته التي كان يقترفها فإنّ رحمة الله عزّ وجلّ واسعة وأبوابها مفتوحة أمام من يستغفر ويتوب ولا يُشرك بعبادة ربّه أحدا.

2 . بالنسبة للمظلوم أو المِصلح: تتعزّز مواقفه بإعادة الحقّ إليه، أو بتبيين الحاكم أنه على الحقّ وأن الآخر الذي اتهمه أو خالفه هو على باطل ممّا يجعل رأي الحاكم مناصرا ومنصفا للحقّ الذي به آمن الخليفة؛ وهذا الإنصاف يجعل المِصلح يزداد تمسكا بأفعال الخير التي لا تتحقّق إلا بالبيِّنة والنية الصادقة. قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حقّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حقّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ}404.

3 . بالنسبة للحاكم بالعدل: يتعزّز موقفه بإرضاء ضميره، وإرضاء المحكوم بينهم بالحقّ، مصداقا لقوله تعالى: {وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالحقّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا

403 النساء، 58.

404 الأعراف، 44.

الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الحقّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}405. وفي ذلك يقول الدكتور محمّد راتب النابلسي: "الله معزّ إذا طبقت شرعه، ومعزّ إذا استغنيت به عمن سواه"406.

4 . بالنسبة للحُكم: الحُكم العادل يُسند بالحاكم والمحكوم بينهم بالعدل وبإظهاره وانتشاره بين النّاس حقّيقة ماثلة من خلال حقّوق تمارس وواجبات تؤدى ومسؤوليات يتم حمْلُها.

رابعا . عزة العمل: العمل في دائرة الممكن يمكن أن يكون سالبا، ويمكن أن يكون موجبا، فإن كان إصلاحا في الأرض كان موجبا، وإن كان إفسادا فيها، كان سالبا، وبذلك يكون الجزاء هو المترتب على الفعل بالثواب إيجابيا وبالعقاب سلبيا. وفي ذلك يقول الله تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ}407. ويقول تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}408.

وعليه عزّة العمل تتحقّق من خلال الآتي:

1 . ممّارسة الحقّوق:

---

405 البقرة، 213.

406 محمد راتب النابلسي، موسوعة أسماء الله الحسنى. مرجع سابق، ص 329.

407 فصلت، 46.

408 النور، 55.

قال تعالى: {وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا}409 وقوله تعالى: {وَإِنَّا لَمُوَفُّوهُمْ نَصِيبَهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ}410. وقال تعالى: {وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ مِمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَالَّذِينَ عَقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُمْ نَصِيبَهُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا}411.

الحقّوق تؤخذ بإرادة أو تنتزع بالقوّة، ولأنها تؤخذ، فهذا يعني أن الحواس هي التي يتم بها التعرف على الحقّوق، ويتم بها أيضا إشباعها، ولذلك تؤخذ الحقّوق عن طريق الحواس، فعندما تكون المشاهدة حقّا فلا ينبغي لأحدٍ أن يحرم آخرا منها، وإذا كانت الملاحظة حقّا فلا ينبغي لأحد أن يحرم آخرا منها، وهكذا عندما يكون الاستماع والذوق واللمس والتفكير والتعليم والعمل حقّوقا فلا ينبغي لأحد أن يحرم آخر منها، ولأنها حقّوق ينبغي أن تُمارس بإرادة. وهكذا فالحقّوق تُسلّم فتُستلم عندما تكون في متناول الاثنين أو الأكثر.

والنظام الديمقراطي هو النظام الذي لا تقع فيه الحقّوق في خانة المطالب، فإذا كانت في خانة المطالب فإنّ ذلك يعني أن هناك قيودا تحول بين الطالب والمطلب (بين الحاجة ومشبعاتها).

ولذا فالحقّوق ينبغي ألا تكون مطالبا، بل ينبغي أن تكون إشباعات تؤخذ بإرادة وفقا للحاجة، فالسلطة حقّ والثروة حقّ لا ينبغي أن تُحتكر من أحد، ولا ينبغي أن تكون مِنّة من أحد.

ولا يمكن أن تؤخذ الحقّوق أو تمارس ما لم تتوفر اشتراطاتها الرئيسة وهي:

---

409 القصص، 77.

410 هود، 109.

411 النساء، 33.

أ ـ الرغبة: القوّة العقلية الموجهة لهدفٍ محدد أو موضوع بعينه، وإحساس نفسي تجاه الآخر وشعور بالميل إليه، وهذا ما يجعل روح التجاذب تُحرّض على المتابعة والاقتراب ممن تتوفر فيه اشتراطات الإشباع المرضي.

ب ـ الإرادة: تُعد الإرادة نشاطا عقليا على درجة عالية من الوعي يتمكن من خلالها الفرد من اتخاذ القرار بحرية ويتمكن من خلالها من الإقدام على الفعل وفي ذات الوقت يمتلك صاحب الإرادة المقدرة على الفعل والسلوك.

ج ـ الطلب: نظرا للإحساس بالحاجة والتعرف على بواعث إشباعاتها تصبح المطالبة بالمشبع كحقّ لا يمكن التخلي عنه ولا يهدأ البال ولا تطمئن النفس إلا بأخذ ما يشبع ويحقّق الرضا.

الحقّوق كما ورد في لسان العربّ المحيط هي "جمع حقّ وهي نقيض الباطل". والحقّ كأحد أضلاع المثلث متساوي الأضلاع المتكون من (الحقّوق والواجبات والمسؤوليات) يرتبط بعلاقات مع أي ضلع يشترك معه في الزاوية، ولذلك عندما يشترك مع الضلع (أ ج) في الزاوية (ب أ ج) تصبح هذه الزاوية مكوّنا علائقيا بين ضلعي الحقّوق والواجبات، وهذا الالتقاء بين الضلعين يجعل في الحقّ واجبا مصداقا لقوله تعالى: {ولكن حقّت كلّمت العذاب على الكافرين} فحقّت هنا بمعنى وجبت كلّمة العذاب على الكافرين، وهذا يعني أن كلّمة (وجبت) تعني في مضمونها كلّمة حقّتْ. وكذلك في لسان العربّ: "حقّ يحقّ حقّا تعني وجب يجب وجوبا". وهذا الأمر يؤكد وضوح العلاقة بين الحقّوق والواجبات من خلال الزاوية (ب أج) المحصورة بين ضلعيهما وفي ذات الوقت يبين الخصوصية لكلّ منهما عندما يخضع كلّ ضلع للدراسة المتخصصة.

2 . أداء الواجبات:

وبما أن الحقّوق تؤخذ وتُستلم فإنّ الواجبات تؤدى في مقابل الاستلام والأخذ، وأداء الواجبات هو الذي يجعل الذات الفردية أو الجماعية والمجتمعية في حالة الإيجاب، أما اقتصار الفرد أو الجماعة والمجتمع على أخذ الحقّوق فقط فإن ذلك يجعل المستلم طرفا سالبا، والذي يغيره إلى حالة الإيجاب هو أداؤه الواجبات، ولهذا من الواجب أن تعمل وتفعل وتسلك في مقابل ما أخذت، وهذا لا يعني أن الحقّوق والواجبات هما كفتا الميزان في مكوّن ممّارسة الديمقراطية، بل هناك شيء آخر من مكوناتها ألا وهو المسؤولية، التي تتضح في الزاوية أ ج ب عند تلاقي ضلع الواجبات أ ب مع ضلع المسؤوليات ب ج في المثلث متساوي الأضلاع المتكون من (الحقّوق والواجبات والمسؤوليات) وهذا التلاقي العلائقي هو الذي جعل في أداء الواجب مسؤولية، ولذلك ورد في الموسوعة الفلسفية العربيّة بأنه " لا واجب إلا بالإضافة إلى التزام ومسؤولية". ولذا لا يمكن أن يؤدى الواجب بنجاح إلا وتحمُّل المسؤولية جزء من أدائه، وهكذا حال المسؤولية هي الأخرى لا تؤدى بنجاح إلا والواجب يصاحبها، وهذه نتاج التداخل العلائقي الذي يُعبر عنه بدقة في العلوم الهندسية ممّا جعل لزوايا المثلث قيّم يستدل بها أو يستدل عليها.

والعلائق في مجملها هي نتيجة وجود الأنا أو الذات والآخر اللذين عندما يلتقيان لابدّ أن يحدث الحوار بينهما ممّا يؤدّي إلى القبول والتقاربّ والتفاعل أو يؤدّي إلى الرفض والابتعاد والفرقة أو الانسحاب، وفي حالة القبول والتفاعل الذاتي تتكوّن العلاقات كما هو الحال بين أضلاع مثلث ممّارسة الديمقراطية المتساوي الأضلاع، وعندما تتكوّن العلاقات يترتب على ذلك بالضرورة أخذُ ُ كما هو

مبين في الحقّوق، وعطاء كما هو الحال في الواجبات، وهذا يعني أن العلاقة بين المسؤوليات والحقّوق والواجبات هي علاقة قرار وأخذ وعطاء، أي في اتخاذ القرار مسؤولية وفي الأخذ حقّوق، وفي العطاء واجبات، وعليه لا يمكن أن يتمّ الأخذ والعطاء عن وعي إلا والمسؤولية في ذلك سابقة عليهما، ولو أخذنا وليّ الأمر على سبيل المثال: نجد أنه مسؤول عن أفراد أسرته وفي الوقت ذاته لهم عليه واجبات ينبغي أن يؤدّيها تجاههم، وما يعد واجبات على وليّ الأمر تجاه الأسرة يُعد حقّوقا بالنسبة لهم، وهكذا في حالة التبادل يظل لوّلي الأمر حقّوق ينبغي أن يأخذها أو يطلبها وفي ذات الوقت تعد واجبا على أفراد الأسرة أداؤها، ولذلك فالحقّوق والواجبات والمسؤوليات الذاتية يتمم بعضها بعضا كما تتمم أضلاع المثلث المتساوي الأضلاع بعضها بعضا.

ولكي تؤدى الواجبات بإرادة ينبغي أن تتوفر اشتراطاتها وهي:

أ. الاعتراف: يدل الاعتراف على تفهُّم الموضوع والتعرُّف من خلاله على ما يجب وما لا يجب، ثم التمسك بما يجب والامتناع عما لا يجب، ولذا فالاعتراف بالواجبات عن وعي يؤدّي إلى التمسُّك بها عن إرادة.

ب. القدرة: إن امتلاك المقدرة العقلية والمعرفية والاعتراف بوجوبية الأداء قد لا يفيد دائما ما لم تتوفر إلى جانبها المقدرة البدنية والمقدرة المادية الداعمة للتنفيذ، ولذا فالقدرة طاقة كامنة تتحفز للظهور بعد تهيؤ.

ج ـ الإقدام: يعد الإقدام مرحلة ما بعد التهيؤ حيث الإقبال على أداء السلوك المحقّق للفعل، ولا يمكن أن يتم الفعل الإقبالي المؤدي للواجبات إلا برغبة وإرادة.

3 ـ حمْل المسؤوليات:

قال تعالى: {وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}412. وقال تعالى: {لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا}413.

من خلال ما عرضناه من ممّارسة للحقّوق وأداء للواجبات نلحظ علاقة قوية وتداخلا معرفيا في العلاقة بين الحقّوق والواجبات والمسؤوليات، المتعلقة بتحقّيق الذات المتوازنة، وعرفنا أن الحقّوق يترتب عليها مطلب أو أخذ، وعرفنا أن الواجبات يترتب عليها أداء أو عطاء، وهذه تستوجب حماية أو حراسة تكون لها سندا يبعد عنها المخاطر، وإن لم يتوفر ذلك تصبح الحقّوق والواجبات كما يقولون في مهب الريح، ولذا تصبح المسؤولية هي الضرورة التي تحقّق الحماية أو الحراسة، فالحارس أو الجندي الذي يحرس الحاكم أو المصنع لو لم يكن مسؤولا لا يمكن أن يؤتمن جانبه، وهكذا حال الطبيب إن لم يكن مسؤولا، لا يمكن أن يؤدّي واجبه بأمانة، فالواجب بلا مسؤولية لا يمكن أن يؤدى بأمانة، وهكذا حال الحقّوق إذا لم تؤخذ بمسؤولية لا يمكن أن تؤخذ بأمانة.

412 الإسراء، 34 ـ 36.

413 الفرقان، 16.

ولذا تكمن المسؤولية في تَحمُّل المخاطر أو المتاعب المترتبة على أداء الفعل سواء كان حقّا أو واجبا، ولهذا فهي عبء يستوجب التَّحمُل، ولأنها كذلك فهي عملية عقلية تُبنى على معطيات أو مسلمات تستوجب التحليل وإجراء الحسابات الذهنية، وتستوجب التفسير والتمييز بين الخطأ والصواب وبين الحلال والحرام وبين القوّة والإرادة، ثم أخذ القرار، وتحمّل الأعباء المترتبة على ذلك.

إن تحمُّل المسؤولية يتطلب مبررات موضوعية لممّارستها بإرادة وهذه المبررات هي:

أ ـ الصلاحيات: إنَّ الحديث عن المسؤولية الذاتية من الناحية الفكرية، ومن الناحية العملية أو التنفيذية يتطلب صلاحيات لكي يتمكّن الفاعل من القيام بتنفيذ الفعل، ولذا فالصلاحيات هي مجال الامتداد المسموح به للمسؤول الذي عندما يفعل يكون مسؤولا، وعليه من يريد أن يكون مسؤولا يجب أن يكون واعيا قبل أن يفعل.

ب ـ الاختصاصات: هي مجال الامتداد في دائرة المسموح به، فعندما يلتزم المسؤول بالحركة داخل مجال الامتداد تُعد ذاته متزنة ومعتدلة في الحركة الموجبة، وعندما تخرج عن ذلك تقع في دائرة المساءلة والمحاسبة والعقاب، حيث تعد مثل هذه الأفعال أفعال سالبة أو منحرفة. وعليه لكي تؤدى المسؤولية بإرادة في دائرة الإيجابية ينبغي أن تتماثل الصلاحيات مع الاختصاصات.

ج ـ الوعي: ورد مفهوم الوعي في الموسوعة الفلسفية العربيّة بأنه وظيفة الجهاز العصبي للإنسان، وهو نشاط ذهني أو فكري للعقل، ويدل على إيجاد علاقة بين الذات والموضوع، وبالوعي يتمكّن الإنسان من التبيُّن والمعرفة، كما أنه يتمكّن من التمييز بين الأفعال

الموجبة والأفعال السالبة والتمييز بين كلّ مُفضّل ومرغوب وبين ما هو غير ذلك ومرفوض، ولذا فإن الوعي ذو صلة مباشرة بالمدركات العقلية التي تُمكِّن الإنسان من التفهُّم والاستيعاب، كما أنها تمكّنه من التقويم الموضوعي الذي يجعل من الذات مركز الاعتدال والتوازن الانفعالي والسلوكي.

د . القدرة: القدرة الذاتية هي التي تُمكِّن الإنسان من التحمّل لما يجب أن يتم تحمُّله باعتبارها طاقة تستوجب توفر الاستعداد للقيام بالمسؤولية في حدود المِقدِرة. والقُدرة متنوعة المستويات فهي على المستوى النفسي، والمستوى البدني، والمستوى المادي، والمعرفي.

4 . نيل الاعتراف:

قال تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ}[414]. وقال تعالى: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}[415].

الاعتراف قيمة إثباتيه بوجود الآخر الذي له من الأهمية ما يساوي أهمية الآخرين، وهي القيمة الانتشارية التي يرغب الكلّ في نيلها من الكلّ، فهي تربّط الفرد بالمنزلة، وتربّط الخصوصية بالمكانة. ومع أنّ العبودية من محرمات الديمقراطية إلا أن الذي تجبره الحاجة

---

[414] آل عمران، 64.

[415] الأنعام، 19.

بقبول العبودية، يريد هو الآخر أن يعترف له سيده بأنه عبد ناجح. ولذلك فإنّ جميع النّاس يريدون نيل الاعتراف من الجميع. ولذا يحاول الوالدان أن يخلصا في رعاية أبنائهما، وذلك لكي ينالا منهم الاعتراف. ويحاول الأبناء أن يكونوا صالحين لكي ينالوا الاعتراف أولا من أبائهم وثانيا من الآخرين. وهكذا المسؤول الديمقراطي يكد ويجد لكي ينال الاعتراف من ذوي العلاقة به. وفي مقابل ذلك نحتفظ بأن لكلّ قاعدة شاذ عنهاّ.

ولذا كلّ إنسان يسعى لنيل الاعتراف به وبأهميته وأن يعترف له بوجوده وبمقدرته على العمل والمشاركة والتفاعل والعطاء بلا حدود إلى النهاية.

5 . نيل الاعتبار:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلًا كَرِيمًا وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا}[416].

الاعتبار قيمة معرفية تربّط الوجود بالمكانة، كما يرتبط التاريخ بالعبر. النظر إليها لا ينبغي أن يُغضَّ بين الأنا والآخر، في قاموسها الاجتماعي لا مكانة للاستهانة التي تُفرِّق بين المرْ وزوجه. ونتيجة لقيمة الاعتبار وتقديرها، لا يُغيّب أنا آخر، ولا يسعى لتجاهله في

[416] النساء، 29 . 32.

كلّ أمر يتعلق بهما، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. من خلال حقّوق تمارس وواجبات تؤدى ومسؤوليات يتم تحمُّلها.

الاعتبار مكانة تُعطى لمن يستحقّها من الأفراد والجماعات والمجتمعات، ولذا لا يتم الإغفال أو غض النظر عمن هو ذو مكانة اجتماعية أو علمية أو نفسية أو أخلاقية. فالمكانة يُلتفت إليها وهي لا تُخفي أبدا، ولذا فهي تُقدّر. والقاعدة تقول: (اعتبرني أعتبرك وإذا تجاهلت وجودي أتجاهل وجودك).

6 . نيل التقدير:

قال تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ}[417] وقال تعالى: {وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفى بِاللَّهِ حَسِيبًا}[418].

التقدير قيمة تقييميه، تربّط الجهد بالإنتاج أو المدخلات بالمخرجات. قيمة عليها يكون التسابق بكلّ قوة مع المحافظة على المسافة التي تسمح للآخر بالحركة في ذات الاتجاه دون عرقلة مقصودة، وبناء على النتائج المنجزة تتميز كلّ خصوصية بما تمتاز به عن خصوصيات الآخرين. ولذا لا يمكن أن تسود قيمة التقدير بين النّاس إن لم يمارسوا الحرية بأسلوب ديمقراطي.

التقدير عملية يتم من خلالها تحديد طبيعة وأسباب وعلل الحالة أو المشكّلة وتحديد احتمالات اتجاهات تطوُّرها والمتغيرات المتداخلة

[417] البقرة 256.

[418] النساء، 6.

معها، وتحديد الدور الذي ينبغي أو يؤدى حيالها وفقا لدائرة الممكن المتوقع السالب والمتوقع الموجب، وكذلك غير المتوقع السالب وغير المتوقع الموجب.

التقدير مطلب يُشبع رغبة، ممّا يستوجب من راغبٍ في ممّارسة السلطة أو امتلاك الثروة، أن يحس بتماثل حاجات الآخرين له في ممّارسة هذه الحقّوق وامتلاكها. ولذا عندما يصل (الأنا والآخر) إلى هذا المستوى من التقدير ينال كلّ منهما نصيبه بإرادة، ويتمكنان من العيش سويا في المكان والزمان الواحد، وينال كلّ منهما مكانة عند الآخر، ممّا يجعلهما يحسان بحاجتهما للبعض وأن كلّ منهما على درجة من الأهمية التي لا ينبغي أن يستهان بها أو يَغفل عنها.

خامسا ـ عزّة السلوك:

يتعلق أمر السلوك بالظاهر المشاهد الذي من ورائه باطن أو كامن، ولذا فإن كان في الباطن (الكامن) حُسنا يكون في الظاهر المشاهد والملاحظ حُسنا أيضا، وإن لم يكن كذلك يكون الظاهر في دائرة القُبح بين متوقع وغير متوقع. قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالحقّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ}[419].

وفيما يتعلق بعزة السلوك، "حُكيَّ عن سارق تم القبض عليه ووُضِعَ في السجن حتى أنه ذات يوم خرج من السجن ورجلّيه

[419] غافر، 23 ـ 26.

مقيدتين، وهو يسأل النّاس أن يعطوه قطعة خبز، فقال له أحدهم: لو اقتنعت بقطعة الخبز لما وضع القيد في قدميك"420.

وقيل أيضا: "إنّ فتح الموصلي، كان قاعدا، فسُئل عمن يلهث وراء الشهوات كيف صفته؟ وكان بقربّه صبيان، مع أحدهما خبز بلا إدام، ومع الآخر خبزٍ وإدام، فقال الذي لم يكن له إدام لصاحبه أطعمني ممّا معك، فقال: بشرط أن تكون كلّبي، فقال صاحبه: نعم، فجعل خيطا في عنقه وأعطاه اللقمة ثم جره من عنقه كما يُجر الكلّب، فقال فتح الموصلي للسائل: أما لو أنه رضي بخبزه من دون إدام ولم يطمع في إدام صديقه لم يصر كلّبا له"421.

وأخرج الطبراني في الأوسط عن سهل بن سعد قال جاء جبريل عليه السلام إلى النبي عليه الصّلاة والسّلام فقال: "يا محمّد، عش ما شئت فإنّك ميت، واعمل ما شئت فإنّك مجزيّ به، وأحبب من شئت فإنك مفارقه، واعلم أن شرف المؤمن قيام الليل، وعزه استغناؤه عن النّاس"422.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: لا يَحِلُّ لمؤمن أن يذل نفسه، قالوا: يا رسول الله وما إذلاله لنفسه؟ قال: يتعرض من البلاء لما لا يقوم له"423.

ويقول الشاعر:

اجعل لربّك كلّ عزّ ك يستقر ويثبت

---

420 محمد راتب النابلسي. موسوعة أسماء الله الحسنى. الجزء الأول مصدر سابق، ص 329.

421 المصدر السابق، 328.

422 المصدر السابق، 330.

423 المصدر السابق، ص 329.

فإذا اعتززت بمن يمو ت فإنّ عزَّك ميت424

وعليه لا تنسى نصيبك من الدنيا واعمل لآخِرتك كأنك تموت غدا، وأعلم أنه لن يُعطيك أحدا شيئا إلا وأمر الله له نافذ بإعطائك ممّا أعطاه الله، فاحمد الله وحده ولا تُقلِّل من شأنك فإنّ الله قد خلقك في أحسن تقويم، وهو يريدك خليفة له في الأرض، فلا تُصغِّر من نفسك أمام الآخرين، ولا تقلل من شأنك، ولا تطمع إلا في وجه الله تعالى. واعلم إنك لو قللت من شأنك فقد أجرمت في حقّ نفسك وفقدت رضا الله عليك، فاستغفر الله وتب إليه ولا تعمل إلا ما يُرضيه، فإن فعلت ما يُرضيه فُزت مرتين، مرة بالاستخلاف في الدنيا، ومرة بالاستخلاف في الآخرة والفوز بالجنّة. ولذا لا تغفل، فإنّ الموت آتٍ وأعلم أنك لن تموت قبل اليوم الذي كُتب لك الموت فيه، وكن مستعدا للرحيل وأنت فائز برضا والديك، وأنت لم تُفسِدْ في الأرض ولم تسفك الدماء فيها بالباطل، ولم تظلم أحدا من العباد. وكن فطنا وحذرا من وسوسة الشيطان والنفس، وتذكر لعلَّ الذكرى تنفعك، {فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى}425. وقوله تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القوّة الْمَتِينُ}426. وأعلم إنّما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور فلا تغترَّ مصداقا لقوله تعالى: {فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}427.

---

424 المصدر السابق، 328.

425 الأعلى، 9.

426 الذاريات، 55 ـ 58.

427 لقمان، 33.

قال تعالى: {يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}428. فالذين يقولون هم المنافقون ويقصدون بالأعز أنفسهم، وبالأذل يقصدون المؤمنين. وفي هذا الأمر يقول البيضاوي في تفسيره للقرآن الكريم: "أخرج البخاري وغيره عن زيد بن أرقم رضي الله عنه، قال: سمعت عبد الله بن أُبي المنافق يقول لأصحابه: لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، فلئِن رجعنا إلى المدينة ليخرجنَّ الأعزُّ منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي، فذكر ذلك عمي لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فدعاني الرّسول صلّى الله عليه وسلّم فحدثته، فأرسل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إلى عبد الله بن أبي وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذبني وصدقه، فأصابني شيء ـ أي أصابني شيء من الحزن ـ لم يُصبني مثله من قبل، فجلّست في البيت، فقال عمي: ما أردْتَ إلا أن كذبك رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ومَقَتَكَ، فأنزل الله تعالى: (ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين) أي ولله الغلبة والقوّة ولمن أعزه من رسوله والمؤمنين"429. ولذا فالعزّة مناصرة وقوّة حقّ لإحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل. فمن يعزه الله فقد فاز فوزا عظيما، ومن يعزه رسول الله فقد أعزه الله تعالى وذلك لأنّ {مَنْ يُطِعِ الرّسول فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ}430. جاءت هذه الآية مناصرة ومعززة لِما قاله زيد بن أرقم رضي الله عنه ولذلك فمن يعزه المعزّ جلّ جلّاله فقد اعتز، ومن يعزه الرّسول فقد أعزه الله، ولذا فإن المؤمن المرضيُّ عنه، ينال عزته من عزة الله تعالى له، وأيضا من عزة الرّسول له صلّى الله عليه وسلّم. أي أن الله عزّ وجلّ يعز المؤمن مباشرة بما يعمل من أعمال

428 المنافقون، 8.

429 تفسير البيضاوي مصدر سابق، ص 744.

430 النساء، 80.

الطاعة له جلّ جلّاله، ويعزه بإيمانه بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم واتباع سنته الشريفة.

المعزّ عزّ وجلّ هو: الذي بيده الملك، والأمر والنهي، والبداية والنهاية، والثواب والعقاب. ولأنه كذلك فهو يعزُّ من يشاء متى يشاء وكيف ما يشاء سبحانه ما أعظم شأنه إنه القوي القادر.

ولأنه المعزّ فهو بطبيعة الحال هو الخافض الرافع؛ الخافض للظلم والمظالم والحاجة والفاقة، والرافع بالإشباع والوفرة والملك والسلطان والغنى، الذي لو لم يكن غنيا ما كان باسطا للخير وما كان عليما بما جرى ويجري وسيجري، وما كان فتَّاحا ورزَّاقا ووهَّابا وقهَّارا ومصورا وبارئا وخالقا ومتكبِّرا وجبَّارا وعزيزا ومهيمنا ومؤمنا وسلاما وقدُّوسا وملكا ورحيما ورحمانا، ولذا فهو الله تعالى واحد أحد لا شريك له سبحانه جلّ جلّاله.

فالعزّة بالنسبة للمُعزّ بالإضافة تُطلب فتؤخذ، ويُبذل الجهد في سبيلها حتى يتم التمكُّن من نيلها، وكذلك يعمل الإنسان خوفا وطمعا من أجلّ بلوغها. فبها تطمئن النفس وتعتز دون أن تغتر. والعزّة الكُبرى هي التي تؤتى من المعزّ المطلق للمُعزِ بالإضافة مصداقا لقوله تعالى: {قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتُعزُّ من تشاء وتذلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كلّ شيءٍ قدير}431.

تدل هذه الآية الكريمة على الاعتراف والإيمان المطلق بأن الله وحده هو مالك الملك، ممّا يستوجب التوجه إليه بالدعاء والطلب دون التوجه لغيره، حتى تتم الاستجابة بان يؤتي الملك لمن يشاء من

431 آل عمران، 26.

عباده المؤمنين المتوجهين له بالدعاء والطلب البيّن دون أن يُراودهم شكّ في طلبهم أو في استجابة الله لهم، فتتم الاستجابة من المعزّ تعالى لعدة اعتبارات منها:

. الاعتبار الأوّل الأحقّية: كما هو حال الأنبياء والرّسُل الذين يصطفيهم المعزّ تعالى اصطفاءً. {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ}432. وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ}433. تدلّ هاتان الآيتان على ثبوت عزة الله لأنبيائه ورسله حتى يُطاعوا بإذنه وتتبدل السيئة حسنة.

. الاعتبار الثاني إخلاص النية: النية هي التي يعلم أمر سرها الله تعالى وهو المتوجه إليه بالدعاء حتى نيل الاستجابة المرتبطة بصفاء النية، ولهذا فمن صدقت نيته صدقت الاستجابة معه، وما الأعمال إلا بالنيات.

. الاعتبار الثالث صدق الدعاء: من يدع ربّه بقلب سليم يَستجِيبَ له وهو بكلّ شيء عليم. قال تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}434. وقال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ

---

432 النساء، 64.

433 الأعراف، 94، 94.

434 إبراهيم، 37.

لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ}435.

. الاعتبار الرّابع صفاء النفس: الأنفس أنواع وخيرها النفس المطمئنة التي لا تشرك بعبادة ربّها أحدا. قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ}436.

. الاعتبار الخامس ساعة الاستجابة: هي الساعة التي فيها تخلص النية مع الدعاء ويتزامن فيها الدعاء مع الاستجابة قال تعالى: {وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ}437.

. الاعتبار السّادس إعطاء الفرصة: من يطلب الله بقلب سليم يستجب ويعطيه الفرصة ويختبره إن كان قادرا على حمْل مسؤولية ما طلب ليعمل صالحا أم انه لن يكون قادرا وسَيُفسِدَ في الأرض، ولذا فإن الله يؤتي الملك لِمن يشاء وينزعه ممن يشاء، أي أنه يؤتيه للمصلح ويُنزعه من المفِسد الذي أُعطيت له الفرصة ولم يغتنمها ويستثمرها الاستثمار الأمثل في العمل الأصلح. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا

---

[435] الأنبياء، 87.

[436] المائدة، 116.

[437] يونس، 88، 89.

اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}438.

. الاعتبار السّابع النصيب من الدنيا: الله عزّ وجلّ خلق الإنسان في أحسن تقويم لأجلّ أن يكون خليفة له في الأرض وليعمل فيها صالحا، ولهذا خلق له الثمرات والخيرات الكثيرة ليعيش حياته ويأخذ نصيبه منها ولا يعتدي على نصيب الآخرين الذين لهم الحقّ فيها مثلما له الحقّ. قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ}439.

. الاعتبار الثّامن الحمد والشكّر على العطاء: قال تعالى: {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ}440.

وباستمرارنا في تبيان أبعاد الآية السادسة والعشرين من سورة آل عمران (قل اللهم مالك الملك تؤتي المِلك من تشاء وتنزع المِلك ممن تشاء وتُعزُّ من تشاء وتذلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كلّ شيءٍ قدير) نلاحظ أن المِلك جاء مطلقا، ولم يقتصر على مُلك بعينه، فجاء جامع لكلّ مُلك من نبؤه وسلطان ومال، إلى الصحة والشفاء والعافية، ومن النجاة من النّار إلى الدخول في الجنّة. ولهذا فالملك يدل على أي مُلك مهما عدَّدنا وسمَّينا لا نستطيع حصره.

438 الأحقّاف، 13، 14.

439 القصص، 77.

440 المؤمنون، 28 . 31.

ويؤتي الملك تعني: يُنعِمَ الله به ويرحم من هم في أشد الحاجة إليه، ولذا فالحاجة التي بها يُنال الملك لا يُقدِّرها إلا هو عزّ وجلّ، فيؤتي ويُمنح الملك لمن يشاء وينزعه ممن يشاء. ولذا فالقاعدة هي: (يُؤتىَ الملك لمن يشاء ويُنزع ممن يشاء).

وإعطاء الملك ليس هو الغاية، بل الغاية تكمن من وراء إعطائه، فبالملك يُعزُّ البعض، وبه يُذل البعض. فمن يعمل صالحا يرضاه الله يعزه الله بملكه، ومن يُفسد في الأرض ويَسفِكُ الدماء فيها بغير حقّ يذله الله بملكه. ولهذا لا ينبغي أن يغتر من يؤتى أو يُوهب ملكا فالعزّة دائما لله وحده. ولأن الأمر كذلك فإنّ الخليفة مهما أُوتي من ملك فهو يتقي الله ربّه ولا يشرك بعبادته أحدا.

وقوله (بيدك الخير) تدل على أن الخير كلّ الخير هو من أفعال الله عزّ وجلّ، أمَّا أفعال الشر كلّ الشر فلا تأتي إلا من أيدي البشر المفسدين في الأرض، بأكلّهم أموال النّاس بالباطل وقتلهم النفس التي حرَّم الله إلا بالحقّ، وبتطفيفهم للميزان، ونقصهم للكيل إذا ما اكتالوا، وأكلهم للربّا، وبكلّ فعل أو سلوك يقومون به أو يقدِمون عليه وهو منهي عنه أو مُحرَّما من عند الله تعالى.

وعليه، خص المعزّ جلّ جلّاله الخير لأنه بيده، والخير هو الاستجابة للدعاء والرغبة والتفضيل من قبل المؤمن الداعي ربّه خوفا وطمعا. أمَّا الشر فهو بيد النّاس الذين لا يُصلِحونَ في الأرض، ولذا فالخير والحسنة من عند الله والشر والسيئة من عند النّاس. قال تعالى: {مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفي بِاللَّهِ شَهِيدًا}[441].

[441] النساء، 79.

قال تعالى: {سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}442. في هذه الآية الكريمة تنزيه للذات الربّانية ممّا يقوله الكفرة والمشركون، و(ربّ العزّة) ربّ المكارم والفضائل والقوّة المطلقة والخير الوفير، وربّما تعني مالكها والمهيمن عليها فلا تفلت منه أبدا، ولن تؤتىَ العزّة أو تُمنح إلا منه، ولذلك في العزّة مناصرة وعون وسند ودعم وتأييد ومغالبة فسبحان ربّ العزّة عمَّا يصفون.

وعليه لم تكن العزّة هدفا يُنجز، بل غاية تُبلغ بالأعمال، فالعزّة متصلة بالاستخلاف في الأرض والدوام في الآخرة، ولم يكن حالها كحال الأعمال المنفصلة، فمن يُعزُّ في الدنيا يُعزُّ في الآخرة.

ولأن الله عزّ وجلّ كامل الصفات والأفعال جاء قوله تعالى: (عمَّا يصفون) تنزيه له عن القصور والحاجة والصاحبة والولد، ولهذا فالعزّة صفة ذات وصفة فعل.

(وسلام على المرسلين) اعتراف إيماني بجميع الرّسُل صلوات الله وسلامه عليهم، مصداقا لقوله تعالى: {آمَنَ الرّسول بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ}443. ولذا فمن وجوب الإيمان بالرّسُل ألا نُفرق بينهم، مع علمنا التام بتفضيل الله لبعضهم على بعض من حيث الزمان والمكان والموضوع والغاية.

(والحمد لله ربّ العالمين) شكّر بعد اعتراف وتقدير للعزة والرّحمة الربّانية، التي تمتد وراء كلّ شيء، ممّا يجعل المؤمن موحدا لله

442 الصافات، 180 . 182.

443 البقرة، 285.

تعالى، ومصليا ومسلما على أنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم جميعا الذين جاءوا بالحكمة والهداية مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاعلين للخير.

ولأن العزّة لا تتحقّق إلا بالنية والأعمال الخيرة، لذا فالمعزّ يَعِزُّ الإنسان بالمعطيات الآتية:

ـ العزّة بالإيمان: قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}[444].

ـ العزّة بالفضل: قال تعالى: {ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ}[445].

ـ العزّة بالعقل: الذي به نتذكّر ونتفكّر قال تعالى: {لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ}[446].

ـ العزّة بالنعيم: قال تعالى: {إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ}[447].

---

[444] الشورى، 51، 52.

[445] البقرة، 64.

[446] القصص، 43.

[447] البقرة، 271.

. العزّة بالاستجابة: قال تعالى: {وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ}448. وقال تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ}449.

. العزّة بالعمل الصّالح: قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}450.

. العزّة بالاستغفار والتوبة: قال تعالى: {وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}451.

. العزّة بالاستخلاف: قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}452.

العزّة بالرّحمة: قال تعالى: {مَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}453.

---

448 الأنبياء، 76.

449 الأنبياء، 84.

450 البقرة، 62.

451 آل عمران، 135.

452 النور، 55.

453 البقرة، 104، 105.

المعزّ، هو الذي يعزُّ من في نفسه نية صافية وصادقة، وهو الذي يأمل النجاح في الأفعال الحسنة، ويأمل الابتعاد عن الأفعال السيئة، ولذا فمن يعز الحقّ يعزه المعزّ جلّ جلّاله.

المعزّ هو الذي يَهَبُ العِزَّ لمن يشاء من عباده454، والمعزّ ذو صلة بالاسم العزيز فهو مظهر من مظاهره.

والعَزِيزُ من صفات الله عزّ وجلّ وأسمائه الحسنى وهو الممتنع فلا يغلبه شيء وهو القوي الغالب كلّ شيء وهو الذي ليس كمثله شيء"455.

والعِزُّ خلاف الذُّلِّ، والعِزُّ في الأَصل القوّة والشدة والغلبة والعِزُّ والعزّة الرفعة والامتناع، قال تعالى: (ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين) أَي له العزّة والغلبة سبحانه وقال في التنزيل العزيز: (من كان يريد العزّة فللَّه العزّة جميعا) أَي من كان يريد بعبادته غير الله فإنما له العزّة في الدنيا ولله العزّة جميعا أَي يجمعها في الدنيا والآخرة بأَن يَنْصُر في الدنيا ويغلب456. ومن هنا كان الاستخلاف للإنسان في الأرض عزة.

الخلافة عزٌّ:

قال الله تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آَدَمَ الأسماء كلّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأسماء هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ

[454] لسان العرب، ج 5، ص 374.

[455] المرجع السابق

[456] المرجع السابق

الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بأسمائهم فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بأسمائهم قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السّماوات وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْربَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا ممّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ ربّهِ كلّمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم}457.

فالآيات البيّنات توضح نوعا من تجلّيات المعزّ لم يشر إليه الكثير، فأول مظهر من مظاهر العز الربّاني لآدم كان الأمر بالخلافة ودعوة الملائكة بالسجود، وتمثل ذلك في قوله تعالى مخبرا للنبي صلّى الله عيه وسلّم: (وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) فالله المعزّ فعله كلّام وعطائه كلّام ومنعه كلّام فهو الذي يقول للشيء كن فيكون، وهو سبحانه أراد أن يعز آدم وذريته فأخرج آدم من تراب ونفخ فيه من روحه واستخلفه في الأرض وأعزه وذريته فيها ومن عز الله لآدم عليه الصّلاة والسّلام، قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كلّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ}458 ويقول الله في نفس السياق: {فإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كلّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ

---

[457] البقرة 30 . 37

[458] الحجر، 28 . 31.

أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}459.

فقد أعز الله آدم إذ خلقه، وسواه وعدله في أحسن صورة وأكرمه، وأسجد له الملائكة، ولم يكن سجود الملائكة سجود عبادة بل سجود تحية لآدم وسجود طاعة لله ربّ العالمين، فكان للملائكة موقف استفسار واستبيان: (قالوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) فعلم الملائكة أنهم المسبحون لله الحامدون لله المقدسون لذاته، فلم هذا المخلوق الذي أعزه الله بهذا الشرف الاستخلافي في الأرض؟ وهنا يخبرهم الله أن عزه لآدم عليه الصّلاة والسّلام لم يكن عز اختيار لتعمير لأرض فقط ولا عز من نوع جديد وهو عز العلم واكتشاف الأسرار ووضع الأسماء للأشياء التي لم تسمَّ، ويا سبحان الله فمن هذا النوع وهو التسمية أن الأرض لها في كلّ لغة من اللغات التي يتحدث بها البشر مسمى تقتربّ المسميات أو تبتعد في المخارج ولكن المدلول واحد، وقس على ذلك ملايين المفردات الموجودة في لغات البشر فمن سماها وأعطاها دلالتها؟ لا أحد سوى تلك القدرة الخارقة التي منحها الله لآدم في حضرة العزّة التي أعزه فيها، فقال الله تعالى للملائكة: (قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) ففضل آدم عملي خلّاق فهو الذي يغير الأشياء للأجمل إبداعا بآلة العقل التي منحت له والعلم الذي يفجره لتوظيف ما خلقته على الأرض لخدمة مهمة الخلافة، لذلك فالله قال: {وَعَلَّمَ آدَمَ الأسماء كلّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأسماء هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ

[459] ص 72 . 76

بأسمائهم فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بأسمائهم قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السّماوات وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ}460 لذا فتفضيل آدم ليس بالخلق من الطين والسجود ولكن هناك تفضيل آخر وهو الأمانة التي حملها وهي العقل والتفكير والتحليل ووضع القواعد، أو ما يمكن أن نسميه التهيئة والإعداد المسبق لتولي الخلافة، ومن يترجم التهيئة الذاتية لأفعال من بناء وزراعة وحفر للآبار وشق للأنهار ووضع السدود ونقش العلوم في العقول والمعارف في القلوب والسمو في الأرواح فهو الذي استفاد من التهيئة الربّانية لتولي الخلافة على الأرض.

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا الأرض بالتحديد لاختيار آدم لمهمة الخلافة؟

الإجابة ببساطة لأنها البيئة الملائمة لإخراج التهيئة الربّانية إلى أفعال من إقامة عدل وإحقّاق حقّ وإبطال باطل، فهذه الأشياء التي نسميها نحن في الأرض ظلم وكذب وزور وغير ذلك من سلبيات ليست موجودة في عالم الملائكة ولا في عالم الكواكب والنجوم المكتشفة، إنما هي موجودة في عالمنا ومن حوّلها إلى نقائضها فهو الذي أظهر عزَّ الله وظهر فيه عز الله، فالملائكة مجبولة على الطاعة هي وغيرها من الكائنات التي لم تستخلف، قال الله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السّماوات وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ}461، (أَوَلَمْ يَرَوْاْ إلى مَا خَلَقَ الله مِن شَيْءٍ) في الأرض،

[460] البقرة 13 . 33.

[461] النحل، 48 . 50

(يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ عَنِ اليمين والشمائل سُجَّدا)، أي يتحول الظل عن اليمن والشمال أثناء الحركة الممتدة من الشروق إلى الغروب، فذلك قوله سبحانه: {يَتَفَيَّأُ ظِلاَلُهُ}، يعنى يتحول الظل، فإذا زالت الشمس، تحول الظل عن الشمال قبل المشرق، كسجود كلّ شيء في الأرض لله تعالى، ظله في النهار ساجدا، (لِلَّهِ) دون اختيار (وَهُمْ دَاخِرُونَ) صاغرون. (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السّماوات) من الملائكة، (وَمَا فِي الأرض مِن دَآبَّةٍ) فالكلّ يسجدون لأنهم جبلوا على ذلك. (ما في السماوات) من الملائكة وغيرهم وكلّ شيء في السّماء والأرض، ووصف الله الملائكة، فقال: (والملائكة وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ) فهم لا يتكبرون عن السجود لأنهم: (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِّن فَوقِهِمْ) لأن الله تعالى فوق كلّ شيء، أي شاهدا عليهم حيث لا تخفي عنه خافية في الأرض أو السّماء، (وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) فهم لا اختيار لهم، وهنا الفرق بين المكلّف بالخلافة وغير المكلّف.

ولما أقيمت الحجة في الاستخلاف كان الأمر بالسجود طاعة لله وتسليما لآدم بحقّه في الخلافة لأن ذلك إعزاز من الله فسجدت الملائكة مصداقا لقوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ رَبِّهِ كلّمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم) فأطاعت الملائكة إلا واحدا ليس من الملائكة ورفض أن يعز الله آدم لذا فقد قال متكبرا: {قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا

عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}462 والمعنى الذي ورد إلى الذهن من الاسم المعزّ هو قول إبليس: فبعزتك، أي فبعزتك له علي وتفضيله بالخلافة وأنا أفضل منه فسأغويه وأرده عن الحقّ إلا العباد الذين ستعزهم وتمنعهم مني، وكان دافع إبليس في رفض خلافة آدم والسجود له الحسد والكبر، وذلك لأن إبليس، إنما وقع فيما وقع فيه بسبب الحسد والكبر، والكفار لم يستجيبوا للنبي عليه الصّلاة والسّلام بسبب الحسد والكبر، والمستفاد من صراع إبليس ضد آدم البعد عن هاتين الخصلتين المذمومتين، والله تعالى حث المستخلفين المكلّفين بالنظر والاستدلال، ومنعهم عن الإصرار والتقليد، فسؤال الملائكة عن الحكمة في تخليق البشر واستخلافه يدل على أن الحكمة الأصلية في تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبر، وإبليس إنما خاصم آدم عليه السلام لأجلّ الحسد والكبر فيجب على العاقل أن يبتعد عنهما.

ولما وقع آدم في المعصية التي أخرجته من الجنّة ونزل بها إلى الأرض أعزه الله بالتوبة نكاية في إبليس، وكأن هذه المعصية كانت للاختبار وللتهيئة حتى يمارس آدم الاستخلاف في الأرض بدربّة وتلقين وفطنة، ومن المعلوم أن آدم لم تذكر له معصية لما نزل الأرض.

وعندما انتشرت المعصية وابتعد أبناء آدم عن الوضع الطبيعي لهم في ممّارسة واجبات الخلافة قال الله تعالى: {يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ}463، وهذه

---

462 ص 82، 83

463 المائدة 54

الآية نعلم أنّ لها سياق آخر وأنها أخبرت عن المرتدين، ولكن القرآن صالح لكلّ زمان ومكان، ولا ضير أن نوظف معانيه بما لا يتعارض مع المعنى العام له بلا شطط ولا شطح بل بوسطية وعقلانية، فهؤلاء الذين يحبهم الله في كلّ وقت ومن نعتهم أن جانِبَهم غليظٌ على الكافرين لَيِّنٌ على المؤمنين يَتَذَلَّلُون للمؤمنين وإن كانوا أَعِزَّةً ويَتَعَزَّزُون على الكافرين وإن كانوا في شَرَف الأَحْساب دونهم، وهم الذين يصلحون ولا يفسدون ويصفون الدواء للداء الذي يعطل أمر الله في الأرض، ويعزون الذليل إن كان معه الحقّ، ويذلون العزيز إن كان عليه الحقّ، ولله در أبي بكر خليفة رسول الله حين قال في هذا المعنى: بعد حمد الله والصلاة على النبي صلّى لله عليه وسلّم "أما بعد، أيها النّاس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أزيح علته إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحقّ إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله؛ فقوله رضي الله عنه: "وليتكم ولست بخيركم" من باب الهضم والتواضع، فإنهم مجمعون على أنه أفضلهم وخيرهم رضي الله عنهم"[464]، فمن يفعل ما فعله سيدنا أبو بكر فهو من خلفاء الله في الأرض الذين تخلقوا بأخلاق الاسم المعزّ لذا فالنصر والغلبة للأعز الذي استلهم العز من الله ولا علاقة بالغلبة والعزّة بالعدد لأن الله المعزّ يقول: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فإنهُ مِنِّي

[464] السيرة النبوية لابن كثير، ج 4، ص 493.

إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو اللَّهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالحقّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ}465.

فقوله تعالى: (فلما فصل طالوت بالجنود) أي: خرج وشخص. وفي عدد من خرج معه ثلاثة أقوال. أحدها: سبعون ألفا، قاله ابن عباس. والثاني: ثمانون ألفا، قاله عكرمة والسدي. والثالث: مائة ألف، قاله مقاتل. قال: وساروا في حر شديد، فابتلاهم الله بالنهر. والابتلاء: الاختبار. ووجه الحكمة في ابتلائهم به أن يعلم طالوت من له نية في القتال منهم ومن ليس له نية. فقال: (ليس مني) أي ليس من أصحابي. وقوله تعالى: (إلا من اغترف غُرفةً) قرأ ابن كثير ونافع، وأبو عمرو، «غَرفة» بفتح الغين، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة، ولكسائي بضمها، قال الزجاج: من فتح الغين، أراد المرة الواحدة باليد، ومن ضمها، أراد ملء اليد. وزعم مقاتل أن الغرفة كان يشربّ منها الرجلّ، ودابته، وخدمه ويملأ قربّته. وقال بعض المفسرين: لم يرد به غرفة الكف، وإنما أراد المرة الواحدة بقربّة أو جرة، أو ما أشبه ذلك. وقوله تعالى: (لا طاقة لنا) أي: لا قوة لنا ولا قدرة.

[465] البقرة 249 . 252

فالحقّ عزيز بعز الله ومعزته لأهله وإن كان قليل العدد كما مر بنا في القصص القرآني الذي فيه العبرة والعظة واستلهام المعاني، ولما قال المغرور بالعدد والمال عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين: لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ منها الأَذَلَّ، فأعز الله النبي والفئة المؤمنة، وهذا ما ترويه لنا كتب السيرة: "فبينما النّاس على ذلك الماء وردت واردة النّاس، ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار.

وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين.

فغضب عبدا لله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث فقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا؟ والله ما أعدنا وجلّابيب قريش هذه إلا كما قال الأول: "سمن كلّبك يأكلّك!" أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: فكيف يا عمر إذا تحدث النّاس أن محمّدا يقتل أصحابه، لا ولكن أَذِّن بالرحيل.

وذلك في ساعة لم يكن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يرتحل فيها، فارتحل النّاس.

وقد مشى عبدا لله بن أبي بن سلول إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم حين بلغه أن زيد بن أرقم بلغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلّمت به، وكان في قومه شريفا عظيما، فقال من حضر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من الأنصار من أصحابه: يا رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال الرجلّ[466].

فلما استقلَّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وسار لقيه أسيد بن حضير فحياه بتحية النبوّة وسلّم عليه، ثم قال: يا رسول الله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها.

فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أوما بلغك ما قال صاحبكم عبد الله بن أبي؟ قال: وما قال؟ قال: زعم إن رجع إلى المدينة أخرج الأعز منها الأذل. فقال أسيد: فأنت والله يا رسول الله تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله أرفق به فوالله لقد جاء الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكًا.

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أمر أبيه فأتى رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل عبد الله بن أبي، لما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فَمُرْني به، فأنا أحمل إليك رأسه، فوالله لقد علمتِ الخزرج ما كان بها رجلّ أبرَّ بوالديه مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي

[466] السيرة النبوية لابن كثير، ج 3، ص 299.

أن أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في النّاس فأقتله، فأقتل مؤمنًا بكافر، فأدخل النّار.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: بل نرفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا، قالوا: وسار رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس، ثم نزل بالنّاس فلم يكن إلا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا نيامًا. وإنما فعل ذلك ليشغل النّاس عن الحديث الذي كان بالأمس من حديث عبد الله بن أبي[467].

ونزلت الآيات التي قال الله تعالى فيها: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السّماوات وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ العزّة وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ}[468].

فأنزل الله تعالى سورة المنافقين في تصديق زيد وتكذيب عبد الله. فلما نزلت أخذ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأذن زيد وقال: "يا زيد إن الله صدقك وأوفى بأذنك".

وكان عبد الله بن أُبيّ بقربّ المدينة، فلما أراد أن يدخلها جاءه ابنه عبد الله بن عبد الله حتى أناخ على مجامع طرق المدينة، فلما جاء

[467] تفسير البغوي، ج 8، ص 132.

[468] المنافقون،5 . 8

عبد الله بن أبي قال: وراءك، قال: مالك ويلك؟ قال: لا والله لا تدخلها أبدًا إلا بإذن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، ولتعلمن اليوم من الأعز من الأذل، فشكّا عبد الله إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ما صنع ابنه، فأرسل إليه رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أن خلِّ عنه حتى يدخل، فقال: أمّا إذا جاء أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فنعم، فدخل فلم يلبث إلا أيامًا قلائل حتى اشتكى ومات.

قالوا: فلما نزلت الآية وبان كذب عبد الله بن أبي قيل له: يا أبا حباب إنّه قد نزل فيك أي شداد فاذهب إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يستغفر لك، فلوى رأسه ثم قال: أمرتموني أن أؤمن فآمنت، وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمّد469 فأنزل الله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السّماوات وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ}470.

والقرآن الكريم فيه العزّة لمن أراد العزّة فقد قال الله في فضل القرآن الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ}471 فإن الكتب التي تقدّمت عليه في الزمان لا تبطله ولا يأتي بعده كتاب يبطله وهو محفوظ من أن يُنْقَصَ ما فيه فيأتيه الباطل

---

469 تفسير البغوي، ج 8، ص 133.

470 المنافقون 5 . 7.

471 فصلت 41، 42

من بين يديه أَو يُزاد فيه فيأْتيه الباطل من خلفه وكلّا الوجهين حَسَنٌ فقد حُفِظَ وعَزَّ مِنْ أَن يلحقّه شيء من هذا، (وَإِنَّهُ لكتاب عَزِيزٌ) والعزيز الثمين الذي لا يساويه شيء وهو المحبوب بما فيه من آيات تطمئن الأنفس بها، وتنير دروب الضالين إلى الهداية ودروب المستخلفين إلى الجنّة.

(لاَّ يَأْتِيهِ الباطل مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ) وذلك لأنه الحقّ المطلق، والحقّ المطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو كتاب الكافة الذي لا يجيء كتاب من بعده بالمطلق، والقرآن محفوظ مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّا لَهُ لحافظون}[472]، وقوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبٍ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ بَلْ هُوَ قُرْآَنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ}[473]، ولهذا فهو كتاب عزيز ومن تمسك به فهو مُعزّ.

وعليه الشعور بالعزّة في طاعة الله تعالى يجعل الطائع عزيزا، والعزّة بطاعة الله تجعل الطائع مُعَزًّا. وعلينا أن نفرق بين العزّة والغرور والتكبر:

. العزّة: لا تكون إلا لعزيز النفس طيب الإرادة محب الخير يقدم على ما يجب الإقدام عليه ويبتعد عما يجب الابتعاد عنه ويتجنب ما يجب تجنبه، وينتهي عما يجب الانتهاء عنه، ومن يفعل ذلك يكون من المستخلفين في الأرض المفلحين فيها بالعمار وأفعال الخيرات الحسان.

الغرور: الظهور بحسابات في غير محلها، وعدم تقدير للمواقف والإقدام في غير زمانه ومكانه وموضعه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس

---

[472] الحجر 9.

[473] البروج 19 . 22.

اتَّقُوا ربّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ}474.

ـ التكبر: مغالاة في غير محلها، قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ ربّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِربّي وربّكُمْ مِنْ كلّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ}475، وقال تعالى: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كلّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ}476.

إنّ الشعور بالعزّة المفرطة يؤدّي على الكبر والشعور بالتواضع المفرط يؤدّي إلى الهوان والاثنان يتنافيان مع الاسم المعزّ، ولكن القصد في أن يبتغي المتخلق بالعز بين ذلك سبيلا، فلا يكون المتخلق بالمعزّ من تأخذه العزّة إن أخطأ بل يعود فيصلح من خطئه، قال الله تعالى: {وَمِنَ النّاس مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ العزّة بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ وَمِنَ النّاس مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ}477، فلا يتخذ الإنسان موقفا غير صحيح لمن يرشده إلى خطئه بل يجب عليه أن يعود إلى رشده ويصلح من إحساسه المفرط بأنه على الصواب، ويتمثل بالخلق

---

474 لقمان 33.

475 غافر 26، 27.

476 غافر 35.

477 البقرة 204،207

المتواضع في رحمة من غير ضعف الذي كان يتحلى به النبي صلّى الله عليه وسلّم وهو الذي أعزه الله وذلك حين أمره الله تعالى بقوله تعالى: {واخفض جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ}478 فالرّحمة فيها العز بشرط أن تكون لمن يستحقّ.

ومن المعلوم أن العز بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الملك وهو على كلّ شيء قدير فقد أعز آدم وأذل إبليس، فقد أعز نوحا بالطوفان وأذل الكافرين بالطوفان نفسه، فقد أعز إبراهيم بالنّار وهي أداة الذل للكافرين يوم القيامة، وقد أعز موسى وأذل فرعون لأن الله المعزّ بيده الملك فسخر الطوفان والنّار والبحر لأوليائه وأنبيائه فأعزهم بها، وقد أعز الله بيته لما جاء أبرهة يهدمه أعزه بطائر قليل الحجم يحمل حجارة صغيرة فأذل أبرهة وجنوده، وقد أعز النبي محمّد صلّى الله عليه وسلّم بالإسلام، ولم يمنع عزه عنا ما دمنا نؤمن بأنه المعزّ فقد علَّم النبي صلّى الله عليه وسلّم سبطه الحسن بن علي هذا الدعاء فعَنِ الْحَسَنِ بن عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، قَالَ: عَلَّمَنِي جَدِّي رَسُولُ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم كلّمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوِتْرِ: "اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لا يَذِلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ"479. فلا معز لمن أذل الله ولا مذل لمن أعزّ الله.

وعليه: فإنّ المسلّم هو مرفوع المكانة صاحب الدّرجات العليَّة في الدارين، ولهذا جاء اصطفاء الله لرسوله إل ياسين مُقام على الرفعة.

---

478 الحجر،88، 89.

479 المعجم الكبير للطبراني، ج 3، ص 125.

ولهذا؛ فالرافع هو الذي رفع أنبياءه ورُسُله المنزلة في الدنيا بإعزاز كلّمتهم ويرفعهم في الآخرة مقامات الجنّة العظام بارتفاع درجتهم.

وَالرَّافِعُ هو الْمُعْلِّي لِلأَقْدَارِ الذي بيده القوّة والقدرة الممكّنة من تحقّيق الرفعة وإحداث النقلة إلى ما هو أفضل وأجود وانفع وأفيد.

والرافع في القرآن الكريم هو الاسم الدال على الله تعالى مصداقا لقوله عزّ وجلّ: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ إِنَّ ربّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}480.

وفي لسان العربّ الرافع هو "الذي يرفع المؤمن بالإسعاد وأولياءه بالتقريب، والرفع ضد الوضع، رفعته فارتفع فهو نقيض الخفض في كلّ شيء"481.

ولو عُدنا للآية السابقة {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ إِنَّ ربّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}482 لعرفنا أنَّ الرافع جلّ جلّاله هو الذي جعل الخلائف تتوالى من ولادة سابقة إلى موت يلاحقّها، ومن ولادة جديدة إلى موت متجدد، حتى النهاية بالولادة التي لا يلاحقّها الموت أبدا (البعث).

وبما أنّ الله جعلنا خلائف الأرض، إذا الأرض لا يمكن أن تكون بدون خلائف عليها. وبما أن الأرض لا يمكن أن تكون بدون خلائف عليها. إذا الرزق في الأرض والعيش عليها لن ينتهي مادام

480 الأنعام 165.

481 لسان العرب، ج 1، ص 1197.

482 الأنعام 165.

الموت لم يمت بعد. والموت بطبيعة الحياة لن يموت إلا بقيام الساعة، وحينها تصبح الأرض مطوية مثل طي السّماوات.

وقوله: (وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ) أي مع أنّه خلقكم في أحسن تقويم، إلا أن مصائركم على الأرض تعتمد على ما تقدمه أيديكم من عملٍ، فمن يُصلح في الأرض لا يتساوى مع من يُفسد فيها. ومن هنا تتفاوت الدرجات بالإيجاب وبالسلب، فالذين استجابوا لربّهم الذي جعلهم خلائف الأرض، سينالون سلام من ربّهم وجزاؤهم الحسنات، والذين لم يستجيبوا لربّهم الذي يُرِيدهم أن يكونوا خلائف الأرض سينالون أجورهم من العذاب ولا سلام من ربّهم عليهم، قال تعالى: {وَلِكلّ دَرَجَاتٌ ممّا عَمِلُوا وَمَا ربّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ}483. ولذلك فالعلو في الدرجات الحِسان رفعة مقام، وتميُّز عن الذين لم يتمكنوا بأعمالهم من بلوغ الرفعة الحسنة؛ فرفع الله بعض من الخلائف درجات ولم يرفع البعض الآخر بالأسباب، أي بما تُقدِّم الأيدي، ولذا فأسباب تحقّيق الرفعة لم تكن محجوبة عن العباد، أو مقصورة على فئة منهم، بل هي متاحة في دائرة الممكن لمن يعمل صالحا يرضاه الله؛ فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يرهُ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يرهُ وما ربّك بظلام للعبيد، ولهذا فالخليفة في الأرض هو الذي يعمل فيها صالحا، ويعمل على إصلاحها بإصلاحه لِما يفسده المفسدون فيها.

ولذلك؛ فالرافع هو المِمكِّن من إحداث النقلة، من مستويات دنيا إلى مستويات عُليا، والرافع هو الذي لا يَرفَع إلا بعد تقديرٍ لِما يُرفع، والذي لو حاول الإنسان القيام به لدرس الشيء المستهدف

---

[483] الأنعام 132.

بالرفع قبل أن يَقدِمَ على رفعه، ولكن لأنّ الرافع في هذه الآية الكريمة هو الله عزّ وجلّ، لذا فهو الرافع بقوة علمه لعلم الغيب وبأمره (كن).

ولأنّ وراء فعل الرفع هدف وغاية، لذا أظهر الله الهدف من الرفع وهو (ليبلوكم في ما آتاكم) وهذه الآية تعني ليمتحنكم فيما رزقكم به وما أعطاكم من نعم، فمن يُسر له البصر والسمع والعقل والفؤاد وما يملك من مُلك من مُلكه تعالى في طاعته وإجلّاله، يتفوق في ما يُبتلى به من امتحانٍ كما تفوَّق الرّسُل الكرم في كلّ ابتلاءاتهم وفازوا برضا الله وبالجنّة، ومن لم يطع الله ويشرك به أو يفسد في الأرض فيخسر المستوى الذي خلقه الله تعالى عليه وهو (أحسن التقويم) ويخفضه على كفة الميزان إلى أسفل السافلين كمقياس سالب في مواجهة مقياس أعلى العليين على الكفة الممّاثلة للميزان العدل.

فالإنسان بطبيعته خيِّر، ولكن بأساليب التربّية المتباينة تتباين حياته وتختلف ممّا يجعل البعض في حاجة لمن يُسهم في رفعهم من المستويات الدنيا إلى المستويات العليا، فالكافر على سبيل المثال هو في حاجة لمن يرتفع به من مستويات الكفر إلى مستويات الإيمان، وهذه رسالة على المؤمنين المستخلفين في الأرض، وليست رسالة على المفسدين فيها، والمشرك دائما هو في حاجة لمن يرتفع به من الشّرك إلى الوحدانية الإلهية، والجاهل في حاجة لمن يرفعه من جهله إلى النور ويظهره عليه، والمريض في حاجة لمن يرفعه من مرضه وعلته إلى الصحة والشفاء، والمظلوم في حاجة لمن يرتفع به إلى العدل حتى يتمكن من ممّارسة حقّوقه وأداء واجباته وحمْل مسؤولياته بإرادة وحرية، وهكذا كلّ إنسان في حاجة لبلوغ درجات الأبوّة والأمومة والأخوة والعمومة، التي ببلوغها تتحقّق الرفعة بالأبناء حتى يرثوا الأرض ويعملوا على

إصلاحها ولا يُفسدوا فيها، فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويعملون صالحا يرضاه الله تعالى.

ولذا؛ فإنّ عمليات الإصلاح تكون أوّل ما تكون للأسرة وبها من أجلّ مستقبل يُرسِّخ القيم والفضائل الإنسانية الخيرة، ومن يرد أن يكون خليفة الله في الأرض فعليه أن يعمل كلّ ما من شأنه أن يحقّق الرفعة والارتفاع بالمستوى القيمي الأخلاقي لبني الإنسان ذكورا وإناثا.

وعلى الخليفة أن يُميِّز بين الرفعة والارتفاع وبين الترفُّع على العباد، فالرفعة والارتفاع لا يتحقّقان على درجات الفضائل والسُلَّم القيمي إلا بالأعمال الحسنة، أما الترفُّع فهو تكبُّر في غير محله، وفي ذلك قال ابن المقفَّع: من تكبَّر على النّاس ذل، ومن أعجب برأيه ضل، وذلك لأن الكبرياء لله وحده، قال تعالى: {وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السّماوات وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}484، الكبرياء صفة من صفات الله التي عندما يقتدي بها الخليفة يجد نفسه متكبرا عن أفعال الرذيلة ومتكبرا عن الإفساد في الأرض وعن سفك الدماء فيها بغير حقّ، ومتكبرا عن ارتكاب المظالم والمحرمات ومتكبرا عن كلّ ما نهى الله تعالى عنه.

وعليه: فالتواضع رحمة، لا يتم نيله إلا برحمة من رحمن رحيم، فمن يريد بلوغه فليرتفع عن كلّ ما من شأنه ألا يُرضي الله تعالى ولا يُرضي من استخلفهم في الأرض، وأن يخاف مقام ربّه وينهى النفس عن الهوى مصداقا لقوله تعالى: {وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الجنّة هِيَ الْمَأْوَى}485.

---

[484] الجاثية 37.

[485] النازعات 40-41.

ومن يريد الرفعة وبلوغها فعليه بأسبابها، وأولها أن يرتفع بنفسه عن الطمع وظلم النّاس وأكل أموالهم بالباطل، ويرتفع عن الإقدام على الأعمال الدنيئة حتى يرفعه الله إليه مقاما محمودا، وآخر هذه الأسباب أن يستغفر الله ربّه من كلّ خطيئة أو ذنب ارتكبه ليتوب عليه ويفوز بالرّحمة التي تُعيده إلى الصعود على درجات الفضائل الخيِّرة والقيم الحميدة، وإذا بلغ هذه الغايات العظيمة يصبح السلام عليه رحمة من عند الرّحمن الرّحيم الذي سلَّم على سيدنا إلياس وصلّى وسلّم على سيدنا محمّد صلّى الله عليهما وسلّم وعلى جميع الأنبياء والرّسُل، والحمد لله ربّ العالمين.

4 . مُحسن:

المحسِن هو المدرِك للحقّ بالحقّ والفاعل له (هو كما هو) ممّا يجعله على حُسن الكلاّم وحُسن الفعل وحُسن العمل والسلوك، ومع ذلك فالحُسن وإن كان بعد غفلة وخطيئة؛ فهو المحقّق لغفران الذنوب والخطايا والموقظ من الغفلة.

ولأنّ الحُسن صفة حميدة لبني آدم فهو الذي يرفع من يتصف به إلى المقامات العظام كما رُفع سيدنا إل ياسين إلى أرفعها وهو الفوز برضا الله وسلامه عليه حتى وصفه بأنه المجازي بالإحسان مصداقا لقوله تعالى: {سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}[486]، فالمحسنين هم الذين أحسنوا ما فعلوا وعملوا في مرضاة الله.

ولذلك؛ فالإحسان لا يؤدّيه إلا مُدرك لحاله وأحوال الآخرين وأحوال ما يجب وما لا يجب فيكون على البيّنة التي بها يهدي

[486] الصافات 130، 131.

ويهتدي للتي هي أحسن لأجلّ أن يحسُن التصرف مع كلّ حالة وموقف وألا يعمم الأحكام على المواضيع والأفراد والجماعات فلكلّ خصوصية تستوجب التقدير والاعتبار والفهم والتفهُّمَ مع فائق الاحترام.

وعليه ألا يصدر أحكامه مباشرة على كلّ ما يسمع حتى يتبين فالأخبار التي تُنقل في كثير من الأحيان يشوبها التضليل والتشويش وترافقها النوايا غير الصافية.

والمحسن هو من يكون لطيفا في قوله وعمله وسلوكه، ولذا فالمصلح هو من يعلم دقائق المصالح وغوامضها وما دق منها وما لطف ثم يسلك في إيصالها إلى المستصلح سبيل الرفق دون العنف؛ فإذا اجتمع الرفق في الفعل واللطف في الإدراك تم معنى اللطف والإحسان ولا يعرف اللطف في الفعل إلا من عرف تفاصيل أفعاله وعرف دقائق الرفق فيها وبقدر اتساع المعرفة فيها تتسع دائرة الإحسان[487].

ولأن في اللطف إحسان جاء في مفهوم الإحسان الرفق والمودة مع فائق الجودة والحُسن والبرُّ، ومن يستمد صفة لطفه من اللطيف المطلق يكون على اللطف والحُسن أي يكون من المحسنين كما كان إل ياسين الذي جازاه الله الفوز على حُسنه وإحسانه بما كلّف به من رسالة من عنده تعالى (سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).

[487] المقصد الأسنى، ج 1، ص 101.

واللَّطِيفُ: صفَةٌ من صفات الله تَعالَى واسمٌ من أَسمائه ومَعْناه: البَرُّ بعباده المحْسُن إلى خَلْقه بإيصال المنافعِ إِلَيْهم برفْقٍ ولُطْفٍ، وفي ذلك يقول تاج العروس: "تَلاطَفُوا: تَواصَلُوا"488.

والأصل في اللطيف الحُسن والتدبُّر، ويكون اللطف حُسن العشرة، والمحسن هو الحليم لين البال والنفس وصافي النية وصادق القول والعمل، ولذا فالحليم في اللغة صفة للموصوف بالحلم، وصفة الحلم تعني الأناة ومعالجة الأمور بصبر وعلم وحكمة، وفي مقابلها العجلّة المفسدة لأمور الدين والدنيا، والحليم هو الذي يرغب في العفو ولا يسارع بالعقوبة، قال الله تعالى في وصف نبيّه إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم: {إِن إِبْرَاهِيمَ لأَوَّاهٌ حَلِيمٌ}489.

فالعبد الذي يستحقّ أن يكون خليفة لله تعالى لابدّ أن يكون حليما مع النّاس يعفو عن سيئاتهم، متسامحا مع غفلتهم، تاركا لهم حرية الإرادة فيما يأمر به لأجلّ أن يكونوا خلائف محسنين ومطيعين مصلحين غير ظالمين ولا مفسدين ولا سافكي دماء. قال تعالى: {خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ}490.

والأخذ بالعفو بالنسبة للحليم بالإضافة أن يعفو ويُحسن إلى الآخرين وأن يقتدي بالحليم المطلق في استمداد صفاته من صفات الله الحُسنى ليكون آمر بما أمر وناهي عمَّا نهى عنه.

ولأن إل ياسين من المحسنين فهو ودود لغيره بالإحسان في قوله وعمله وصفاء غرضه ونيَّته وودِّه، ولأنه المستمد صفاته من صفات

---

488 تاج العروس، ج 1، ص 6120.

489 التوبة 114.

490 الأعراف 199.

الودود جلّ جلّاله فهو يحب الخير لخلق الله؛ فيحسن إليهم ويثني عليهم ويأمل لهم كلّ خير ولا يرتضي مكروه إليهم"491.

وعليه: فلمحسن هو من حسنت أخلاقه وتحسنت بالقول الطيب والعمل الصالح والفعل الرصين والنية الصادقة ومن دلائل أفعال المحسنين الذين منهم إل ياسين الآتي:

ـ الإيمان التام بالواحد الأحد {سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ}492.

ـ التبشير بما أمر الله ليعم السلام بينهم رحمة كما عمَّ إل ياسين صلّى الله عليه وسلّم، (سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ).

ـ التعبد دون شرك مع الطاعة التامة لله تعالى.

ـ قول المعروف والمر بالتصدق والإصلاح بين النّاس، {لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النّاس وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا}493.

ـ الغفران لمن أذنب واستغفر أو اعتذر بحسن نية، {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النّاس وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ}494.

[491] المقصد الأسنى، ج 1، ص 122.

[492] الصافات 130 ـ 132.

[493] النساء 114.

[494] آل عمران 134، 135.

. التزكي ممّا أعطاه الله.

. ممّارسة الحقّوق في مرضاة الله.

. تأدية الواجبات تجاه والديه وأبنائه ومن لهم علاقة به وتجاه وطنه ودينه الذي ارتضاه في مرضاة الله تعالى.

. حمْل المسؤوليات الجسام تجاه من يجب أن يهتم بهم ويلتفت إليهم بالرعاية والعناية والذود عنهم دون ارتكاب لمظالم.

. العدل بين من يرتضوه حكما بينهم.

. العمل على إحقّاق الحقّ، {لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}495.

. أن يكون حَسن الإنفاق في سبيل الله، وأن يكون حَسن المعاملة، {وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}496.

. أن يكون عفو وصافح، {فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}497.

. الصبر على مع فائق التقوى والعطاء والإحسان دون أي كلّل ولا ملل، {وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}498، وقال تعالى: {إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ}499.

---

[495] المائدة 93.

[496] البقرة 195.

[497] المائدة 13.

[498] هود 115.

. مجاهدة النفس وفي سبيل الله {وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ}500.

. الود مع حُسن الخُلق: قال تعالى: {ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرّحيم الَّذِي أَحْسَنَ كلّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشكّرُونَ}501.

لقد خلق الخالق كلّ شيء بحسنه، وفضَّل الإنسان على ما خلق بحسنٍ من ماء مهين، والمهين هو المتماسك باللين التام، ومع أنّنا نحس بلين الماء كلّما حاولنا الإمساك به بين اليدين، إلا أنه إذا ما انحدر في الشلالات كان قوة بها تتولد الكهربّاء وإذا ما داهمتنا كانت القوّة التي لا نستطيع مقاومتها، ولذا فمن هذا الماء المبارك المهين نحن كنا ويكون الخلفاء من بعدنا وارثون.

وعليه: فمن لين الماء المهين كان الحُسن والود فينا فضيلة، ومن قوّته إذا ما انحدر من أعالي الشلالات نثور ونغضب لكرامة ولدين الله إذا ما تعرَّض لاعتداء الظالمين، ومن قوَّته كان العقل قوة ينير الدربّ ويصنع المستقبل وينقل الإيمان حتى يحقّق العزّة.

ولأنّ إل ياسين كان من المحسنين فهو الخليفة الذي خلقه الله في أحسن تقويم، قال تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ثُمَّ

---

499 يوسف 90.

500 العنكبوت 69.

501 السجدة، 6 ـ 9.

رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ إِلَّا الَّذِينَ آَمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ}[502].

ولذلك؛ فالمحسن هو الودود بإحقّاقه الحقّ: قال تعالى: {وَلَا تَلْبِسُوا الحق بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الحق وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآَتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ أَتَأْمُرُونَ النّاس بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُون}[503].

ولذلك؛ فإنّ إحقّاق الحقّ بين المستخلفين فيها عبادة وطاعة وحُسن إيمان، ممّا جعل المحسن مطيع لِما نهى الله عنه من تغليف الحقّ بالباطل ومنتهي عن كتم الشهادة لإيمانه بأحقّية قولها عند الحاجة، ولذا فالصلاة حقّ لا ينبغي الإغفال عنها وإيتاء الزكاة حقّ فلا ينبغي تأجيله أو تأخيره أو الامتناع عن إيتائه، قال تعالى: {قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلّونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الحقّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ}[504].

وعليه: فالمحسن هو الذي تملأه الرّحمة وطيب النفس مع جودة وإتقان لكلّ ما من شأنه أن يَقدِم عليه من أفعال وأعمال حسان؛ فهو المصبوغ بنواميس الفطرة التي خُلق عليها في أحسن تقويم، ولهذا على الفطرة أن تكون الأنواع والأجناس هي كما هي عليه خِلقة دون تدخل يؤدّي إلى التزوير والتقليل من أهمية الفطرة على المخلوق.

[502] التين 4 . 8.

[503] البقرة 42 . 46.

[504] الأنعام 57.

والفطرة هي ما تكون عليه الأنواع والأجناس طبيعة في الحركة والسكون والفعل ورد الفعل ودرجة التحمُّل والمستويات العقلية والإدراكية ومدى تناسب الجينات الوراثية والفضائل الدينية والقيم الأخلاقية مع الجنس ونوع مع وافر الطاعة لخالقها، ومن ضل من الإنس فله العذاب الشديد إلا من استغفر وتاب فهو التواب الرّحيم، قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}[505].

والفطرة طبيعة لا تبديل فيها وذلك لاستمرار النوع والجنس، ولذا فهي الأصل لكلّ أصل، وهي البدء الأول ومحور إظهار الشكّل والصورة والطبع الذي به تتميز الأشياء التي كانت على غير شيء إلى أن شاء لها الخالق أن تكون أشياء، ولهذا فإن دين الفطرة هو دين الطاعة التي جعلت إبراهيم حنيف {قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[506]، وقال تعالى: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ}[507].

وعليه: فالمحسن هو المكرَّم (سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).

والمحسن هو المتين الرصين الذي لا يضعف عن أداء واجباته وفروضه وأعماله المكلّف بها بل يقدم على أدائها على الحُسن الذي به يفوز بالسداد والتوفيق.

---

[505] الإسراء 44.

[506] البقرة 135.

[507] آل عمران 95.

ولأنّ إل ياسين من المحسنين فهو مجيد في أقواله وأفعاله، ولأنّه كذلك فهو المتصفة بالأفعال الحِسان، ولذا فالمجيد هو المحسن، وفي لسان العربّ المحيط، إذا قارَن شَرَفُ الذاتِ حُسْنَ الفِعال سمي مجيدا[508].

وبناء على ما تقدم: فإن الله لو لم يكن مجيدا ما كان جوادا بكلّ ما خلق، وما كان مستخلفا للإنسان الذي ميَّزه بأحسن التقويم، فالمجيد كريم بما ترك من أثر وبما أورث المخلوقين فيما ترك من أثر ظاهر وباطن، ولذا؛ فمنه العزّة وهو العزيز الحكيم. والخليفة هو من يكون مُحسنا ومجيدا في قوله وفعله وسلوكه وعمله، وفي تعبده وعلمه وطاعته.

ولذا فالمحسن هو من أحس عملا دون قسوة تكره الآخرين ولا تمييع يجعلهم ساخرين منه؛ فالحُسن في الأعمال دليل متانتها والتوفيق فيها وحسنها وجودتها وذلك بما يحقّق الوثوق فيها وفي أصحابها، ولهذا لو لم يكن إل ياسين متينا ما كان نبيا موصوفا بأنه من المحسنين الذين فازوا بمرضاة الله في الدارين، ولذا فالمتين هو الموثوق فيه الذي يتم الاعتماد عليه بالقوّة والقدرة والوحدانية دون أن يغفل أو يكلّ أو يمل من أن يفعل ما يريد متى ما أراد، ودون أن يكون المفعول على حساب آخر.

والمتين بالإضافة هو الخليفة في الأرض للمتين المطلق، فلا يخون ولا يرتد عن إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، متين في عبادته وفي نزاهته وفي رجاحة رأيه وتدبُّر أمره ومُتبيِّن له ومُتبيَّنَ به من اجلّ مستقبل أفضل.

---

[508] لسان العرب، ج 3، 395.

وعليه: فالخليفة هو القوي المتين بإيمانه وتوحيده لله وعدم إشراكه به وبحسن أقواله وأفعاله التي تصلح ولا تفسد ولا تسفك دماء في الأرض بغير حقّ.

والمحسن هو الذي في إحقّاق الحقّ لا يلين، وفي إزهاق الباطل لا يلين، وفي حفظه وهيمنته لا يلين، وهو الذي برحمته لا يكون صلبا، وبوده لا يكون صلبا، وبعزّته ومجده لا يكون صلبا، وبرزقه وإحسانه لا يكون صلبا، وهو الذي بحكمة يكون عدلا، وفي قسطاسه يكون عدلا، وفي مكياله يكون عدلا، وهو الذي يستمد حُسن أقواله وأفعاله وصفاته من الصفات الحسنى لله ربّ العالمين.

ولأنّ إلياس من المحسنين فهو من الحامدين الشاكرين الذين يحمدون الله حتى حمده الله بسلامه عليه (وسلام على إل ياسين) ووصفه بأنه من المحسنين (سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ).

5 . مؤمن:

المؤمن المطلق هو الله تعالى والمؤمن بالإضافة على مستويات منها:

المستوى الأول: إيمان الأنبياء والرّسُل وهم الذين آمنوا بالله وأمره ونهيه وآمنوا ببعضهم سواء إيمان السابقين أم إيمان اللاحقّين، فآدم إيمانه بالرّسُل من بعده إيمان سابق على وجودهم أنبياء ورُسُل على النبأ والبيّنة، وإيمان إل ياسين إيمان بسابق وإيمان بلاحقّ (إيمان بمن سبقوه وبمن سيأتي من بعده)، وإيمان محمّد إيمان بالسابقين دون تخصيص لأحدٍ منهم.

المستوى الثاني: إيمان المؤمنين الذين منهم من آمن بالله وأشرك معه الولد وروح القدس ولم يؤمن بالنبي الرّسول الخاتم، أمَّا المؤمنون الذين أسلموا لله ربّ العالمين مع محمّد فهم المؤمنون الذين يؤمنون بمحمّد وبكلّ من سبقه من أنبياء ورُسُل سواء أقصصهم الله أم لم يقصصهم فهم جميعهم يصلّى المؤمن ويسلِّم عليهم.

المستوى الثالث: الإيمان بما خلق من ملائكة وجن وإنس وطير وسمك ونبات وسماوات وأرضين وبعث وحِساب وثواب وعقاب وجنَّة ونار وبكلّ ما أمر الإيمان به في كتابه الحكيم الرسالة الخاتمة للناس كافة.

ولذا؛ فالمؤمن هو الواثق الذي لا حيّز للظن فيه، قال تعالى: (وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا) جعل الله تعالى الكعبة قِبلة للمسلمين يحجُّون إليها، ويحجُّون إليها تعني يبلغون فيها الأمن والسلام، وببلوغهم إياها يوثقون عهدهم طاعة وطواعية على الأيمان وهم آمنين، قال تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ}[509]. أي في مكانٍ أمين لا وجود للضرر ولا مكان للخوف فيه.

والإيمان خير، فالمؤمن هو الخيّر، ولذا فمن يُريد خيرا فعليه بالإيمان، ومن يريد شرا عفانا الله فليس له من غيره، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس قَدْ جَاءَكُمُ الرّسول بِالحقّ مِنْ ربّكُمْ فَآَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السّماوات وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا}[510] فقوله تعالى (فآمنوا خيرا لكم) دليل إثبات أن الإيمان هو الخير في ذاته ولهذا ارتبط بذات الله العلية، وفي مقابل ذلك ينفصل الشر عن ذاته ويرتبط بفاعله.

[509] الدخان 51.

[510] النساء 170.

ولذا فإنّ اسم المؤمن هو الأصل، وما يشتق منه تابع له، فالمؤمن بالإضافة مستمد من المؤمن الحقّ، وهو في هذه الحالة متماثل في اشتقاقه صفة مع اشتقاق صفة الأمانة والأمن والآمان من اسمه جلّ جلاله.

والآمان عهد على حقّ، ولذا فالحقّ هو الذي جعل عهد الله هو العروة الوثقى التي لا انفصام لها، قال تعالى: {أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآَمِنِينَ}511.

واسم المؤمن بالإضافة اسم تعبُّدي، بعد أن يتم التسليم بالله ورُسُله وكتبه وبكلّ ما أمر به ونهى عنه يصبح الإيمان فعل إضافة لفعل التسليم، ويصبح المؤمن في هذه الحالة هو الذي يملأه اليقين مصداقا لقوله تعالى: {وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ}512.

والأمن نقيض الخوف، فمتى ما حلَّ الأمن نُزِعَ الخوف، وهذا يعني أن الإيمان هو بيت الاستقرار والسكينة الذي به تطمئنَّ القلوب، وبما أنَّ الإيمان هو بيت السكينة والاطمئنان، إذا إذا أريد للأمن أن يستقر في القلوب فلا مفر من المؤمن الحقّ إلا المفر إليه وحده لا شريك له بيده الخير وهو على كلّ شيء قدير، وإن لم يتم ذلك بين النّاس لا يمكن للفتن أن تزول، ولا يمكن للحقّد والمكائد أن تزول، وبما أن الأمر كذلك فستظل الفتن والمكائد والصدامات والحروب إلى أن تتم العودة إليه بدلا من المفر منه مصداقا لقوله تعالى: {وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآَخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ كَيْفَ

511 القصص 31.

512 الحجرات 14.

يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرّسول حقّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}513.

وبما أنَّ الإيمان هو المستمد من اسم المؤمن جلّ جلّاله، وهو بيت السكينة والاطمئنان، إذا فمن آمَنَ بالمؤمن آمِنَ نفسه من الجوع والخوف مصداقا لقوله تعالى: {فَلْيَعْبُدُوا ربّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآَمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ}514. وعليه فمن أراد أن لا يكون من الخائفين فعليه بالإيمان. {الَّذِينَ آَمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}515.

وبما أنّه لا آمان إلا منه، إذا فالإيمان به هو الممكّن من الإيمان منه، ولذا فمن أراد أمانه فعليه الإيمان به واحدا أحدا لا شريك له. والإيمان في هذه الحالة هو عهد قطعي لا رجعة من بعده ممّا يستوجب اللجوء إليه دون غيره، حيث لا أحد غيره يطعم من الجوع ويأمن من الخوف. وإلا هل هناك من يضمن ذلك ويؤتمن جانبه إلى الأبد غيره؟

نقول:

الإجابة تكمن في قوله تعالى: {أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ أَوَ أَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ}516.

---

[513] الكهف 85، 86.

[514] قريش 3، 4.

[515] الرعد 28.

[516] الأعراف 97 . 100.

قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السّماوات وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}517.

والأمانة التي عرضها الله تعالى على السّماوات والأرض والجبال وأبين أن يحملنها وأشفق منها هي المسؤولية التي حمْلها الإنسان، والمسؤولية التزام بالطاعة وعدم المعصية، طاعة الله واحد أحد لا شريك له، ولذا فإن الأمانة عبء كبير ومن ورائها منافع أكبر فمن كان أمينا وحريصا عليها كانت له الخلافة، ومن لم يستطع فلن يكون خليفة على الأمانة.

ولثقل عبء الأمانة التي التزم الإنسان أمام ربّه تعالى بحمْلها لم يُوفِّق في حمْلها بالتمام، فكان التقصير من بعضه، وكان الشّرك من بعضه، وكان الظلم وقتل النفس التي حرَّم الله، وكان الفساد في الأرض، وكان أكلّ أموال النّاس بالباطل، وكان قول الزور متمشيا مع شهادة الزور، وكان الزنا مع المحرمات، والكثير من المعاصي وعدم الالتزام. وهذا لا يعني أن الكلّ على هذه الشاكلّة، بل هناك الأنبياء والرّسُل صلّى الله عليهم وسلّم، وهناك الصالحون رضي الله عنهم الذين يعملون على إصلاح ما يُفسده المخالفون، وهناك المجاهدون الطائعون، وهناك الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وهناك المتصدِّقون والمزكُّون والقائمون بأعمال الخير والإحسان، وهؤلاء هم الذين إذا أقسموا بالله لأبرَّهم، فالحمد لله ربّ العالمين. ولهذا كان الانقسام والخلاف بين الذين ثقلت موازينهم والذين موازينهم خفَّت،

517 الأحزاب 72.

{فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ نَارٌ حَامِيَةٌ}518.

وعليه: فكلّ من ثقلت موازينه ثقلت حسناته وكان من المرضي عنهم وكان من أصحاب الجنّة كما كان إل ياسين من المؤمنين المرضي عنهم؛ فهو الذي ثقلت موازينه رحمة حتى وصفه الله تعالى بأنه من عباده المؤمنين (سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ)، وبهذا الإيمان كان إل ياسين من المستخلفين في الأرض مصلح لا مفسد فيها.

ولأنّ الميزان هو أساس القسط، فكان الاستخلاف هو الأمانة التي بها ثقلت الموازين، قال تعالى: {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ}519.

تؤكد هذه الآية الكريمة على أن الاستخلاف في الأرض هو للذين أمنوا، ولهذا قال تعالى: (وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ) فالذين أمنوا منكم، لا تعني الذين لم يؤمنوا منكم، ولذا كان الاستثناء في استخلاف الأرض يخص الذين أمنوا، ولا يعمَّ الذين كفروا ولا يخصَّ الذين لم يعملوا الصالحات، ولذلك فالاستخلاف خاصية ترتبط بالمؤمن وبالذين يعملون الصالحات، والعمل الصالح بطبيعته عمل المؤمنين، فهؤلاء هم الذين أراد الله تعالى استخلافهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم (لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا

[518] القارعة 6. 10.

[519] النور 55.

اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ)، وعليه فكلّمة (منكم) تعني بعضكم وليس عمومكم، ولأن النّاس لم يؤمنوا بعد جميعا، فلن يكونوا بالعموم خلائف.

وحظ العبد من اسم ربّه (المؤمن جلّ جلّاله) أن يكون أمينا على نفسه وماله وأن يتخلق بالأمانة والصدق فالمؤمن لا يكذب ولا يسرق ولا يزنى ولا يرتكب شيء من الفواحش بل يتقي الله ربّه في كلّ شيء يقوله أو يفعله، ويهدي للتي هي أحسن، {وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ}520.

وبناء على ما تقدَّم: هناك علاقة قوية بين اسم المؤمن والفعل الإيماني، وذلك من حيث إنَّ اسم المؤمن هو المصدر للفعل الإيماني، أي لو لم يكن المؤمن ما كان للإيمان فعلُ، وبما أنَّ للإيمان فعل، إذا فمن يعمل على الأخذ به وتأكيده فهو المؤمن، وإلا هل يُعتقد أن يتم الأخذ بالفعل الإيماني من غير المؤمن؟ ولذلك من يتخذ من الصفة أفعالها يتصف بها.

وبما أنَّ الأمانة عبء، والعبء ثقل ليس هينا، ومن ورائه مسؤوليات جسام، فمن الذي يتطوع لحمْله؟

نقول:

الواثق هو الذي يتقدم متطوعا لحمْله، أمَّا غير الواثق فلا يتقدم، ولهذا عبء الأمانة لا يحمله إلا الواثقون، الذين هم يتصفون بالخلائف.

---

[520] الإسراء 53.

ولذا فالإيمان هو الوثوق والتصديق والتسليم. وفي هذا الأمر يقول الشيخ محمّد متولي الشعراوي: "من آمن بالله اعتقده حقّيقة، فآمن بوجوده وبصفاته التي وصف بها نفسه في كتابه، وعلى لسان نبيه عليه الصلاة وأتم التسليم"521.

6 . صالح:

الصالح هو متوافق النيَّة مع العمل حيث لا تناقض بين ما يقال وما يُفعل، وهو المعَد لأعمال الإصلاح كما كان إلياس مُعد للإصلاح مصداقا لقوله تعالى: {وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى وَإِلْيَاسَ كلّ مِنَ الصَّالِحِينَ}522.

والمصلِح هو المتقي لله والمقدِم على كلّ ما من شأنه أن يُصلح ما أفسده المفسدون، ولهذا بُعث إلياس رسولا صالحا لحمْل الأمانة التي أصطفي إليها رسول مُرسل وهي البيّنة التي تدعو قومه إلى توحيد الله واتباع الحقّ، {وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ ربّكُمْ وربّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}523.

والصالح هو الذي تتوفر فيه معطيات النفع والإصلاح لا معطيات الفساد فهو الذي يعدل إصلاحا ويدعو إلى الحقّ والخير والهداية وهو من الصالحين المبشرين بالجنّة بأسباب صلاحه وإصلاحه.

---

521 محمد متولي الشعراوي أسماء الله الحسنى. القاهرة، أخبار اليوم قطاع الثقافة، ص 159.

522 الأنعام 85.

523 الصافات 123 . 126.

قال تعالى: {ادْعُ إِلَى سَبِيلِ ربّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ ربّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ}524؛ فمن الذي يدعو إلى سبيل ربّه؟

هو الصالح الذي أعده الله على الهداية والطاعة والصلاح، ولهذا فهو يدعو بالتي هي أحسن لأجلّ أن يُحبب العباد في المعبود المطلق جلّ جلّاله، ولأنه الصالح فلا عمل له إلا الإصلاح ما استطاع إليه سبيلا، وهنا تكون الدعوة إلى اتباع طريق الحقّ الذي شرعه الله تعالى من أجلّ فائدة الخلق ومصالحهم ومنافعهم في الدنيا والآخرة، والذي لا يكون إلا باتباع أساليب الِلّين وبما يناسب كلّ خصوصية عرفية أم عرقية أم ذهنية، ولذلك تُراعى كلّ خصوصية حتى خصوصيات الأفراد من حيث القدرات والاستعدادات مع كلّ ترغيب وترهيب بغاية الاتقاء لا بغاية الضلال.

وكذلك يكون جدال أصحاب الملل والمعتقدات بالمنطق السليم والقول اللين، والمجادلة الحسنة التي لا يشوبها عنف ولا سِبَاب حتى يتمكَّن المصلح من إقناعهم واستمالتهم إلى ما يهدف إليه في مرضاة الله عزّ وجلّ، وهذه الطريق لدعوة النّاس إلى اللَّه على اختلاف ميولهم، فسلوك هذا الطريق هو الذي يؤدّي إلى منفعة ما أراده النافع جلّ شأنه، وبعد ذلك يكون أمرهم إلى الله تعالى الذي يعلم من غرق في الضلال منهم وابتعد عن طريق النجاة، ومن سلم طبعه فاهتدى وآمن بما جاء به الحقّن؛ فالذين اهتدوا وصلح أمرهم فقد نالوا من النفع حظا وافرا ونصيبا وافيا والذين ابتعدوا عن الحقّ والهداية وجب على الخليفة إعادتهم إلى الطاعة دون يأس ولا قنوط فالمؤمن لا يقنط

[524] النحل 125.

من رحمة الله، والمصلح هو الذي يعي أن الإنسان لا يصلح حاله إلا بأحد الأمرين:

. ترغيب في الثواب والمجازاة النافعة.

– ترهيب يؤدّي إلى تجنب العقاب الآتي لا محالة ولكن من يتقي الله يجد الله له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب ويغفر له ويتوب عليه.

ولأنّ النّاس لا يصلحون إلا على الثواب والعقاب، فمن باب الحكمة استخدام القوّة النافعة كلّما اقتضى الأمر في هذه المواقف، وهذا ما يلجأ إليه الخليفة بصفته نافع بالإضافة، قال تعالى: {يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ}[525] فالله تعالى يعطى صفة الحكمة من إصابة الحقّ في القول والعمل من يشاء من عباده، ومن أُعْطِيَ ذلك فقد نال خيرا كثيرا ونفعا كبيرا لأن به انتظام أمر الدنيا والآخرة، وما ينتفع بالعظة الحسنة والاعتبار والحكمة إلا ذوو العقول السليمة التي تدرك الحقّائق من غير طغيان الأهواء الفاسدة، ولا يتعظ بالعلم ويتأثر به إلا ذوو العقول السليمة والنفوس الطاهرة التي تدرك الحقّائق وتستخرج منها ما هو نافع في هذه الحياة، وهنا يتجلّى النافع سبحانه وتعالى في رحمته بالعباد أن آتى بعضهم هذه الحكمة ليكونوا خلفاء صالحين مصلحين في أرضه وشهودا على خلقه، لأنّ الله سبحانه وتعالى لا يريد بعباده إلا ما ينفعهم باسمه النافع، وإضافة إلى الحكمة التي لا يدركها كثير من الخلق، وعلمه المسبق بذلك فقد اختار من العباد قيّما على هذه الحكمة يعرف معناها ويدرك مغزاها ويؤدّي حقّاها ويسعى في نفعها

[525] البقرة 269.

ليوصلها إلى الذين هم بحاجة إليها وإلى نفعها في الدين والدنيا فكان الخليفة مكلّف بذلك لأنه هو النافع بالإضافة، وكذلك من المنافع التي يؤتيها النافع جلّ شأنه، هي حكمة مواعظ القرآن ومعاني آياته وتبيينها والتوفيق للعلم والعمل بها.

وبما أن العباد لا يصلح حالهم إلا بالتقوى، فقد أوكلّ الله الخليفة كونه نافعا بالإضافة في توجيه هذا النفع بما يعود على جميع أفراد المجتمع بالخير الوفير، وأول توجيه للخليفة النافع في هذا المجال يكون في توزيع ملكية الأرض، مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ قُلْ إِنَّمَا يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}526 فالأرض ليست ملكا خاصا لأفراد أو جموع معينة، ولا ملكا حكوميا لحكومة معينة أو مجموعة حكومات، الأرض لله تعالى، ولذا فهي ملك لكلّ مصلح، ولهذا فالخليفة مصلح لا يسمح بأن يستأثر عدد قليل من الأفراد بأكبر مساحة من الأرض على حساب حاجات الآخرين، وذلك كي لا ينقلب النفع ضررا، ولهذا يكون توجيه النفع من قبل الخليفة بالتوزيع العادل للأرض التي استخلفه الله فيها بشكّلّ يناسب إصلاح النّاس جميعا، ثم يوجه استخدام الملكية حسب حاجة المجتمع في زراعتها مراعيا سدّ الحاجة ومشبعاتها المتطورة والمتنوعة،

قال تعالى: {ثُمَّ إِنَّ ربّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ ربّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}527 فالذين عملوا السوء تحت تأثير طيش وغفلة عن تدبُّر العواقب، ثم تابوا من

[526] الأنبياء 105 . 108.

[527] النحل 119.

ذلك الذنب، وأصلحوا نفوسهم وأعمالهم، فإن ربّك يغفر لهم ذنوبهم، فالتوبة لا تكون إلا من بعد الانغماس في السيئات والزلات والغفلات، ولهذا فهي تأتي بعد الصحوة من الغفلة والالتفات إلى الطاعات والعبد إذا رجع عن السيئة وأصلح عمله أصلح الله شأنه، ولهذا ينال التائب نفع النافع من تأخير العقوبة في فسح المجال أمامه ومنحه فرصة العودة إلى الطاعة وطريق الهدى وسبيل الرشاد ليكون له الجزاء الأوفر جنات تجري من تحتها النهار، مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ}[528].

[528] الحج 14.

النبي
إلياس من السنّة

كان إلياس عليه السّلام نبيا ورسولا لبني إسرائيل بعد أن ظهرت فيهم عبادة الأصنام؛ فكان داعيا لعبادة الله واحد أحد لا شريك له، ولكنّ دعوته وجهت بالرّفض الشديد، وبخاصّة من ملكهم أجب. فدعا إلياس ربّه: "اللهم إنّ بني إسرائيل قد أبو إلا الكفر بك والعبادة لغيرك؛ فغيّر ما بهم من نعمتك؛ فأوحي الله إليه إنّا جعلنا أمر أرزاقهم بيدك فأنت الذي تأمر في ذلك؛ فقال إلياس: اللهم فأمسك عليهم المطر؛ فحبس عنهم ثلاث سنين، حتى هلكت الماشية والشجر، وجهد النّاس جهدا شديدا"529.

ويذكر ابن كثير أنّ رسالة النبي إلياس عليه السّلام كانت لأهل بعلبك غربّي دمشق وأنّه كان لهم صنم يعبدونه يسمي (بعلا) وقد ذكره القرآن الكريم على لسان إلياس حين قال لقومه: {أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ وَاللَّهَ ربّكُمْ وربّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}530.

عاش إلياس عليه السّلام في القرن التاسع قبل الميلاد في عهد ملك من ملوك بني إسرائيل الذي اتخذ معبودا من دون الله؛ وكان يراه مجيبا للدّعاء، ولكن لما تعرّض ابنه للمرض القاسي ودعاه شافيا لابنه؛ فلم يجبه، ثم انتظر ودعاه ثانية وثالثة ورابعة فلم يجب، من بعدها عرف أنّه لا يجيب.

---

[529] تفسير الطبري، جامع البيان ت شاكر، 21/، ص 98.

[530] الصافات 125، 126.

وكان المعبود الذي اتخذه الملك إله لبني إسرائيل هو ذلك الصّنم الذي جاءته به زوجته الفنيقية التي استمالت الملك (زوجها) ضعيف الشخصية إلى عبادة الأوثان.

ويذكر بعض المؤرخين أنّه عقب انتهاء ملك سليمان بن داود عليه السّلام عام 933 قبل الميلاد، انقسمت مملكة بني إسرائيل إلى قسمين:

الأوّل: يخضع لملك سلالة سليمان وأوّل ملوكهم رحبعام بن سليمان.

الثاني: يخضع لاحد أسباط افرايم بن يوسف الصديق، ومن هنا تشتت دولة بنى إسرائيل بعد سليمان عليه السّلام بسبب اختلاف ملوكهم وعظمائهم على السلطة وبسبب الكفر والضّلال الذي انتشر بين صفوفهم.

وجاء من كُتبهم: "إنّ إلياس عليه السّلام انتهى إلى الأردن ومعه صاحبه اليسع؛ فنزع إلياس عمامته وضربّ بها الأردن؛ فيبس له الماء وناول عمامته اليسع صاحبه؛ فلمّا رجع الآخر ضربّ بها الماء فيبس أيضا حتى مشى عليه راجعا"[531]

وقد حكي في سفر الملوك أنّ إلياس عليه السّلام نزل بامرأة أرملة في زمن قحط شديد حتى هلك النّاس. ومكثت السّماء لم تمطر ثلاث سنين؛ فقال لها: هل عندك من طعام؟ قالت: والله يا نبيّ الله، ما عندي إلاّ كفّ دقيق في قلة لنا. أردت أن أخبزه لطفل صغير. وقد أيقنَّا بالهلاك. فقال عليه السّلام: أحضريه ولا خوف عليك.

[531] تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، 1، ص 138.

فأحضرته بين يديه؛ فبارك عليه. فمكث عندها تأكلّ منه هي وأهلها وجيرانها حتى فرّج الله عن النّاس532.

وقال الإمام زين الدّين العراقي: "بتوحيد إلياس عليه السّلام بعثت الرّسُل كلّها، لأنّ الملل كلّها، وما جاءت به الرّسُل لم يختلفوا في التوحيد والإقرار به"533، وقد نزّه الله تعالى نفسه عن الشبه بقوله تعالى {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}534

وقيل أنّ اليهود قد نسوا عهد الله، ونصبوا الأوثان وعبدوها من دون الله، فبعث الله إليهم إلياس (عليه السّلام): نبيا وإنّما دانت الأنبياء من بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام يبعثون إليهم بتجديد ما نسوا من التوراة535.

وَأخرج ابْن عَسَاكِر عَن الْحسن رَضِي الله عَنهُ قَالَ: "إنّ إلْيَاس عَلَيْهِ السَّلَام مُوكل بالفيافي"536.

وإنّ الْخضر عَلَيْهِ السَّلَام "موكلّ بالجبال" وَقد أعطيا الْخلد فِي الدُّنْيَا إِلَى الصَّيْحَة الأولى وإنّهما يجْتَمعَانِ كلّ عَام بِالْمَوْسِمِ537.

وعَن ابْن عَبَّاس عَن النَّبِي صلّى الله عَلَيْهِ وسلّم قَالَ: "يلتقي الْخضر وإلياس كلّ عَام فِي الْمَوْسِم فيحلق كلّ وَاحِد مِنْهُمَا رَأس

532 تخجيل من حرف التوراة والإنجيل، 1، ص 470.

533 مصرع التصوف، تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي وتحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد، 1، ص 111.

534 الشورى 11.

535 تفسير الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 8، ص 158.

536 الدر المنثور في التفسير بالمأثور، 7، ص 118.

537 المصدر السابق، ص 118.

صَاحبه ويتفرّقان عَن هؤلئك الْكَلّمَات: (بِسم الله مَا شَاءَ الله لَا يَسُوق الْخَيْر إِلَّا الله)"538

دعوة إلياس توحيدا:

كانت دعوة إلياس، عليه السّلام، إلى اليهود، هي أن يصحّحوا ما هم عليه من انحراف عن عبادة الله وحده، بأن يقيموا وجوههم إليه كونه ربّ العالمين؛ فقوله: (أَتَدْعُونَ بَعْلًا!) إنكار عليهم أن يدعوا الله بعلا. والبعل هو الرّجل539، كما في قوله تعالى: {أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهذا بَعْلِي شَيْخا؟ إِنَّ هذا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ}540. وكذلك قوله تعالى: {وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخالِقِينَ اللَّهَ ربّكُمْ وربّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}541

أي أتدعون الله رجلا، وتلبسونه صفات الرّجال، وتتركون دعوته بالصّفات الحسان، إنّه أحسن الخالقين، وربّ العالمين؟

ولهذا فالنبي إلياس يدعوا إلى التوحيد الذي هو قيمة تسليميّة حيث لا مجال للمشاركة ولا للمثال ولا إمكانيّة للثنائية والجمعيّة، ولا إمكانية للمشاهدة للمطلق في قوله وفعله وهو الواحد الذي لا يتعدّد.

ولذا فالتوحيد قرار عن وعي بأنَّ الخالق واحد أحد، وهو لم يكن سبب ولا علّة ولا شيء، ذلك كونه خالق السّبب والعلّة والشيء، ومن بلغ معرفة أهميّة التوحيد يستطيع أن يعدّ ممّا لا يُعدّ، ويُحصي ممّا لا يُحصى، أي بإمكانه أن يعرف الكثير، ويتعلّم من أجلّ

538 الدر المنثور في التفسير بالمأثور، 5، ص 434.

539 التفسير القرآني للقرآن، 12، ص 1024.

540 هود 72.

541 الصّافات 125، 126.

معرفة المزيد؛ فهو بعد أنْ وحّد خالقه فتح على نفسه أبواب المعرفة الواسعة هيّ كما هيّ حقّائق تتعدّد.

إذن التوحيد نجاة من الضلال، وهداية إلى الحقّ، ولكن لا يمكن أن يكون التوحيد بيّنة ما لم يعمل العاقل بمدركاته العقلية فيحرّكها يمينا حتَّى يعرف أنَّه لا يمين غيره، ويحرّكها شمالا حتَّى يُدرك أنَّه لا شمال غيره، ويحركها علوّا حتَّى يدرك أنَّه لا علوّ غيره، ويحركها أسفلّ حتَّى يدرك أنَّه لا أسفل غيره، وعليه أن يُفكّر قبل أن يقّرر، من الذي جعل اليمين واحد، واليسار واحد، والعلوّ واحد، والسُفل واحد، أي هل الذي خلق هذه الآحاد واحد أم متعدّد؟

إذن التوحيد قيمة حميدة تخلّص عقل الإنسان من الشكّ والظن في غير محلّهما، أي هي التي تجعل العقل يشكّ ويظنّ، ولكن لأنَّه عقل خُلق على حُسن التقويم فلا ينبغي أن يشكّ أو يظن فيما لا شكّ ولا ظنّ فيه. أي يجب أن يشكّ ويظن في كلّ ما فيه شكّ أو ظنّ.

ولسائلٍ أن يسأل:

ولماذا الشكّ والظنُّ أصلا؟

نقول:

لأنَّه ليس كلّ ظاهر عاكسا لحقّيقة الكامن، أي ليس كلّ ما يقال يسلّم به حقّيقة؛ فالنّاس بين صادقٍ وكاذبٍ، ولهذا ليس هناك بدّا إلَّا الشكّ الذي ينقذ من السير في المتاهات الخطأ.

ولسائلٍ أن يسأل:

وبما أنَّ الأمر كذلك؛ فكيف لنا بالتوحيد بدون شكّ ولا ظنٌّ؟

نقول:

هل يمكن أن يكون شيئا مصنوعا من غير صانع سابقٍ عليه وجودا؟

إذا كانت الإجابة بنعم.

نقول متسائلا:

هل يمكن أن يكون الخلق ما لم يكن من ورائه خالق؟

إذا كانت الإجابة بنعم.

نقول:

إذن لابدّ أن يكون الخالق سابق على ما يُخلق.

ولذا بما أنّنا سلّمنا بوجود اليمين واحدا واليسار كذلك، وهكذا كان السفلي والعلوي، إذن سلّمنا بوجود خالقٍ لهما لا يتعدّد، ذلك لو كان يتعدّد لخُلق لنا أكثر من يمين وأكثر من شمال، أو أنّ الخالقين افتراضا اختلفوا فلم يكن هناك لا يمين ولا شمال، ولا غيرهما ممّا خلق الخالق السابق على ما خلق.

وعليه: التوحيد يمحو الشكّ والظنُّ من العقل في غير محلّهما اللذين ينبغي أن يحلّا أو يكونا فيهما.

ولذا فالتوحيد يمكّن العقل البشري من إدراك الحقّائق هي كما هي، ممّا يجعل الإنسان متطهّر من أفكار وأفعال التكبّر والتجبّر والضلال، بل يجعله على اليقين مستنيرا بعلم من علمه الواسع، الذي به يدرك الفارق بين المطلق والنسبي، ممّا يجعله باحثا إلى النهاية في كلّ ما هو نسبيّا، وهو يسترشد بما هو مطلق في هدايته للمعرفة الواعيّة.

وعليه فإنّ نبي الله إلياس يلفت عقول النّاس إلى توحيد الله (واحد أحد) مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[542].

نزلت هذه السورة الكريمة لتجيب عن سؤال الكفّار لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم، بعدما سألوه عن إلهه من يكون فنزلت هذه السورة المباركة على الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم، تأمره بقراءتها وقولها إجابة لمن قدّم السؤال: (من إلهك يا محمّد؟). رواه أحمد والترمذي عن أبي بن كعب[543].

ولهذا فالتوحيد هو رسالة جميع الرّسُل عليهم الصّلاة والسّلام، وأنّ الكافرين دائما يرتعدون من ذلك، ولذا كان سؤالهم عن الإله، وهذا لسان حالهم، حيث أنهم يؤمنون بالإلهة، التي هي من اختياراتهم كالشمس والقمر والنجوم والنّار، أو من أيديهم الصانعة لها كالأصنام، ولأنّ لسان حالهم وإيمانهم هو وجود الإله القريب لمشاهداتهم وحواسهم. لذا لم يرتق تفكيرهم إلى الله المجرّد من المشاهدة المادّية كما كانوا هم يعتقدون. فكانت الإجابة قل لهم يا محمّد أنّه (أنا الله) الذي لا مثيل له ممّا يعتقدون ويتوقعون أو لا يتوقعون.

وبما أنّه الواحد الذي لا يماثله شيء.

إذن الواحد الذي لا يماثله شيء لا يمكن أن يشتق من شيء.

والقاعدة تقول لا يشتق شيء من شيء إلا وهو على حالة من التماثل معه. ولذا من يقبل بأنّ اسم الله مشتق من اسم إله فعليه أن

---

[542] الإخلاص، 1 ـ 4.

[543] مواهب الجليل من تفسير البيضاوي. محمد أحمد كنعان، بيروت: دار العلم للملايين، الطبعة الأولى، 1984م، ص 826.

يقبل بالتماثل مع المشتق منه، وإذا قبل بذلك يجد نفسه على غير قاعدة.

ولأنّ الإله مخلوق (القمر والنجوم والشمس والنّار والأصنام وغيرها ممّا اتخذ آلهة من دون الله). ولأن الله هو الخالق. إذن كيف يؤمن الإنسان باشتقاق الخالق من المخلوق!!

ولذلك لا أحد يتماثل مع الله عزّ وجلّ، فالذي لم يكن له كفؤا أحد، لا يماثله أحد في الصورة ولا المضمون ولا الاسم. وعلينا أن نتبيّن الفرق بين الاسم والمسمى، فالاسم اسم الله، والمسمى الآخر (الإله مسمى)، و(أسماؤنا مسميات)، أما الله فلم يسمه أحد، حتى يقال عنه المسمى، فاسمه عزّ وجلّ في ذاته. {إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ}544. إذن بما أنه قال تعالى: (أنا الله) والله لا يماثله شيء في الصورة ولا المضمون ولا الاسم. إذن (لا إله إلا الله). إي لا إله من دونه (لا معبود من دونه) فلا وجود لمن يستحقّ العبادة غيره، فالذي سُمي بالإله يقول الله ليس هو أنا ولهذا قال تعالى: (لا إله إلا الله) أي لا إله غيري، وبالتالي من تعتقدون بأنه أنا فهو ليس كذلك (لا إله إلا الله) ولهذا نهى الله العباد عن اختيار آلهة من دونه، حيث لا وجود لمن تعتقدون بأنه إله غيري، فأنا الله. أما أولئك الذين اتخذتموهم من دوني فهم ليس أنا، وهذه تحمل في مضمونها حكم وجوبي لتركهم، ومن لم يترك هذا الأمر ويتخلى عنه سيكون مشركا، {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى}545 ولهذا لا يعد الإله من أسماء الله الحسنى، بل الإله مسمى من قبل البشر وبالتالي جاء الخطاب على لسان حال الذين أطلقوا هذا المسمى (المعبود) الذي يقبل التعدد. ولذلك فالله

---

[544] الشعراء، 9.

[545] طه، 8.

هو الواحد الأحد الذي تتعدد صفاته التي بها يُسمى وهو لا يتعدد. وهنا يتضح الفرق بين اسم الله وبين بقية أسمائه التي يتصف بها ويحقّ لنا أن نسميه بها ما يجعله المسمى بصفاته الحسنى.

أمّا الله تعالى فهو الاسم الأعظم المطلق الذي لا يقتصر على صفة أو خاصية واحدة، بل هو الذي تتعدد فيه الصفات التي يتضمنها ويحتويها في أسمائه الحسنى، والتي إن نعدها لا نحصيها، {وإن تَعُدّوا نعمة الله لا تُحصُوها}546 وهذا لا يعني أن نعمة الله غير محصية، بل تعني أن قدراتنا المحدودة لا تستطيع حصرها وعدها، مع أنّ الله أحصى كلّ شيء وعده عدًّ {إِنْ كلّ مَنْ فِي السّماوات وَالْأَرْضِ إِلَّا آَتِي الرّحمن عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا}547.

إذن بالنسبة لله كلّ شيء مسجلّ إحصاءً وتعدادا، أما بالنسبة لنا نحن بني الإنسان فغير قادرين على ذلك، وإلا هل هناك من يستطيع أن يحصوا ما تراه العين أو يُحسُّ به وما لا تراه العين ولا يُحسُّ به مع أنّه موجود من حولنا وعلى مقربّة منا، وكذلك يمتد إلى ما يبعد عنّا إلى مالا نهاية حيث قدراتنا القاصرة أمام مقدرته تعالى.

ينتفي التماثل مع الله في الفعل والاسم والمضمون والصورة، {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ}548. لا إله نفي، لاعتقاد ظني في إله يفيد ويضر، أو يقربّ من ويبعد عن، مع تأكيد على الوحدانية (هو الله). واستثناء الإله الذي ينسب إلى الذين ألهوه باختياراتهم أو لرغباتهم وحسب ظنونهم. ولذا فإن اسم الإله يرتبط بتأليه (تعلّق) من البشر لغير الله. أما اسم الله تعالى فلا يرتبط بالإله إلا لسبب تقريب

546 إبراهيم، 34.

547 مريم، 93 . 95.

548 الحشر، 22.

المعنى والدلالة للذين يظنون باعتقاداتهم في الآلهة حتى يتبين لهم المعنى المرشد إليه وهو الله.

إذن لا إله إلا الله، تعني أنَّ الإله ليس هو الله، وبما أنه ليس هو الله. إذن لا يُمكن أن يكون من اشتقاقاته، (ليس من اشتقاقات اسم الله). الإله مسمى بشري أطلقه البشر على ما يعبدون، أما اسم الجلّالة (الله) فمسمى ذاتي مصداقا لقوله تعالى في سورة الشعراء: (أنا الله) ولهذا اسمه غير مشتق، ولا يُشتق منه مسمى. فلو سلمنا بأنه بالإمكان أن يشتق منه مسمى نسلم أيضا في الوقت ذاته بالتعدد، وهذا أمر مستحيل حيث الله واحد لا يتعدد ولا شريك له.

ولذلك جاء اسم الله اسم علم ليدل على ذاته، ومجموع صفاته الحُسنى. وهذا ما يخالف ما ورد في بعض المشتقات اللغوية التي تسند اسمه تعالى إلى اشتقاق من (ألَه) التي تعني التحيّر في وعدم الاهتداء إلى، ويقال أنه مشتق من (الوله) وهو ذهاب العقل والحب الشديد، الذي قد يؤدّي إلى ذهاب العقل من التعقل. ويقال أنه مشتق من (لاه) ولهذا جاءت (أله وألوهة وألاهة) وهذه تدلّ على أن الإله هو المعبود بحقّ أو بباطل، كما ورد في كتاب القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى للسيد مجدي منصور الشورى549. ولذلك يتم الاتفاق في هذا الأمر مع ابن القيم رحمه الله تعالى قال: "زعم السهيلي وشيخه ابوبكر ابن العربيّ أن اسم الله غير مشتق؛ لان الاشتقاق يستلزم مادة يشتق منها، واسمه تعالى قديم والقديم لا مادة له، فيستحيل الاشتقاق ولا ريب أنه أريد بالاشتقاق هذا المعنى وأنه مستمد من أصل آخر فهو باطل، ولكن الذين قالوا بالاشتقاق لم يريدوا هذا المعنى ولا ألمَّ

549 مجدي منصور الشورى، القول الأسنى في شرح أسماء الله الحسنى. القاهرة: مكتبة العلم، 1999م، ص 29.

بقلوبهم، وإنما أرادوا أنه دال على صفة له تعالى وهي الإلهية كسائر أسمائه الحسنى، كالعليم والقدير والغفور والرّحيم والسميع والبصير وبقية صفاته الحسنى"[550]. ولأن الإله تؤلهه اختيارات بشر، لذا يرتبط الإله بالبشر لأنه منهم، أما الله تعالى فلم يؤلهه أحد، بل ألهى ذاته، حيث (ليس كمثله شيء). وبما أن ليس كمثله شيء. إذن لماذا المقارنات والاشتقاقات من آخرٍ لا يساويه في شيء؟ وهل الله في حاجة لأن يُعرِّف بغيره؟ الذي يُعرّف بغيره يمكن أن يكون نكرة، والله تعالى لم يكن ولن يكون نكره. ولهذا يُعرّف الله جلّ جلاّله بذاته العلية. وهو ليس بناقص حتى يُعرَّف بآخر ليستدل عليه. ولهذا فالله تعالى يُستدل به لا يُستدل عليه بآخر.

وعليه فإن قوله تعالى (لا إله إلا ألله) تنفي الألوهية عن غير الله وتثبتها لله وحده دون غيره. ولأن الإله ما دون الله عزّ وجلّ، حيث لم يبلغ الكمال كما هو الله تعالى، لذا فإن الآلهة التي هي من دون الله صفتها القصور، أما الله تعالى فصفته الكمال، ولهذا فإن الإله هو الدون (الأقل)، والله هو (الأعلى)، {وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا}[551] ولأننا نعلم أن العزّة لله فكان من الواجب علينا أن نقول لا عزة لآلهة من دون الله ولهذا يقول تعالى: {فإن العزّة لله}[552]. إذن الكفار الذين يعتقدون في أن العزّة للآلهة كان اعتقادهم في غير محله. حيث محل العزّة لله جلّ وعلا.

ولأنّ للزمان حُجّة، فلا ينبغي أن نغفل عن تقديمها، في التساؤل التالي:

---

[550] المرجع السابق، ص 30.

[551] مريم، 81.

[552] النساء 139.

هل الله سابق على المسمى أم المسمى سابق على وجود الله تعالى؟

بالنسبة لله فالزمن مخلوق منه، أما بالنسبة للإله فهو المخلوق في الزمن.

بما أنّ الله هو الأوّل والآخر وهو الخالق لكلّ شيء، إذن كلّ المخلوقات هي بفعل الفاعل وهو الله الخالق تعالى.

وبما أنها من فعله أو بفعله عزّ وجلّ، إذن بطبيعة الحال يترتب وجودها على وجوده تعالى.

ولهذا فالمسمى الإله هو مسمى بشري. أمّا اسم الله تعالى فلم يكن مسمى بشري ولا من بقية المخلوقات. وذلك وفقا للقاعدة التي تنص أن وراء كلّ مخلوق خالق. ولأن الآلهة اختلقها البشر ليعبدوها من دون الله، لذا فهي لم تكن بخالقة، والفرق كبير بين خالق عظيم وبين مخلوق يفتقر للعظمة، {والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئا وهم يُخلقون}553. العابد مخلوق من عند الله والمخلوق (البشر) الذي بعضه يعبد بعض من المخلوقات التي هي الأخرى من عند الله، ويعبد البعض الآخر منهم ما خلقوا بأيديهم (كالأصنام التي يصنعونها بأيديهم).

وعليه يقول تعالى: {مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ}554. في هذه الآية الكريمة النص صريح على أنّ أسماء الآلهة التي اتخذها بعض البشر للعبادة هي التي سُميت من قِبلهم وليس هي التي تستوجب العبادة، فالذي

553 النحل، 20.

554 يوسف، 40.

يستوجب العبادة الذي خلق كلّ شيء بما فيها ما اختاره البعض إلها له.

الذين اتخذوا آلهة لهم من دون الله هم الذين يعتقدون أنّها ستقربّهم إلى الله زلفى، {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِبّونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفي}555. فالنّاس تبحث عن المنزلة الرفيعة وهم يعتقدون أن ما يعبدون من دون الله هو القادر على تقريبهم من هذه المنزلة، في حين لو أنهم تساءلوا: آلا يكون من صنعناه بأيدينا هو تحت سيطرتنا، وأن ما يظهر ويغيب أو يشرق ويغربّ، هو الآخر تحت سيطرة غير سيطرتنا؟ وبما أنّه غير مسيطر على ثباته ووجوده آلا يكون تحت سيطرة من هو أكثر منه ومنا مقدرة وقوّة؟ ومن يا ترى هذا الذي يتحكم في أمرنا وأمرهم؟ آلا يكون هو الأولى بالعبادة؟

لو تساءل الإنسان، لوجد الإجابة، أو كانت له الإجابة مباشرة بلا وسطاء يتخذهم ليقربّوه لله زلفى. إنه الله جلّ جلّاله الذي جعل في الأرض خليفة، خلقها فسواها فعدلها في إي صورة ما شاء ركبها، إنه الإنسان الواعي المؤمن بخالقه تعالى. ولأنه الله الذي لا شريك له في الملك كان له الخليفة، ولهذا ليس من باب المقارنة ولكن للتوضيح فقط، يتضح أمر من يخلق ومن يُخلَق، فالمخلوق سيضل هو المخلوق إلى النهاية، ولن يستطيع أن يترك له خليفة، فالقمر لم ولن يترك له خليفة، والشمس هي الأخرى لم ولن تترك لها خليفة، والأصنام التي اتخذها البعض من الكافرين آلهة لهم لم ولن تترك من بعدها خليفة. وهكذا الإنسان لم ولن يترك له خليفة من أمره، بل الإنسان يخلف بعضه البعض كغيره من الكائنات الأخرى بأمر التكاثر الذي صدره الله لخلقه.

---

555 الزمر، 3.

وعليه: من يستطيع أن يترك خليفة، فهو أحقّ بالعبادة، ولهذا الإنسان الذي ميزه الله بأحسن تقويم هو المؤهل قبل غيره بالإيمان والعبادة لله تعالى. {وإذ قال ربّك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون}[556]. هنا يقصد آدم وجنسه حيث اعلم الله تعالى الملائكة بالقرار (إني جاعل في الأرض خليفة) أي قُضى الأمر في هذه القضية وهو استخلاف آدم وجنسه لعمارة هذا الكون، حتى ترتب عليها أمر آخر في قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ}[557]. وطاعة لأمر الله عزّ وجلّ سجد الملائكة لآدم لا لعبادته ولكن لعبادة الله الذي أصدر لهم أمر السجود، ولذا فكان سجودهم طاعة لله تعالى، وكانت المعصية ممن لم يطع الأمر وهو إبليس أعوذ بالله منه.

إنَّ سجود الملائكة لآدم يوم أن استخلفه الله تعالى على إدارة الشؤون الإنسانية في الكون يُعد التقدير الأوفر لمن خُلق في أحسن تقويم. إنه اليوم الذي تحدد فيه من يكون الخليفة على الكون، ولذلك لما أنبأهم آدم بأسمائهم وعلمهم ما لم يعلموا، أمرهم الله تعالى بالسجود لآدم اعترافا به، وتقديرا له، واعتذارا عما قالوه فيه.

وقد يتساءل البعض: هل آدم وجنسه هم خلفاء الله على الكون؟

بالتأكيد لا، الله واحد أحد لا يخلفه أحد.

[556] البقرة، 30.

[557] البقرة، 34.

إذن آدم وجنسه خليفة من؟

آدم وجنسه استخلفهم الله في الكون، أي تركهم يُنظمون شؤون حياتهم فيه، ولم يتركهم ليحلوا محله، فهذا الأمر استغفر الله ليس من مهام الخلافة التي كلّفهم بها الله تعالى.

ولهذا لا يمكن أن يخلف الله أحد في ذاته، بل الله استخلفهم أحد، في تنظيم حياتهم وعلاقاتهم الاجتماعية والإنسانية.

ولأنّ الله حي قيوم إذن لا محل في أن يحل المستخلف محل من كلّفه بالاستخلاف. فالإنسان يمكن أن يكلّف أحد من بني جنسه في استخلافه، أن يحل محله في غيابه، ولكن الحي القيوم {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ}[558] لن يغيب حتى يخلفه أحد، ولكنه صاحب القوّة وعلام الغيوب قد استخلف آدم عليه الصّلاة والسّلام وأنبأه بما لم تعلم الملائكة حتى كانت المعجزة التي انتهت بالسجود لآدم عرفانا به وبما قدّره الله تعالى له من أسرار.

ولذا جاءت في لسان العربّ المحيط كلّمة "خلائف في الأرض بمعنى يخلف بعضكم بعضا"[559]، حيث ينتهي السابقون ويأتي من بعدهم اللاحقون. "فالخَلَفُ كلّ من يجيء بعد من مضى"[560]. ومن هنا يتضح الفرق بين الخَلَفُ وبين الاستخلاف، فالخلف يتعاقب من ورأى بعضه البعض، أما الاستخلاف هو تمكين من يود أن يكون خليفة في مهمته التي تناط به حتى يؤدّيها.

---

[558] البقرة، 255.

[559] لسان العرب المحيط، العلامة ابن منظور. بيروت: دار لسان العرب، المجلد الأول، ص 883.

[560] المصدر السابق، ص 884.

وفي حديث أبن عباس "أن أعرابيا سأل أبا بكر، رضي الله عنه، فقال له: أنت خليفة رسول الله، صلّى الله عليه وسلّم، فقال: لا، قال: فما أنتَ؟ قال: أنا الخليفة بعده"561.

ماذا تعني إجابة سيدنا أبا بكر رضي الله عنه؟

تعني أنه لا يمكن أن يخلف أحد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فالرّسول لا يخلفه إلا رسول، وهكذا خلف عيسى موسى عليهما الصّلاة والسّلام، وهكذا خلفهما سيدنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم. الرّسول لا يخلفه إلا رسول، ولهذا كان محمّد صلّى الله عليه وسلّم خاتم الأنبياء والمرسلين. {مَا كَانَ محمّد أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ}562. إذن لا نبي من بعده، ولهذا لا يمكن أن يحل محله أحد. ولكن بطبيعة الحال سيخلفه من بعده من يؤمن برسالة محمّد عليه الصّلاة والسّلام. ليقوم بدوره تجاهها ولكنه لا يمكن أن يقوم بدور رسول الله صلّى الله عليه وسلّم. فالرّسول يصطفيه الله تعالى، وتكون له رسالة من عند الله تعالى، وله تكلّيف في حدود المستهدف بالرسالة، خاصة كانت أم عامة (للناس كافة) كما هي رسالة خاتم النبيين عليهم جميعا الصّلاة والسّلام. وفي مقابل ذلك الخلفاء من بعد رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، لم يصطفيهم الله تعالى، ولم تكن لهم رسالة، وليس لهم تكلّيف من السّماء. ولهذا لا يخلف الرّسول إلا رسول من عند الله. وما أمر صحابة رسول الله رضوان الله عليهم إلا أمر صحبة على كلّمة سواء (لا إله إلا الله محمّدا رسول الله). ولذا خلف الصحابة بعضهم بعضا ولم يخلف أحد منهم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

561 المصدر السابق، ص 885.

562 الأحزاب، 33.

ولهذا فالخلافة توالي عبر الزمان والمكان مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ}563 وقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ}564. هنا جاءت الخلافة عامة للمؤمن وغير المؤمن، أما في الآية {وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا}565. هنا الوعد مقصور على الذين امنوا وفي هذه الآية يوجّه الكلّام للرسول صلّى الله عليه وسلّم، والذين امنوا، ليجعلنهم خلفاء متصرفين في شؤون الحياة البشرية بما أمر الله تعالى، أي أن الرسالة سيبلغ مداها إلى أن تعمّ المعمورة، لتكون عليها الخلافة الإلهية، وأعني ما يريده الله أن يكون على الأرض، فسيكون على أيدي المؤمنين به الطائعين لأمره، وفي هذا استثناء من الخلافة، حيث استثنى الله غير المؤمنين من الخلافة بقوله {وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض} قال: (الذين أمنوا منكم وعملوا الصالحات) وهذا يدل على أمور ثلاثة:

الأول: استثناء غير المؤمنين من الاستخلاف.

ثانيا: تعميم الاستخلاف للمؤمنين منهم.

ثالثا: تخصيص الذين أمنوا وعملوا الصالحات منهم، وهنا يتضح التميّز بين من آمن ولم يعمل عملا صالحا، وبين من آمن وعمل عملا صالحا.

---

563 الأعراف، 69.

564 الأعراف، 74.

565 النور، 55.

ولهذا سيُبدّل الله تعالى خوف المؤمنين من الأعداء أمنا، وبما أن هذا الأمر وعدُ من الذي وعده الحقّ، وهو لا يخلف وعده. إذن فاليُرمى الخوف في غيابات الجب ولنعمل صالحا حتى نكون من المستخلفين في الأرض.

ومن الآية السابقة يتضح أمر الخليفة بأنه ليس الإنسان المطلق، بل الإنسان المؤمن الذي يعمل صالحا. وهذا لا ينفي الوجود والعيش على الأرض للكلّ دون استثناء بل يعني أنّ مستقبل الأرض سيكون بين أيدي آمنة، وليس بين أيدي عابثة، ولهذا لا إكراه في الدين، بل في الدين الحُجَّة التي تحمل في مضامينها الحقّيقة التي تتطلب مؤمنين بها حتى يتمكنوا من تسويقها بقواعد ما يجب، دون إكراه للآخرين. ولذا فإنّ أمر الخلافة يتعلق بصناعة المستقبل. وهذا المستقبل لن يتحقّق إلا بما يتركه الإنسان من أثر طيب في القول والفعل والسلوك. فعندما استخلف موسى أخاه هارون عليهما الصّلاة والسّلام عندما استخلفه في قومه لم يكن موسى صلّى الله عيه وسلّم قد أنهى رسالته، بل لأنه سيكون في مهمة إلهية، والإلهية هنا لا تعني الاشتقاق من إله بل مدد من عند الله، أي انتساب المهمة الموسوية إلى الله تعالى. ولهذا فإن الإلهية صفة من صفات الله تعالى، والإِلهية نسبة إلى إله.

ولأنّ قول الله حقّ، لذا لا يمكن أن يكون إلها، فالآلهة التي اتخذوها لتقربهم لله زلفى، هي غير قادرة على القول، حقّا أو حتى باطلا. ولهذا فهي قاصرة عن القول، ولأنها كذلك: أيكون اتخذها آلهة مناسبا للعبادة أو حتى للتقريب زلفى؟

ولو سلمنا بأنّ اسم الله تعالى هو اسم الإله، فلنسلم أيضا بأن اسمه يُجمع. ولأنّه لم يكن كذلك فيجمع اسم الإله على آلهة، ويبقى

وجه ربّك ذو الجلّال والإكرام هو الله. ولهذا في الجمع التعدد، وفي اسم الله تعالى الوحدانية.

في عقول الخلق الذين يسبِّحون بحمد الله وشكّره، لا وجود في أذهانهم لآلهة، بل الوجود لله تعالى، وهذا يدل على انتزاع الظنون الباطلة من عقولهم، وامتلائها باليقين. ولهذا كان للطير منطقا وكان للنملة لغة لتسبح جميعها بسم لله تعالى دون أن تتخذ آلهة من دونه. وهنا يحدث الاستغراب، طائر ونملة ومخلوقات متعددة لم تصل إلى الرقي الذي عليه خلق الإنسان، لم تتخذ آلهة من دونه، ويتخذ البعض من بني الإنسان ما دون ذلك من دون الله تعالى! لقد اتخذها الإنسان أنه كان عجولا {وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا}[566]. ولهذا جاءت السور القرآنية التي تتضمن في آياتها العظام، ألا يكون الإنسان عجولا. قال تعالى: {فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ}[567]. فاللين في هذه الآية الكريمة لا يتم إلا بمقدرة على الاستيعاب فحيث من يخالفك أو يعصيك أمرا قد يجعلك في حالة عدم توازن وقد يؤدّي بك إلى اتخاذ مواقف استعجاليه ممّا يجعلك على أخطاء لا يحمد عقباها، ولهذا الاستعجال يُضيع الصوابَ. ومع أنّ المشورة تحتاج إلى وقت أطول إلا أنها تؤدّي إلى قرار أصوب، ولهذا لا داعي لأن تكون أيها الإنسان عجولا. وإن قبلت بذلك فأنت لن تكون خليفة في الأرض، التي في حاجة لمن يَعمُرها، وليس في حاجة لمن يسفك فيها الدماء ويهلكها. ونحن المؤمنون جميعا نحمد الله تعالى على نعمه التي أنعم بها علينا حتى

[566] الإسراء، 11.
[567] الشورى، 159.

لا نُسهِم في إهلاك الأرض وهتك العرض وسفك الدماء بغير حقّ. ونحن بالمشاورة نكون خير خليفة، وبدونها لن نتمكن من بلوغ الخليفة. ولهذا أكد الله في قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}[568]. أكد في مجمل هاتين الآيتين وما سبقهما وما لحقّهما من آيات عظام في سورة الشورى على الامتناع والابتعاد عن ارتكاب السلوكيات والأفعال الناقصة ما ظهر منها وما بطن، والإقدام على كلّ ما من شأنه أن يرضي الله تعالى، لأجلّ أن يصبح الإنسان خليفة منه تعالى على الأرض.

ومع أنّ أمر الخليفة قد صدر من الله عزّ وجلّ للمؤمنين الذين يعملوا الصالحات، إلا أنّه من باب التقدير للخليفة أن يكون قد أدرك هذه المسؤولية حتى يَقدِمَ على حملها بإرادة. ولذلك لما يدخل الإيمان في القلوب تتم سيطرة الإنسان على الأرض ويُتوج عليها خليفة. {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ}[569]. هذه الآية الكريمة نزلت في نفر من بني أسد، الذين قدموا إلى المدينة في سنة جذبة وأظهروا الشهادتين، ولم يكونوا بمؤمنين فقد أعلنوا إسلامهم لغاية في أنفسهم وهي الحصول على الصدقات، ولأنهم لم يؤمنوا بثقة ورسوخ، لذا فهؤلاء ومن هم على شاكلّتهم يعدوا مسلمين حيث نطقهم وقولهم بالشهادتين دون الإقدام على أداء بقية الواجبات وخاصة مجاهدة النفس في سبيل الله

[568] الشورى، 37 . 38.

[569] الحجرات، 14.

عزّ وجلّ. (ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) وحتى يأتي الوقت الذي يدخل فيه الإيمان قلوب المسلمين حينها يكون الاستخلاف سيد الموقف، وحينها يعرف المسلمون أنفسهم بأنهم على الحقّ مؤمنون.

ولأنّ القضية الأساسية في الدين تكمن في قوله تعالى: {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرّحمن الرّحيم}570، لذا جاء نفي أن يكون أو يتخذ من غير الله إلها، ولهذا فكلّمة إلهكم تعود على الله تعالى، حيث (إلهكم) جاءت مطلقة، ولأنه لا مطلق إلا الله أو ما يأتي منه تعالى، لذا تعود (إلهكم) عليه دون غيره، حيث لا وجود لمطلق سواه. ولهذا يقول الشيخ الشعراوي رحمه الله في تفسيره لهذه الآية الكريمة {وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ} "إن الله لا ينفي ويقول (لا إله إلا هُوَ) إلا حين توجد غفلة تعطي الألوهية لغير الله ولشركاء معه، إن القرآن ينفي ذلك ويقول (لا إله إلا هُوَ الرّحمن الرّحيم) وليس هناك شيء غير الله إلا نعمة منه سبحانه أو منعم عليه"571 وفي هذه الآية الكريمة خاطب الله تعالى من يتخذوا آلهة غيره أو يفكروا أن يتخذوها باللغة المعرفية التي سادت بينهم، اللغة التي تعترف بوجود الآلهة من دونه، وحتى يبدأ معهم من حيث هم خاطبهم بإلهكم، لعلهم يفطنوا من غفلتهم ويتساءلوا: ما هذا الأمر؟ ألا ما نحن عليه ليس بآلهة؟ أم أن في القضية أمر يتطلب التعرُّف عليه؟ ولهذا بدأ الله معهم من حيث هم لغرض أن ينقلهم إلى ما يجب أن يكونوا عليه.

وعليه يتضح الفرق بين من تؤلهه العباد، وبين الذي تألهه العباد. فالتأله يدل على عشق وتعلق المخلوق بالخالق، والتأليه يدل على من

---

[570] البقرة، 163.

[571] تفسير الشعراوي، القاهرة: أخبار اليوم، المجلد الثاني، ص 682.

يوضع في مكانا أكبر منه، أو ينظر إليه كذلك وهو عن غير حقّ. حيث تأليه البعض لبعض الحكام وكأنهم لم يكونوا من العباد. وهؤلاء كمثل من جعل له النّار إلها أو أختار له القمر أو الشمس إلها، هذه تدل على التأليه، أما التعلق بالله تعالى فهو تأله أي تعلق متين بالواحد الأحد. وفي هذا الأمر يقول ابن تيمية "أنّ الله هو من تألهه العباد حبا وذلا وخوفا ورجاء وتعظيما وطاعة له، وهو الذي تألهه القلوب"572.

فالله سبحانه هو الاسم الأعظم الذي سمى به نفسه حين قال تعالى: {إِنِّي أَنَا اللَّهُ}573. في هذه الآية الكريمة تحديد قاطع بأن المسميات التي خاطب بها العباد لتتخلوا عمن هم دونه من آلهة ليس هي بأسمائه، ولهذا اسم الله لا يتعدد برغم تعدد صفاته التي بها يوصف أو يسمى.

فالله اسم مطلق للبقاء، وما دونه أسماء فانية، لا يكتب لها البقاء، {كلّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهُ ربّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ}574. ولأن الأسماء والأجسام التي لا تبقى لا تليق أن تكون معبودات جاء قوله تعالى: {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا ربِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا ربِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي ربِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا ربِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}575. ولأن كلّ ما نشاهده بأعيننا

572 منهج الإمام ابن قيم الجوزية، في شرح أسماء الله الحسنى. الرياض: دار ابن الجوزي، الطبعة الأولى، 2005، ص 268.

573 القصص، 30.

574 الرحمن، 27.

575 الأنعام، 76 ـ 78.

ليس له صفة البقاء والاستمرارية وله صفة التبدل، لذا جميعها لا تليق بأن يتم اختيارها آلهة، ولذا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام لم يقبل بأن تكون النجوم أو القمر أو الشمس آلهة تستحقّ العبادة حيث فقدانها لصفة الديمومة والبقاء بدون تبدل. ولأنّه لا بقاء إلا لله تعالى، لذا فلم يكن مثله شيء، ولهذا فهو الذي يستحقّ العبادة.

وقد يتساءل البعض: لِماذا جعل الله على الأرض خليفة؟

ليُريهم آياته في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم الحقّ من الباطل، ويكونوا الخليفة التي يُطمئن لها وتُصلح الأرض ولا تفسد فيها وتسفك الدماء، وتعلم أن الحقّ من عند الله تعالى فتزداد تعبدا له دون غيره. {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الحقّ}576 ولهذا يُريهم الله من فضله ونعمه عليهم بداية من أنفسهم وما خُلقوا عليه وما يحيطهم عن القربّ والبعد حتى السّماء، ولهذا من حقّ الخليفة أن يبحث وينهل من العلم في الأرض وفي الآفاق حتى يزداد يقينا بنعمه وفضله الواسع. ولذا يقول تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ}577. إذن جعل الله الخلائف على الأرض لينظر كيف يعملون، هل سيعملون خيرا أم سيعملون شرا، بعد أن بين لهم كلّ شيء تفصيلا. فهل سيكونون على واحديته وطاعته، أم أنهم سيكونون على معصية وكفر. ولأن الخلائف تتوالى عبر الزمن حيث سابقون ولاحقّون، حتى كانت آخر الخلائف بعد القرون التي هلكت. والتي فيها يقول القرطبي في

---

[576] فصلت، 53.

[577] يونس، 14.

كتابه الجامع لأحكام القرآن "كلّ من جاء من بعد من مضى فهو خليفة، أي جعلكم خلفا للأمم الماضية والقرون السالفة"578.

وبناء على تفسير السيد القرطبي، إذن لا خليفة إلا وسابق عليها. وفي هذا الشأن قد يكون استخلاف الإنسان على الأرض على أنقاض السابقين له، {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا}579 هذه الآية دليل إثبات على أنّ أناس كانوا من قبل، وقد انتهوا، وجيء بخلق من بعدهم، وأولئك كانوا على حضارة راقية في البناء والأعمار حتى وُصِفوا بأنهم أكثر قوة من الذين خلفوهم.

ولأنّه الله الذي لم يشتق اسمه وفعله وصفاته من أحد، جعل في الأرض خليفة، ولأن الآخر إله فلم ولن يستطيع أن يترك له خليفة. فالشمس هي الشمس على ما خُلقت أو فُطرت عليه، فمن يتخذها إلها فليتخذها، ولكن لن تترك له خليفة. وذلك لأنها غير قادرة على ذلك، فالقادر وحده الله تعالى. وهكذا حال أي إلهٍ يمكن أن يُتخذ كما سبق وأن أُتخذت القمر والنّار والأصنام المتعددة آلهة، فهي جميعها لا تستطيع أن تترك خليفة.

فالذي يترك خليفة في الأرض خلقا هو الله تعالى: {اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ}580. الله الذي بدأ الخلق ممّا لم نعرف، ويستمر به إلى نهاية ما لن نعرف، فبداية

---

578 القرطبي، الجامع لأحكام القرآن. دار الكتاب العربي، المجلد السابع، ص 158.

579 الروم، 9.

580 الروم، 12،13.

الخلق منه ونهايته إليه، ولذا لن يكون هناك دور لمن لا يؤخر أو يُقدم في الأمر شيء، الدور والملك لله الواحد القهار. ولأن الله هو الخالق، وكلّ ما غيره مخلوق، فهل من الأفضل للخلافة التي تركها الله لخلقه أن تتخذه معبودا وتخلص له الدين، أم أن تتخذ من هو مخلوق مثلها إلها؟ وهل من اللائق بنا نحن بني الإنسان أن نعبد الله الذي ليس كمثله شيء؟ أم نعبد غيره من الذين هم في أحسن تقويم أو من الأقل منهم تقويم؟ تكمن الإجابة على هذه الأسئلة في قوله عزّ وجلّ: {آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ}[581].

وقد يتساءل البعض: ما هذا الشيء الذي استخلفنا الله فيه؟ الخيرات والنعم التي انعم الله بها على الذين من قبلنا، وعلينا، وعلى الذين سيأتون. لقد خلق الله النعم والخيرات سابقة على خلقنا، حيث خلق آدم في الجنّة، أي خلقه في وسط النعيم، وإلا لو لم يخلق الله النعيم سابق علينا هل يمكن لنا أن نحيا ونعيش من غير مصدر رزق؟ ولهذا أمر الله عباده بأن ينفقوا ممّا جعلهم مستخلفين فيه من خيرات.

وحتى لو كان فينا ضعف، وعرفنا هذه الحقّيقة أن الله خلق النعم سابقة على خلقنا وهي من أجلّنا، من أجلّ أن نعيش دون عوز أو فاقة، آلا يكفي هذا الأمر لأن يجعلنا نقول بإرادتنا (لا إله إلا الله).

بناء على ما تقدم فإن الخليفة ليس له بدا إلا أن يقول: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السّماوات وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ

[581] الحديد، 7.

شَيْءٍ قَدِيرٌ}582 ولأن الأمر بيد لله. لذا لا شريك له. (لا إله إلا ألله) {يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}583.

الحمد لله الواحد الأحد، الذي لم يكن له صاحبة ولا ولد، ولم يكن له شريك في الملك ولا له ند، والصّلاة والسّلام على من لم يعبد سواه ولم يجعل سواه ضد، وعلى من سار على نهجه ونجا يوم الجد.

اسم الله هو المستحقّ للعبادة؛ لأنّه هو المتصف بصفات الكمال والجلّال، ولذا على الخليفة أن يحسن عبادة ربّه، وأن يحسن التوكلّ عليه، وحقّيقة التوكلّ على الله جلّ جلّاله: أن يعلم العبد أن هذا الملكوت إنما هو بيد الله جلّ وعلا يصرفه كيف يشاء، فيفوض الخليفة الأمر إليه، ويلتجئ بقلبه في تحقّيق مطلوبه وفي الهربّ ممّا يسوءه، ويلتجئ في ذلك ويعتصم بالله جلّ جلّاله وحده، فينزل حاجته بالله، ويفوض أمره إلى الله، ثم يعمل السبب الذي أمر الله به من حيث التوكلّ عليه، فحقّيقة التوكلّ في الشرع تجمع تفويض الأمر إلى الله جلّ جلّاله، وذلك بفعل الأسباب، فالإيمان سبب من الأسباب التي يفعلها الخلفاء المتوكلّون على الله، بل إن نفس التوكلّ على الله جلّ وعلا سبب من الأسباب؛ لأن التوكلّ حقّيقته في الشرع تجمع عبادة قلبية عظيمة، وهي تفويض الأمر إليه، والالتجاء إليه، والعلم بأنه لا أمر إلا أمره، ولا شيء إلا بما قدره وأذن به كونا، ثم فعل السبب الذي أوجب الله جلّ وعلا فعله أو أمر بفعله، فترك فعل الأسباب ينافي حقّيقة التوكلّ، كما أن الاعتماد على السبب وترك تفويض الأمر إلى الله جلّ وعلا ينافي حقّيقة التوكلّ، فالمتوكلّ هو من عمل السبب، وفوض الأمر إلى الله جلّ وعلا في الانتفاع بالسبب،

582 المائدة، 18.

583 الحديد، 2.

وفي حدوث المسبب من ذلك السبب، وفي توفيق الله وإعانته فإنه لا حول ولا قوة إلا به جلّ وعلا، فالتوكلّ عبادة قلبية محضة؛ ولهذا كان إفراد الله جلّ وعلا بها واجبا، وكان صرفها لغير الله جلّ وعلا شركا"584، قال تعالى: {إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ}585.

ولذلك على الخليفة أن يعتقد أنّ الله جلّ جلّاله لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السّماء، سبحانه جلّ جلّاله، قال تعالى: {وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}586، رتّب الحسب (وهو الكفاية) على التوكلّ عليه، وهذا فضيلة التوكلّ، وفضيلة المتوكلّين عليه، ومن هنا اختلف العلماء في أيهما يغلب: الخوف أم الرجاء؟ هل يغلب العبد جانب الرجاء أو يغلب جانب الخوف؟ في الحقّيقة أن ذلك على حالين:

ـ الأولى: إذا كان الخليفة في حال الصحة والسلامة فإنه إما أن يكون الخليفة مسددا مسارعا في الخيرات، فهذا ينبغي أن يتساوى في قلبه الخوف والرجاء، فيخاف ويرجو؛ لأنه من المسارعين في الخيرات، وإذا كان في حال الصحة والسلامة وكان من أهل العصيان، فالواجب عليه أن يغلب جانب الخوف حتى ينكف عن المعصية.

ـ الحال الثانية: إذا كان في حال المرض المخوف فإنه يجب عليه أن يعظم جانب الرجاء على الخوف، فيقوم في قلبه الرجاء والخوف ولكن يكون رجاؤه أعظم من خوفه، وذلك لقول النبي عليه الصّلاة

---

584 التمهيد لشرح كتاب التوحيد، ج 2، ص 27، ص 28.

585 يونس 84.

586 الطلاق 3.

والسّلام: "لا يمت أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربّه تعالى"587، وذلك من جهة رجائه في الله جلّ جلّاله؛ ومن هنا اختلفت كلّمات أهل العلم، فتجد بعضهم قال: يجب أن يتساوى الخوف والرجاء، وبعضهم قال: يغلب جانب الخوف على جانب الرجاء، وبعضهم قال: يغلب جانب الرجاء على جانب الخوف، وهي أقوال متباينة في ظاهرها، ولكنها متفقة في الحقّيقة588. ومع ذلك فمن يخاف الله يتقيه ومن يرجو الله يتقيه، وفي كلّتا الحالتين كلّ ما من شأنه أن يزيد التقوى هو مُفضَّل عند الله تعالى، ولهذا فالخوف يؤدّي إلى التجنب والابتعاد عما نهى الله عنه، والرجاء تضرع لا تمد فيه الأيدي إلا لله تعالى، وفي كلّتا الحالتين يتحقّق الرضا من الله الواحد القهار، ولأنه الواحد القهار فمخافته ضرورة واتقائه واجب والحمد لله ربّ العالمين.

ولذلك على الخليفة أن يرضى ويُسلِّم، فالرضا بالمصيبة اعتراف بكمال القدرة لله تعالى واعتراف بنقصها عند من سواه؛ ولهذا يختلط على كثيرين الفرق بين الرضا والصبر، فالصبر على المصائب واجب من الواجبات؛ لأنّ فيه ترك السخط على قضاء الله وقدره، والرضا له جهتان:

. الجهة الأولى: راجعة إلى فعل الله جلّ وعلا، فيرضى بقدر الله الذي هو فعله، ويرضى بفعل الله، ويرضى بحكمة الله، ويرضى بما قسم الله جلّ وعلا، وهذا الرضا بفعل الله جلّ جلّاله واجب من الواجبات، وتركه محرم ومناف لكمال العقيدة.

. والجهة الثانية: الرضا بالمقضي، أي بالمصيبة في نفسها، فهذا مقبول، وليس واجبا على الخلفاء أن يرضوا بالمرض، وأن يرضوا بفقد

---

587 أخرجه مسلم رقم: 7229.

588 التمهيد لشرح كتاب التوحيد، ج 2، ص 41.

الولد، وأن يرضوا بفقد المال، لكن هذا مقبول وهو رتبة الخاصة من خلفائه، لكن الرضا بفعل الله جلّ وعلا بمعنى الرضا بقضاء الله من حيث هو واجب، أما الرضا بالمقضي فإنه في دائرة القبول حيث لا مجال للرفض فالأمر واقع بالفعل (كن) الذي لا يملكه إلا هو جلّ جلّاله، وأمره لا مرد له سبحانه ما أعظم شأنه، إنه ربّي، ربّ العالمين عزّ وجلّ.

وفي معرفة اسمه (الله) جملة من الفوائد والثمرات التي يجنيها المسلم بتحقّيقه لهذا الاسم العظيم من ذلك:

- أن العبد ينال بذلك سعادة الدنيا والآخرة، بل إن السعادة في الدارين متوقف الحصول عليها على الإيمان بالله، فحظ الخليفة منها بحسب حظه من إيمانه بربّه وأسمائه الحسان.

- أن إيمان العبد بربّه واسمه هو أعظم أسباب خوفه سبحانه وخشيته وتحقّيق طاعته، فكلّما كان العبد بربّه أعرف كان إليه أقربّ، ومنه أخشى، ولعبادته أطلب، وعن معصيته ومخالفته أبعد589.

- أنّ العبد ينال بذلك طمأنينة قلبه، وراحة نفسه، وأنس خاطره، والأمن والاهتداء في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ}590.

- أنَّ نيل ثواب الآخرة متوقف على الإيمان بالله، فبتحقّيقه وتحقّيق لوازمه ينال العبد ثواب الآخرة، فيدخل جنة عرضها السّماء والأرض فيها من النعيم ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، وينجو من النّار، وعذابها الشديد، وأعظم من ذلك

[589] أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 118.

[590] الرعد 28.

كلّه أن يفوز برضى ربّه سبحانه فلا يسخط عليه أبدًا، ويتلذذ يوم القيامة بالنظر إلى وجهه الكريم في غير ضراء مضرة ولا فتنة مضلة.

– أنّ الإيمان بالله هو الذي يصحح الأعمال ويجعلها مقبولة، فبفقده لا تقبل بل ترد على صاحبها وإن كثرت وتنوعت، قال تعالى: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ}591، وقال تعالى: {وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشكُورًا}592.

– أنَّ الإيمان بالله ملجأ الخلفاء في كلّ ما يلم لهم من شرور وحزن وأمن وخوف وطاعة ومعصية وغير ذلك من الأمور التي لا بد لكلّ أحد منها، ففي السرور يلجأ الخلفاء إلى الإيمان بالله فيحمدون الله ويثنون عليه ويستعملون نعمته فيما يحب، وعند المكاره والأحزان والمخاوف يلجؤون إلى الإيمان بالله فيتسلون بإيمانهم وما يترتب عليه من الأجر والثواب، فتطمئن قلوبهم ويزداد إيمانهم وتعظم ثقتهم بربّهم، وعند الطاعات والتوفيق للأعمال الصالحات يلجؤون إلى الإيمان بالله فيعترفون بنعمته عليهم، ويحرصون على تكميلها، ويسألونه الثبات عليها والتوفيق لقبولها، وعند الوقوع في شيء من المعاصي يلجؤون إلى الإيمان بالله فيبادرون إلى التوبة منها والتخلص من شرورها، فالخلفاء في جميع تقلباتهم وتصرفاتهم ملجؤهم إلى الإيمان بالله وحده593.

– أنّ معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته توجب محبّة الله في القلوب إذ أنّ أسماء الله وصفاته كاملة من كلّ وجه والنفوس قد جبلت على حب الكمال والفضل فإذا تحقّقت محبّة الله في القلوب

---

591 المائدة 5.

592 الإسراء 19، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 119.

593 أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 121.

انقادت الجوارح بالأعمال وتحقّقت الحكمة التي خلق العبد من أجلّها وهي عبادة الله.

- أنّ العلم بالأسماء والصفات يورث قوة اليقين بانفراد الله تعالى بتصريف شؤون الخلق وانفراده بذلك لا شريك له وهذا ممّا يحقّق صدق التوكلّ على الله في جلّب المصالح الدينية والدنيوية وفي ذلك فلاح العبد ونجاحه فمن توكلّ على الله فهو حسبه.

- إحصاء الأسماء الحسنى والعلم بها أصل للعلم لكلّ معلوم، فإنّ المعلومات سواه إمّا أن تكون خلقا له تعالى أو أمرا، وهي إما علم بما كونه، وإما علم بما شرعه، ومصدر الخلق والأمر عن أسمائه الحسنى، وهما مرتبطان بها ارتباط المقتضى بمقتضيه، فمن أحصى أسماء الله كما ينبغي للمخلوق أحصى جميع العلوم594.

فعلى الخليفة أن يعلم أن اسم (الله) جلّ جلّاله مستغرق لكلّ أسمائه بما اشتملت عليه من الكمال والجلّال، فيحذر غضب الجبار، فالخليفة يعلم أن اسم الله (السميع) هو الذي استغرق كلّ الكمال في صفة السمع، وكذلك اسم الله (البصير) هو الذي استغرق كلّ الكمال في صفة البصر، فالواجب على الخلفاء أن يعلموا أنّ الله جلّ جلّاله متصف بالأسماء الحسنى وأن لا يجحدوا شيئا من أسمائه الحسان، فمن جحد شيئا من أسماء الله فهو كافر؛ لأنّ ذلك من صنع الكفار والمشركين، والإيمان بالأسماء والصفات يقوي اليقين بالله، وهو سبب لمعرفة الله، والعلم به، بل إنّ العلم بالله ومعرفة الله جلّ وعلا تكون بمعرفة أسمائه المستوجب دعاءه بها، وبمعرفة آثار الأسماء في ملكوت الله تعالى، وهذا شيء عظيم يتضح في قوله الله عزّ وجلّ:

594 الإسراء 19، أصول الإيمان في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 122.

{وَلِلَّهِ الأسماء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا}595، فنحن بحاجة ماسة لمعرفته جلّ جلّاله وبخاصة في هذا الزمن؛ لشدة الحاجة إليه، ولا نكون كالكفار فقد وصفهم جلّ جلّاله في سورة النحل بأنهم ينكرون نعمة الله وهم لها عارفون، وإنكار النعمة أن تنسب إلى غير الله، وأن يجعل المتفضل بالنعمة غير الذي أسداها وهو الله جلّ جلّاله، قال تعالى: {يَعْرِفُونَ نِعْمَةَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا}596.

وعليه فالخليفة يعلم أن كلّ النعم من الله جلّ في علاه، وأن كمال التوحيد لا يكون إلا بإضافة كلّ نعمة إلى الله جلّ جلّاله، وأن إضافة النعم إلى غير الله نقص في كمال العقيدة، قال تعالى: {وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ}597، فدلت الآية على أنه لا يخرج شيء من النعم أيا كان ذلك الشيء صغيرا أو كبيرا عظيما أو حقّيرا لا يكون إلا من الله جلّ جلّاله، فكلّ النعم صغرت أو عظمت هي من الله جلّ جلّاله وحده، وأما الخلفاء فإنما هم أسباب تأتي النعم إليهم وتأتي على أيديهم، وأسباب في إيصال النعمة إلى النّاس، فمن كان سببا في معالجتك، أو سببا في نجاحك في مادة، أو نحو ذلك لا يدل على أنه هو ولي النعمة، أو هو الذي أنعم، فإنّ ولي النعمة هو الله جلّ وعلا، وهذا من كمال اليقين، فإن القلب الموحد يعلم أنّه ما ثَم شيء في هذا الملكوت إلا والله جلّ وعلا هو الذي يرسله، وهو الذي يمسك ما يشاء كما قال سبحانه: {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ

---

595 الأعراف 180.

596 النحل 82.

597 النحل 53،54.

بَعْدِهِ}598، فكلّ النعم من الله عزّ وجلّ، والعباد أسباب في ذلك، فالواجب إذًا أن تنسب النعمة إلى المسدي لا إلى السبب؛ لأنّ السبب لو أراد الله جلّ وعلا لأبطل كونه سببا، وهذا السبب إذا كان آدميا فقلبه بين إصبعين من أصابع الله جلّ وعلا لو شاء لصده عن أن يكون سببا، أو أن ينفعك بشيء، فالله تعالى هو ولي النعمة، وما من أحد تعلق بمخلوق إلا وخذل، وذلك لأن الواجب على المسلم أن يعلق قلبه بالله جلّ في علاه، وهذا هو حقّيقة التوحيد، ومعرفة تصرف الله جلّ في علاه في ملكوته599؛ ولذلك نجد من قوة اسم (الله) جلّ جلّاله أن لا يستطيع أحد أن يُسمي به نفسه أو أحدا من خلقه، وكلّ من حاول أن يفعل ذلك قهر وغلب وأُخِذ من حيث لا يدري، بل ومن مأمنه، ومن حيث لا يحتسب، كما فعل بفرعون قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَلْ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الحقّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النّار وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ}600، فأسماء الله جلّ وعلا يجب على الخليفة تعظيمها، وألا يسمي بها البشر، لأن هذا الفعل راجع إلى تعظيم شعائر الله جلّ جلّاله، قال سبحانه: {وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ}601. فالواجب على الخليفة أن يتحرز في ألفاظه وبخاصة

---

598 فاطر 2.

599 التمهيد لشرح كتاب التوحيد، ج 2، ص 137.

600 القصص 38-42.

601 الحج 32.

فيما يتصل بالله تعالى، أو بأسمائه الحسنى أو بأفعاله وإنعامه، أو بعدله وحكمته، وأن يعلم أن الله جلّ جلّاله مطلع عليه، وأنه سبحانه هو ولي الفضل، وهو ولي الإنعام، وهو الذي يستحقّ أن يجلّ فوق كلّ جلّيل، وأن يحب فوق كلّ محبوب، وأن يعظم فوق كلّ معظم، والخليفة يعلم أنه فقير لله جلّ جلّاله، وأنه لا مغني له إلا هو، وأنّ الله هو الربّ المستحقّ على العبد أن يشكّره وأن يذكره، وأن ينسب النعم إليه، والخليفة ليس مستحقّا في الدنيا بحقّ واجب على الله جلّ في علاه إلا ما أوجبه الله جلّ جلّاله على نفسه.

وحاول أهل العلم توضيح قيمة أسمائه وتفسيرها، ولكن وإن حاول أهل العلم ذلك فإنما هو من باب التقريب، ليدلوا النّاس على أصل المعنى، أما المعنى بكماله فإنه لا يعلمه أحد إلا الله جلّ جلّاله؛ ولهذا قال صلّى الله عليه وسلّم في دعائه: "لا نحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيت على نفسك"[602]. فالنّاس حين يفسرون أسماء الله جلّ وعلا فإنهم يفسرون ذلك بما يقربّ المعنى إلى الأفهام، أما حقّيقة المعنى على كماله فإنهم لا يعونه؛ لأن ذلك من الغيب والله أعظم من كلّ تفكير في العظمة، وكذلك الكيفية فإنهم لا يعلمونها؛ لأن ذلك من الغيب، فالله جلّ وعلا له الأسماء الحسنى. وتعظيم أسمائه يكون بتعظيمه كأن لا يسأل بوجه الله إلا المطالب العظيمة التي أعلاها ممّا خلق وهي الجنّة.

ومن تعظيم الخليفة لأسمائه أن لا يجادل في كيفيتها وكنهها وحال وجودها بل يسلم في ذلك تسليما واعيا بأنها الحقّ المطلق الذي لا يردك بالعقول كما هو عليه، ودون الولوج في ما لا يحمد عقباه من الجدال العقيم الذي لا يليق بالخليفة ألفهيم، فكيف لعاقل أن يجادل

[602] أخرجه الترمذي 3566، وابن ماجه 1179.

فالله جلّ في علاه وهو شديد المحال، قال تعالى: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}603، هذه الآية الكريمة نزلت في من جادل في الله جلّ جلّاله بغير الحقّ فكانت عاقبته أن باء بغضب الله تعالى في علاه فنزلت به صاعقه في يوم صائف صاف، بقي آية لغيره يدل بها على عظمة الله تعالى، وبقي برهانا لصدق رسالة رسولنا الكريم صلّى الله عليه وسلّم، فقوله تعالى: (وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) يدل على شدة القوّة والكيد، فالله جلّ جلّاله يظهر لنا بعضا من قوته وجبروته في قوله تعالى: {هُوَ الذي يُرِيكُمُ البرق خَوْفا وَطَمَعا وَيُنْشِئُ السحاب الثقال}604، وظهور آثار قدرةِ الله في الكون ظاهرة، والبرقُ من هذه الظواهر الكونية العجيبة، فالله جلّ جلّاله الذي يسخّر البرقَ فيخافه بعضُ النّاس خشية الضرر على نفسه أو محصوله من نزولِ المطر أو ما يترتّب عليه من الصواعق، ويطمع فيه بعضُهم رجاءَ نزول الغيث لسقي الزرع، فبعضهم يخاف وبعضُهم يطمع في الخير من ورائه، والله تعالى هو الذي ينشئ السحابَ المملوءة بالأمطار فيغيث بها الزرعَ والضرع، ويسبّح الرعدُ بدَلالتِه على وحدانية الله بحمدِه وتقديسه، فهذا الصوتُ المدوِّي في السّماوات إنما هو حمدٌ وتسبيحٌ بالقدرةٍ التي صاغت هذا النظام، ويسبِّح الملائكةُ الكرامُ من هيبته وجلّالِه، ثم تتم الصورةُ الرهيبة المشمولة بالرهبة والانبهار والرعدِ والسحابِ الثقال، بإرسال الصواعق، فيُصيب الله بها من يشاء رادعا لمن يكذب أو يشرك به غيره جلّ جلّاله.

---

[603] الرعد 13.

[604] الرعد 13.

ومع كلّ هذه الآيات والظواهر الكونية العجيبة يجادلُ الكفّار في شأن الله ووحدانيته وتفرُّدِه بالمِلْك، وهو سبحانه لا يغالب، فهو شديدٌ في عقوبة من طغى عليه وتمادى في كفره، روى عن ابن عمر: "أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلّم كَانَ إِذَا سَمِعَ صَوْتَ الرَّعْدِ وَالصَّوَاعِقِ قَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ، وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ"605، فالمشركون المعاندون يجادلون في الله وينسبُون إليه شركاءَ يدْعونهم معه، ودعوةُ الله هي وحدَها الحقّ، وما عداها باطلٌ ذاهب، ما يدعونهم من الآلهة المزيَّفة من دونِ الله لا يَستجيبون دعاءَهم ولا يُنجِدونهم بشيء، ومثلُهم في ذلك كَمَن يبسُط كفّيه ليأخذَ بهما ماءً إلى فمه، وهيهاتً أن يحصَل على شيء منه، قال تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الحقّ والذين يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الماء لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعاء الكافرين إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ}606، أي في ضياعٍ وخسارة بدون فائدة.

وعظمة اسمه جلّ جلاّله تظهر في قوله تعالى: {وَللَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السّماوات والأرض طَوْعا وَكَرْها وَظِلالُهُم بالغدو والآصال}607، ففي الوقت الذي يتّخذ الجاحدون آلهة من دون الله، ويتوجَّهون إليها بالرّجاءِ والدعاء، نرى كلّ من في هذا الكون يخضعُ لإرادته ويعنُون لعَظَمته من أناس وجِنّ وملائكةٍ طائعين أو كارهين، حتى ظِلالُهم خاضعةٌ لأمرِ الله ونَهْيِهِ في جميع أوقات النهار، وفي هذا تعميم لكلّ شيء، وتظهر قوة هذه الآية في جعلها ممّا يسن للقارئ والمستمع أنّ يسجد عند سماعها أو قراءتها.

605 سنن الترمذي، ج 11، ص 345.

606 الرعد 14.

607 الرعد 15.

فالقارئ يجد عند قراءة قوله تعالى: (وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ) من الرهبة والخوف من عقابه بما يظهر في ألفاظها من قوة وسطوة وجبروت في كونه تعالى في علاه شديد حالما يريد أن يهلك عدوه، فعلى الخليفة أن يظهر من الخضوع والخشوع ما يليق برضاه للفوز بجناته، واتقاء عذابه، وذلك بالذكر والشكّر ليل نهار والتسبيح والتهليل، ويظهر الجدال في كيفية الذكر، فهناك من يقول: إنّ الشكّر والذكر لا يكون إلا بذكر لفظ الجلّالة (الله)؛ استنادا إلى قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا}608، فلفظ (الله) في هذه الآية يأمرنا بذكر لفظه تعالى وبهذا الاسم فيكون الذكر بترديد لفظ الجلّالة: الله الله الله.... ليل نهار، وهذا المعنى الحرفي لهذه الآية الكريمة وغيرها من الآيات التي أمرت بذكر الله تعالى، وهناك من يرى غير ذلك بأنّ الذكر لا يكون مقتصرا على تكرار لفظ الجلّالة (الله) بل الذكر يكون بالقيام والصيام وترك الموبقات وعمل الصالحات ومتابعة العلوم الدينية وذكر القرآن الكريم، بل بعض النّاس حرم ومنع المسبحة واستخدامها للذكر ورآها بدعة لا وجود لها في الدين ونسوا أنّها لا تعبد في ذاتها بل هي وسيلة لتأدية ما أمر به الدين الحنيف من الطاعات، وعلى كلّ حال فكلّ من يريد عبادة ربّه فإنّ الله به عليم، وهو قريب سميع الدعاء، وكلّ وسيلة تقربّ منه أو بها يُذكر واحدا أحدا هي وسيلة مباركة لا تؤخذ غاية في ذاتها، فليعبد الخليفة ربّه سبحانه بالطريقة التي تناسبه والطريقة التي يقدر بها على تأدية فرضه وسننه ونوافله، فالأمي الذي لا يستطيع قراءة القرآن لا نمنعه من التسبيح، ونبقيه مكتوف الأيدي

608 الأحزاب 41-43.

بحجة أن المسبحة بدعة، وإن كانت كذلك فهي حسنة ولم تغير في الدين شيئا بل تدعمه بمن هو قادر على عبادة ربّه وبأخف الألفاظ وبأثقل الموازين، ويؤيد هذا قول الرّسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم: "كلّمَتَانِ خَفِيفَتَانِ عَلَى اللِّسَانِ ثَقِيلَتَانِ فِي الْمِيزَانِ حَبِيبَتَانِ إِلَى الرّحمن سُبْحَانَ اللَّهِ الْعَظِيمِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ"[609]، وعلى هذا يشترط لمن يريد ذكر ربّه أن يكون طاهرا ظاهرا وباطنا: وذلك بأن يطهر قلبه ونفسه من الأدران التي أساسها الطمع في جمع المال والعيال ونسيان ما خلق من أجلّه وله سخر ما في الكون ليقوم به التسبيح (ذكر الله في الحركة والسكون)، ومع هذا فالتسبيح لا يشترط المسبحة، بل يستوجب المسبح به وبذكره، وليعلم الخليفة أن كلّ ما في الكون خلق ليسبح بحمد ربّه فكيف لمن خلق على أكمل وجه وكلّفه بما لم يقدر أي مخلوق على حمله أن يقوم بواجبه تجاه من عرف حقّيقته حقّ المعرفة، فالطهارة واجبة على كلّ من يريد أن يذكر ربّه، وقد مدح الله جلّ جلاّله الذين يتطهرون من الذنوب والخطايا بقوله تعالى: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحقّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[610]. والطهارة الداخلية تكون بالابتعاد عن كلّ ما هو جالب للذنوب، فالخليفة يكون مبتعدا عن وهن الدنايا والخطايا فلا يتعمد ارتكاب أو الاقتراب من الذنوب وذلك باجتراح السيئات؛ لأنه تعالى لم يجعل الذين يتقوا فعل السيئات كمن يقوم بفعلها، فقد جاء ذلك في قوله: {هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ

[609] صحيح البخاري، ج 20، ص 21.

[610] التوبة 109،108.

اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ}611؛ ولأن الطهارة الداخلية هي التي ترتكز عليها الطهارة الخارجية فلذلك يجب على الخليفة أن يطهر نفسه وقلبه من الحسد والحقّد وما ينتج عن ذلك من نميمة وغيبة وذكر النّاس بما تكره أو بما ليس فيهم، فهذه الأشياء تأكلّ الحسنات كما تأكلّ النّار الهشيم، وبذلك يجد الإنسان نفسه خارج الدائرة بدلا من كان من المقربّين والعياذ بالله، وقد نهى جلّ جلّاله عن ذلك نهيا صريحا واضحا وجعله كمن يأكلّ لحم أخيه، قال عز من قائل: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ}612، ولما كان الخليفة طاهرا في سريرته حتما يجب أن يكون طاهرا في:

ـ بدنه.

ـ نفسه.

ـ فيما يفكر ويتذكر.

ـ وطاهرا في ثوبه، وبيته، ومركبه، وفيما يشربّ ويأكلّ ويتذوق.

ـ طاهرا في ظاهره وباطنه.

طاهرا سلوكه، فيكون الخليفة مقتديا بقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وربّكَ فَكَبِّرْ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ وَلِربّكَ فَاصْبِرْ}613، وفي هذه الآيات وعند قوله تعالى: (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ) بالتحديد من ينظر

---

[611] الجاثية 20،21.

[612] الحجرات 12.

[613] المدثر 1-7.

إليها يجدها تشتمل على الطهارة الداخلية كما تشتمل على الطهارة الخارجية، ويظهر ذلك بمجيء قوله تعالى: (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) بعدها، فترك الرجز من الأشياء التي يعملها القلب وتكون بين العبد وربّه، قال تعالى: (فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)، فلا وجود لخليفة إذا لم يكن طاهرا في كلّ ما ذكر وما يجب أن يكون به طاهرا.

وعليه يصفي الخليفة نفسه وقلبه مع ربّه ومع خلقه بإتباع ما أمره الله تعالى والانتهاء عما نهاه عنه بتوجيه النفس والقلب التوجه الصحيح وذلك بإقامة الفروض المنصوص عليها في القرآن والسنة، فعليه:

1 - أن يقيم الشهادتين إقرارا بالقلب ونطقا باللسان وعملا بالجوارح.

2 - أن يقيم الصلاة في أوقاتها، قال تعالى: {فَإِذَا قَضَيْتُمُ الصَّلَاةَ فَاذْكُرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِكُمْ فَإِذَا اطْمَأْنَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا}[614]، وقال تعالى: {الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ}[615].

3 . أن يؤتي الزكاة في أوقاتها: قال تعالى: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حقّ مَعْلُومٌ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ وَالَّذِينَ يُصَدِّقُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ}[616]،

4 . أن يؤدّي فريضة حجه متى استطاع ذلك، وقال تعالى: {فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النّاس

[614] النساء 103.

[615] المعارج 23.

[616] المعارج 24 -26.

حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ}617،

5 . أن يصوم رمضان إيمانا واحتسابا، قال تعالى: {شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشكّرُونَ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ}618.

6 . إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل ولو كره المجرمون والكافرون، قال تعالى: {وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقّ الحقّ بِكَلّمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقّ الحقّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}619.

7 . الابتعاد عن ارتكاب الآثام: قال تعالى: {وَمَنْ يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا وَمَنْ يَكْسِبْ خَطِيئَةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِ بَرِيئًا فَقَدِ احْتَمَلَ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا}620

8 . الابتعاد عن الموبقات: فالخليفة مأمور بالبعد عن السلوكيات التي تذهب به إلى جهنم والعياذ بالله، ومن هذه الموبقات:

- الإشراك بالله تعالى.

---

617 آل عمران 97.

618 البقرة 186،185.

619 الأنفال 7، 8.

620 النساء، 111، 112.

- قتل النفس البريئة: بغيا وعدوانا، أو خوفا من الفقر.

- ارتكاب الفواحش ما ظهر منها وما بطن: كالزنا والسرقة، والغش وإشعال نار الفتنة.

- أكلّ مال اليتيم بغير حقّ.

- التطفيف للكيل والميزان.

- ارتكاب المظالم.

وعليه لا يوصف الله إلا بما سمى به نفسه، ولا وصف إلا بأحد ثلاثة:

- إما رؤيتَه، وهذه استحالة. قال تعالى: {وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلّمَهُ ربّهُ قَالَ ربّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلّى ربّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ}621.

- أو رؤية مثيله، وهذه أيضا استحالة. قال تعالى: {فَاطِرُ السّماوات وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}622.

- أو وصفه ممن يعرفه، وهذه بالإيمان ممكنة، ولأن الإيمان بالشيء لا يكون إلا تسليما بالشيء مباشرة أو بآية من آياته العظام، أو برسول مرسل، وفي هذا الأمر الكثير الذي به يتم الإثبات دون ظهور للشبيه أو المثيل، حيث وراء كلّ مخلوق خالق، ولا يمكن أن

[621] الأعراف 143.

[622] الشورى 11.

يكون المخلوق لو لم يكن الخالق سابق عليه، ولهذا فالخالق الأول مثبت بآياته العظام، وهو مصطفي الرّسُل صلوات الله عليهم مبشرين ومنذرين ومحرضين؛ ولهذا ليس أحد أعلم بالله من الله ثم رسله الذين أوحى إليهم وعلمهم فوجب لزوم طريق الوحي في أسماء الله الحسنى إذ لم نر ربّنا في الدنيا فَنَصِفه وليس له مثيل من خلقه فيوصف بوصفه، تعالى ربّنا وتقدس، ولذلك وجب إتباع قوله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كلّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا}623، وقال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرّحمن الرّحيم هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأسماء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السّماوات وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}624.

ولأنّه الله الواحد الأحد يحقّ الحقّ ويزهق الباطل وهو العدل الحقّ قال: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ ربّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْربُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ وَلَا تَقْربُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}625، وقال تعالى: {وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ

---

623 المدثر 1-7.

624 الحشر 22 . 24.

625 الأنعام 151 -153.

وَلَا تَبْسُطْهَا كلّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا إِنَّ ربّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا وَلَا تَقْربّوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالحقّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِفْ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا وَلَا تَقْربّوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كلّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كلّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ ربّكَ مَكْرُوهًا ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَى إِلَيْكَ ربّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَدْحُورًا}626.

وعلى الخليفة أن يعلم أنه سبحانه أجلّ من أن يُدرَكَ كُنْهُ ذاته وصفاته، أو يحاطَ بها علمًا، قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ}627، وليعلم أن الواحد هو الله تعالى، وأن الأسماء مضافة له فقوله: {وَلِلَّهِ الأسماء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أسمائه سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}628، أي أضافها إليه، كما قال: {فَسَبِّحْ بِاسم ربّكَ الْعَظِيمِ}629. وقوله: (فَادْعُوهُ بِهَا)، أي: فادعوا الله بأسمائه، ولذا فلاسم غير المسمى، قال تعالى: {تَبَارَكَ اسم ربّكَ}630، والمتبارك هو الله، وأن الاسم معظم لتعظيم

626 الإسراء 29-39.

627 الشورى 11.

628 الأعراف 180.

629 الواقعة 74.

630 الرحمن 78.

الذات المقدسة، و(الله) عَلَمٌ على الربّ تبارك وتعالى، ويقال: إنه الاسم الأعظم؛ لأنه يوصف بجميع الصفات، كما قال تعالى: {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرّحمن الرّحيم هُوَ اللَّهُ الَّذِي لا إِلَهَ إِلا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأسماء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السّماوات وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}[631]، كما قال: (وللهِ الأسماء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا)، وقال تعالى: {قُلْ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرّحمن أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الأسماء الْحُسْنَى}[632]. وعن أبي هريرة: أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسما مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجنّة"[633]. ونحن نقول الله واحد أحد وأسمائه لا تحصى، وما نقدمه للقراء في هذا الجهد هو محاولة لإظهار ما استطعنا إظهاره ممّا عرفنا من أسمائه الحسنى التي لا تعد ولا تحصى، ومهما تعددت الأسماء فالله واحد أحد سبحانه جلّ جلّاله لا شريك له ولا مثيل ولا شبيه، وليس له صاحبة ولا ولد مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[634].

وعليه الله اسم وغيره مسمى، ومن المسمى ما هو مسمى منه جلّ جلّاله، ومنه ما هو مسمى بالمتعرف عليه، أو المتعرف به، فالأرض مسمى منه وهكذا الشمس والقمر والليل والنهار والفجر والعصر والزمان، وكذلك مثل آدم عليه الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ

[631] الحشر 22-24.

[632] الإسراء 110.

[633] صحيح البخاري، ج 9، ص 261.

[634] الإخلاص 1 . 4.

كُنْ فَيَكُونُ}635، وكذلك يحيى عليه الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسمهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا}636، وهكذا الإنس والجن والملائكة أسماء لم تسم إلا منه جلّ جلّاله.

إمّا المسمى فهو من يكون الآخر مسميا له، كما يسمي الآباء أبنائهم، أو ما يطلقونه من أسماء على صفات سلوكية أو حركية أو أخلاقية أو بيئية، وهكذا تتعدد الأسماء والصفات والله تعالى واحد أحد لا يتعدد.

ولأنّ الله تعالى هو الاسم الأعظم، فهو الأصل لكلّ شيء، والمسمى دائما لاحقّ للشيء الذي يسمى.

وعليه قد يتساءل البعض: لماذا الله؟

الله جلّ جلّاله خالق لكلّ شيء، ولذا فهو يسأل ولا يسأل، مصداقا لقوله تعالى: {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ}637 ولأن السؤال دائما يلاحقّ الإجابة فالإجابة دائما سابقه على السؤال، أي لا سؤال إن لم تكن الإجابة سابقة عليه، وإلا هل يمكن للمعلمين أن يسألوا التلاميذ أو المتعلمين بشكّلّ عام إذا لم يعلموهم أولا ثم ليسألوهم ثانيا عما تعلموا، ولذلك لا تُجرى الامتحانات والاختبارات إلا بعد تعلم ومعرفة، ولهذا تُبث المعلومات والمعارف وتعلم أولا ليتم الاختبار عليها ثانيا ولله المثل الأعلى، وهكذا الله جلّ جلّاله لا يسأل عباده أولا بل بدايةً نزّل الكلّم عليهم وبين لهم الحلال من الحرام وبين

---

635 آل عمران 59.

636 مريم 7.

637 الأنبياء 23.

لهم ما يجب الإقدام عليه وما ينبغي تجنبه والابتعاد عنه، ولهذا أوجب عليهم الإصلاح في الأرض وحرَّم عليهم الإفساد فيها كما حرَّم عليهم سفك الدماء بغير حقّ.

وعليه لا إجابة علمية وموضوعية إلا من مصدر، ومصدر كلّ المعلومات هو الله الخالق المصور السميع المجيب، ولأنه المجيب فمن حقّنا أن نسأل لأجلّ أن نعرف، ولأن كلّ الإجابات منه، فهو المجيب بالمطلق، ولهذا يكون المجيب جلّ جلّاله هو الإجابة الشافية على السؤال: لماذا الله؟

إذن لماذا الله؟

لأنّه المجيب. فلوا لم يكن مجيبا ما عرفناه وما عرفنا المعرفة التي تُعرفُنا به، ولأنّ المعرفة هي التي تحتوي الإجابة وكلّ المعرفة من الله فلهذا عرفناه واحدا أحدا لا شريك له {هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الأسماء الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السّماوات وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}638.

ولأنّ الله هو المعرفة التامة والكاملة، فكانت له الأسماء الحسنى، التي يدعى بها وهو السميع المجيب، وعليه لا يَسأل (لماذا الله)؟ إلا من يعرفه، فلو لم يعرفه ما كان سائلا عنه، ولكن البعض يعرفونه وينكرونه في الحياة الدنيا، إلا أنهم سيقولونها علنا وبصوت عالٍ في الآخرة يوم أن يطرح سؤاله جلّ جلّاله: لمن الملك اليوم؟ فتكون الإجابة بالإجماع

[638] الحشر 23، 24.

(لله الواحد القهار). قال تعالى: {يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}639.

إذن لماذا الله؟ لأنّه الخالق الذي خلق من طرح هذا السؤال (لماذا الله). سبحانه لو لم يخلقه ما كان من المتسائلين.

وهذا السؤال عندما يكون لأجلّ المعرفة لا عيب فيه، ولكن عندما يكون لأجلّ الإنكار يكون كلّ العيب فيه، ومع ذلك حتى الذي يريد الإنكار كيف له أن يسأل عنه لو لم يكن هو الله جلّ جلّاله. أي أنّه سأل عن واجدٍ، فلو لم يكن المخلوق موجودا ما كان الواجد موضوع التساؤل، ولأنّه الواحد الحقّ بالمطلق الذي أوجد الوجود فمن حقّ الموجود أن يسأل عن واجده إلى أن يعرف، وعندما يعرف يؤمن ويكون من المستخلفين فيها، وبعدها بطبيعة الحال سيكون السؤال ذاته من الخالق للمخلوق: لماذا الله؟ فتكون الإجابة لأنه الخالق المجيب مالك الملك. ولهذا يطرح السؤال: لمن الملك اليوم؟ فتكون الإجابة لله الواحد القهار.

لماذا الله؟ سؤال يقود إلى الهداية ولا يقود إلى الضلال، فمن سأله في الدار الدنيا ليعرف، يعرف إنه الله الواحد القهار، ومن سأله فيها ليفسد فإنما يضل عليها، مصداقا لقوله تعالى: {مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحقّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِنْ بَعْدِ نُوحٍ وَكَفي بِربّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا}640.

639 غافر 16.

640 الإسراء، 15 . 17.

إذن لماذا الله؟

لأنه الخالق الباري المصور له الأسماء الحسنى التي يدعى بها فيجيب سبحانه جلّ جلّاله، فلو لم يكن واحدا أحدا ومالكا للملك والخالق المطلق ما كُنَّا وما طُرِح هذا السؤال الذي من عرفه أجاب (واحدا أحدا). ولهذا لماذا الله؟ لنسبحه واحدا أحدا لا شريك له.

وعليه لماذا الله؟

ليعم العدل بين من خلق في الدارين، ويكون الملك والعرش له، والبعث بعد الحياة والممّات وليكون الحساب والعقاب والثواب والجنّة والنّار بين العباد بالأعمال.

فلماذا الله؟ لندركه دون غفلة، ولنؤمن به ونقوله هو كما هو في سورة الإخلاص {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ}[641].

ولأن الإنسان خلق عجولا مصداقا لقوله تعالى: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجلٍ سَأُرِيكُمْ آَيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجلّونِ}[642] فقد يتساءل البعض: هل خلق الله نفسه؟ أم خلقته الطبيعة؟

الطبيعة مخلوقة والله جلّ جلّاله خالق، وشتان بين الخالق العظيم وبين المخلوق العجول، أما من يتساءل: هل خلق الله نفسه؟ نجيب: إنه الأول والآخر، وهو ذات، والذات تَخلُق ولا تُخلِق، والخالق سابق بالمطلق على كلّ سابق، ولهذا فهو الأول وغيره لاحقّ، إنه الأول مسبب الأسباب وخالق المخلوقات، وهو الآخر الباقي جلّ جلّاله.

[641] الإخلاص 1 . 4.

[642] الأنبياء 37.

ولو خلق نفسه لما كان الأول تعالى، ولو خلق نفسه لكان من مادة ولكان له المثيل والشبيه، وهو سبحانه جلّ جلّاله ليس كمثله شيء قال تعالى: {فَاطِرُ السّماوات وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ لَهُ مَقَالِيدُ السّماوات وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِّمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ ربّكَ إِلَى أَجلٍ مُسَمًّى لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَفِي شكّ مِنْهُ مُرِيبٍ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ ربّنا وربّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}643 سبحانه ليس كمثله شيء، ولأنّه كذلك فهو الواحد القهار، والقهار هو الغالب بالقوّة، ولأنّه كذلك فلا يوصف بالقدم ولا بالحداثة، إنّه الله خالق الزمان وجاعله قيدا على من خلق وما خلق، أمّا ذاته العلية فلا تحاط بالزمان الذي به يتم تحديد القديم من الحديث، إنه تعالى المحيط بالمطلق وغيره محاط بالقوّة والقدرة والهيمنة والجلّالة، سبحانه يُحِيط ولا يُحَاط، ويُهيمن ولا يهيمن عليه، إنه ربّي الواحد الأحد الأول والآخر، ولأنّه عزّ وجلّ ذات، فالذات لا مادة، ولهذا تخلوا الذات العلية من المثيل والشبيه، وبما أنّه ذات، والذات خالقة لا مخلوقة، إذن الذات الخالقة سابقة على الخلق، ولأنّه ذات، فالذات لا يلحقّها الخلق بالمطلق، أي

[643] الشورى 11 . 15.

لو لا حقّها الخلق لأحاط بها، ولهذا السؤال: هل خلق الله نفسه؟ لا يطرح إلا على المستوى البشري، (الخلق) أي لا يطرح إلا قصورا في التفكير، ومن يدرك الحقّ يعلم أنّ الخالق سابق على قواعد الخلق، ولهذا يحيط ولا يحاط. ولأنّه يحيط ولا يحاط، يسقط السؤال من طرحه لعدم مقدرته على الإحاطة.

وعليه القاعدة تقول: (الخالق يَخلِق ولا يُخلَق).

ولأنّ الله تعالى ذات، والذات لا مادة، ولا روح، فالذات لا توصف إلا بصفاتها الحسان، ولأنه جلّ جلّاله ذات فهو فعَّال لما يُريد، ولأنه الفعَّال لِما يريد فليس كمثله شيء، وهو على كلّ شيء قدير، ولأنه القدير بالمطلق فهو يخلق ولم يخلق، ولم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، سبحانه جلّ جلّاله سبحان الله العظيم.

ولأنّ الله ذات خلق أوّل ما خلق التهيؤ، وهو التأهب لكينونة الأشياء، ولهذا فالتهيؤ مجموع المعطيات الصالحة لتنفيذ الأمر (كن) أي قبل أن يخلق الحركة والزمان خلق التأهب للحركة والزمان، ولهذا أمره نافذ ولا مرد له سبحانه جلّ جلّاله، فقبل أن يكون القمر والشمس والأرض والسّماوات العلا والطير والنبات والأسماك وكلّ شيء، كان كلّ شيء بأمره متأهب لأن يكون متميزا بما هيَّأه الله عليه، ولهذا فالتأهب بيئة صالحة لكينونة الشيء على الخاصية والصفة.

وعليه كلّما تهيأت ظروف الأشياء لأن تكون كانت بالأمر (كن) هي كما هي. ولذا كلّما تهيئت ظروف البركان كان، وهكذا كلّما تهيئت ظروف الزلزلة أو المطر أو الحياة أو الموت أو أي شيء كان هذا الشيء قابل للملاحظة أو المشاهدة أو الاثنين معا، والخليفة

لأنه مؤمن يؤمن بأن معطيات البعث متهيئة ممّا يجعله في دائرة الممكن المتوقع في أي حين، قال تعالى: {وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ يَسْتَعْجِلّ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آَمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الحقّ أَلَا إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ}644، وقال تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السّماوات وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآَخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شكّ عنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآَبَاؤُنَا أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ لَقَدْ وُعِدْنَا هَذَا نَحْنُ وَآَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ ممّا يَمْكُرُونَ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجلّونَ وَإِنَّ ربّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَشكّرُونَ وَإِنَّ ربّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السّماء وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ إِنَّ هَذَا الْقُرْآَنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ}645.

وعليه كلّما تهيأت ظروف المخلوق كان فعلا ماثلا بالأمر (كن)، ولهذا ظروف كلّ شيء يراد له أن يكون تكون ظروفه متهيئة بالقوّة والقدرة الإلهية لتكون كما يرادها الله أن تكون عليه، ولذا كلّ يوم يكتشف العباد الجديد من خلق الخالق، فيروسات جديدة بأمراض جديدة وعلوم متطورة ملاحقّة للعلاج، ومع ذلك فلم يؤت الإنسان من العلم إلا قليلا.

---

644 الشورى 17، 18.

645 النمل 65 . 76.

ولأنّ الله تعالى هو الخالق الأعلى، فالخالق الأعلى يَخلِق ولا يُخلَق، فتبارك الله أحسن الخالقين، ولهذا يسبحه الخليفة كثيرا وتسبحه المخلوقات الأخرى بما هيأت عليه، قال تعالى: {سَبِّحِ اسم ربّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفِي وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصلّى النّار الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسم ربّهِ فَصلّى بلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}[646]. فسبح اسم ربّك الأعلى، تتطلب مسبح باسمه تعالى، ولهذا فعندما يقال للخليفة سبح اسم ربّك الأعلى، ليس له بدا إلا يقول: (سبحان الله)، فالله هو الربّ الأعلى، ولا ربّ سواه، ولذا فسبح اسم ربّك الأعلى، حدده يقينا وأذكره واحدا أحدا.

وعليه كان الأمر بتسبيحه تعالى، ممّا يستوجب على المسبح به بأن يقول: (سبحان الله) وذلك لأنه لا ربّ أعلى غيره، وهكذا يكون التتابع واليقين في التسبيح باسمه تعالى.

وعودا على سورة الأعلى، نلاحظ أمر التوكيد على اسمه الأعلى، (الله جلّ جلاّله وهو الاسم الأعظم) فسبحان الله، سبحان الله، سبحان الله.

إذن استجابة للأمر المطلق، (سبح اسم ربّك الأعلى) يتطلب التسبيح باسمه جلّ جلاّله.

---

[646] الأعلى 1 . 19.

وهكذا قوله تعالى: (الذي خلق فسوى) يستوجب التسبيح باسمه، فالذي خلق فسوى تستوجب اعتراف المؤمن بقدرته على الخلق وهو المعجزة الكبرى، وهذه المعجزة الكبرى تستوقف الخليفة المؤمن ممّا يجعله في حالة تأمل ويقين بقوله سبحان الله، ولهذا قوله تعالى: (الله) سبح اسم ربّك الأعلى) يستوجب التسبيح باسمه (الله) وهكذا قوله تعالى: (الذي خلق فسوى) يستوجب التسبيح باسمه تعالى (الله).

وكذلك قوله تعالى: (والذي قدَّر فهدى) فالذي قدَّر وهدى هو الله، وهو الربّ الأعلى للخليفة، الذي يستوجب ذكره والتسبيح باسمه جلّ جلّاله، ولأن الذي قدَّر فهدى هو (الله) فسبحانه كيف قدَّر وكيف هدى، أي من تأمل في خلقه وهدايته لِما خلق ليس له بدا إلا أن يقول سبحان الله على ما قدّر وهدى.

(والذي أخرج المرعى)، هو الله لا إله غيره، ولهذا سبحان الله الذي أخرج المرعى، أي سبحانه الذي خلق النبات نعمة واسعة منه ليكون للحياة معنى وللطبيعة كسوة من البهاء والجمال، فسبحانه على ما خلق وسبحانه على ما أخرج ممّا خلق، ولذا فالذي أخرج المرعى هو الله الذي يستوجب التسبيح باسمه جلّ جلّاله، ولهذا كيف أخرج المرعى معجزة تستوقف المؤمن لأنّ يذكره بقوله: (سبحان الله).

ومع ذلك ليس الغاية من قوله (سبح اسم ربّك الأعلى) هو أن يذكر المسبح الله تعالى ويمجده فقط، ولكن الغاية هي التمكن من إدراك المعجزات العظام والصفات الحسان والوقوف عندها والتأمل فيها من أجلّ توصيل دلائل كلّ معجزة من المعجزات إلى الآخر المستهدف بالتبشير والهداية.

وقوله تعالى: (فجعله غثاء أحوى) أي من الذي غير حال الاخضرار في المرعى، وجعله يبسا جافا؟، وكيف غيره؟ هذه معجزة أخرى تستوجب من المؤمن التوقف ليدرك أنه الله، ممّا يجعل حال لسانه وقلبه معا على القول: (سبحان الله) وهو التسبيح باسمه عزّ وجلّ واحدا أحدا، ولا ربّ أعلى منه.

وقوله تعالى: (سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ)، الآية موجهة لمحمّد عليه الصّلاة والسّلام، الذي اقرأه الله فلم ينس شيئا ممّا أقرأه جلّ جلّاله، ونظرا للكثرة الكثيرة لما تم استقراء محمّد عليه الصّلاة والسّلام به، فلم ينس شيئا منه، إلا الذي لا يريده الله له، فسبحان الله على ما أراده الله وسبحان الله على مقدرة محمّد على عدم النسيان، ولذلك فالمتأمل والمستقرئ لما أقرأ الله تعالى به محمّدا عليه الصّلاة والسّلام، يجد نفسه أمام معجزة تغالبه بالحقّ ممّا يجعله على ذكر ربّه (الله) بقوله: (سبحان الله).

قال تعالى: (إنه يعلم الجهر وما يخفي) أي أن ربّك الأعلى الذي تسبحه يا محمّد باسمه الأعلى هو (الله) الذي تدركه يقينا، وهو الذي خلق فسوى، ولذا فكان التسبيح تكرارا لاسمه الأعلى (الله)، وهكذا الخليفة عندما يقرأ قوله تعالى: (اقرأ اسم ربّك الأعلى) يقول: (سبحان الله) وعندما يقرأ قوله: (الذي خلق فسوى) يقول أيضا: (سبحان الله) وهكذا يستمر التسبيح باسمه كلّما قرأ آية من آيات سورة (الأعلى)، ولهذا يكون التسبيح وفقا للآتي:

(سبح اسم ربّك الأعلى).

سبحان الله. أي سبحان الله الذي لا إله إلا هو عزّ وجلّ.

(الذي خلق فسوى).

سبحان الله. أي سبحان الله على ما خلق وسوى.

(والذي قدَّر فهدى).

سبحان الله. أي سبحان الله على ما قدَّر وهدى.

(والذي أخرج المرعى).

سبحان الله. أي سبحان الله على إخراجه للمرعى.

(فجعله غثاء أحوى).

سبحان الله. الذي جعل الأخضر يابسا.

(سنقرئك فلا تنسى إلا ما شاء الله).

سبحان الله.

(إنه يعلم الجهر وما يخفي).

سبحان الله.

(وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى).

سبحان الله.

(فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى).

سبحان الله.

(سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى).

سبحان الله.

(وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى).

سبحان الله.

(الَّذِي يَصلّى النّار الْكُبْرى).

سبحان الله.

(ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى).

سبحان الله.

(قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تزَكَّى).

سبحان الله.

(وَذَكَرَ اسم ربّهِ فَصلّى).

سبحان الله.

(بلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا).

سبحان الله.

(وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى).

سبحان الله.

(إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى).

سبحان الله.

(صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى).

سبحان الله.

وعليه فسبحان الله، تسبيح باسمه الأعلى، واعتراف بمعجزاته الكبرى التي عُدِّدت في سورة (الأعلى).

ومع ذلك فمن يسبحه كما يسبح أثناء السجود بالقول: (سبحان ربِّي الأعلى) فهذا لا يخرج عن كونه أن الربّ الأعلى هو الله جلّ جلاّله، فسبحان الله ربِّي الأعلى.

وفي مقابل ذلك نزل قوله تعالى: {فَسَبِّحْ بِاسم ربّكَ الْعَظِيمِ}647 ثلاث مرات، مرتين في سورة الواقعة، ومرة في سورة الحاقة، ولذا فسبح اسم ربّك الأعلى، تعني: اذكره كثيرا، أي اذكر اسمه كما سمى نفسه، {إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي}648، أمَّا قوله: (فَسَبِّحْ بِاسم ربّكَ الْعَظِيمِ) تستوجب التسبيح بالقول: (سبحان الله العظيم). ولهذا سبَّح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم به في كلّ ركوع، ومتى ما أدرك التسبيح به عزّ وجلّ، وهكذا يُسبِّح به المستخلفون فيها في كلّ ركعة يركعونها ومتى ما يشاؤون اتصالا به دون وسطاء، ولهذا فالتسبيح باسم الربّ العظيم هو تسبيح بالله العظيم جلّ جلاّله.

قال تعالى: {وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ ربّكُمْ وربّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}649

إنّها حجّة النبي إلياس عليه الصّلاة والسّلام، إنه: (ربّكُمْ وربّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ) فالربّ "هو الله عزّ وجلّ هو ربّ كلّ شيءٍ أَي مالكُه وله الربّوبيَّة على جميع الخَلْق لا شريك له وهو ربّ الأَربّاب ومالِكُ

[647] الواقعة 74.

[648] طه، 14.

[649] الصّافات 125، 126.

الملوكِ والأَمْلاكِ ولا يقال الربّ في غَير اللهِ إلاّ بالإضافةِ، ويقال الربّ بالأَلِف واللام لغيرِ اللهِ وقد قالوه في الجاهلية للمَلِكِ قال الحرث ابن حِلّزة

وهو الربّ والشَّهِيدُ عَلى يَوْ... مِ الحِيارَيْنِ والبَلاءُ بَلاءُ"650.

الربّ هو الذي يعود الأمر والملك إليه ويتولى عباده رعاية وعناية ورزقا وملكا وحكما وحفظا وعزة وسلاما وأمنا، وهو الذي يُدعى خوفا وطمعا وطاعة أنه المجيب على السؤال الحقّ بالحقّ.

الربّ الذي يُحمد على نعمه ورحمته هو ربّ العالمين، قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ الرّحمن الرّحيم مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ}651.

إذا الربّ الذي يُحمد على رحمته وفضله ونعمه هو ربّ العالمين إي ربّ الكافة ربّ الخلق كلّ الخلق من سماوات وأرضين وما فيهما وما بينهما وكلّ ما خلق حيث لا استثناء في خلقه، والربّ الذي يُحمد هو الربّ الذي يَرحم ويؤتي الملك لأنه يملك وهو الربّ الذي يُعبد ولا يشرك به أحدا وهو الربّ الذي يهدي إلى الصراط المستقيم.

ولأنّ الربّ واحد فكيف يحقّ للبعض أن يشرك معه ما يشرك أو أن يتخذ أربّابا من دونه، فذوي الألباب هم وحدهم الموقنون بأن الله واحد ولذا فهم لا يبتغون ربّا غيره وهو ربّ كلّ شيء، وإليه تُرجع الأمور كلّها، وهو المنبئ بما فيه النّاس يختلفون لأجلّ أن يتبيَّن الجميع الحقّ من الباطل في الدارين، فمن يتخذ سبيله هواه فقد ضل ومن

650 لسان العرب، ج 1، ص 399.

651 الفاتحة 2 ـ 7.

يهتدي فإنما يهتدي لنفسه وسيجد الله ربّا غفورا، قال تعالى: {قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي ربّا وَهُوَ ربّ كلّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كلّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ثُمَّ إِلَى ربّكُمْ مَرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آَتَاكُمْ إِنَّ ربّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ}[652].

وإنّه لمن الاستغراب أن يتخذ البعض أربّابا مخلوقة على النواقص من دون الله الربّ الأعظم، فالذين يتخذون البقرة معبودا أو الناقة معبودا أو القرد معبودا أو الشيطان معبودا أو النّار معبودا وغيرها كثير أستغربّ أن يتخذوا المنقوص معبودا ويتركون الكمال الذي ليس في حاجة كما هو حال الأربّاب من دونه، فالبقرة والناقة والقرد منقوصة وهي دائما في حاجة فهي تبول في الشارع وروثها متعفنٍ ويعفن الأمكنة التي تمر فيها أو تستقر فيها، وعندما تمرض يُستدعى لها الطبيب وعندما تحين الساعة تموت فلا تستطيع أن تنفع نفسها، وأقول كيف حال الذين يعبدون المخلوقات التي تُذبح وتؤكلّ وإذا انفردت بها السباع قضت عليها بكلّ يسرٍ فهل هذه تستحقّ أن تُعبد أم أن يُعبد الخالق الذي خلق كلّ شيء خلقا، خلق السّماوات السبع وخلق الأرض ورفع السّماء بغير عمدا تُرى واستوى على العرش ملكا وسلطانا وهيمنة وقوّة وقدرة، وسخّر الشمس والقمر والنجوم بأمره فله الحمد والشكّر على خلقه وأفضاله ونعمه وخيره، قال تعالى: {إِنَّ ربّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السّماوات وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى

[652] الأنعام 164، 165.

الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ ربّ الْعَالَمِينَ}653.

الربّ جلّ جلّاله واحدا أحدا بعث الأنبياء والرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم مبشرين وداعين للخير والإصلاح وإلى طاعة الله واتقائه فهم رُسُلا يبلغون رسالات ربّهم ربّ السّماوات والأرض ربّ العالمين وربّ كلّ ما خلق ولذا بَعث الله الرّسُل لينصحوا الضالين حتى يهتدوا إلى الصراط المستقيم فهم يعلمون من الله ما لا يعلم غيرهم ولهذا النّاس في حاجة للأنبياء والرّسُل الكرام حتى بعثهم الله برسالات من عنده بينت الضلالة من الهداية والحقّ من الباطل، إنّهم المرسلون الذين لا سفاهة بهم بل هم رُسُل مبلغون، قال تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ ربِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}654، وقال تعالى: {قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ}655.

إذا الرّسُل هم المرسلون من ربّ العالمين ليُبَلِّغوا ما أمروا بتبليغه وهو الحقّ المبين والله تعالى مُعصم رُسُله من النّاس، قال تعالى: {وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ}656، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرّسول بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ ربّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ

---

653 الأعراف 54.

654 الأعراف 61، 62.

655 الأعراف 67.

656 الأعراف 104.

رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النّاس إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ}657.

الربّ لا يطلق بالمطلق إلا على الذي لا ربّ من بعده فهو الذي يخلق ولا يُخلق يؤتي ولا يؤتى يَطعِم ولا يُطعَم، باق ولا يزول، فمن يتخذ ربّا من غيره سيجده مُتخلى عنه وقت الشدة والحاجة ويومها لا ينفع الندم، ومن يتبيَّن ويفكر ويتذكر فيما حوله وما يحاط به من معجزات لابدّ له وأن يتيقَّن الحقّ فيتبعه فعندما تيقَّنَ السحرة الذين جاء بهم فرعون لموسى عليه الصّلاة والسّلام وألقوا ما ألقوا وألقى موسى المعجزة التي كانت أمامهم آية تبينوا الحقّ من الباطل فاهتدوا فأمنوا بربّ العالمين الذي يعبده موسى وهارون ومن آمن من المؤمنين الذين أسلموا وجوههم لله ربّ العالمين، مصداقا لقوله ربّ موسى وهارون هو الربّ الأعلى تعالى: {وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ قَالُوا آمَنَّا بِربّ الْعَالَمِينَ ربّ مُوسَى وَهَارُونَ}658.

الربّ العظيم هو الذي له صراط الهداية الذي يحقّق العدل بين النّاس فيما هم فيه يختلفون وهو الصراط التي يهدي للتي هي أحسن، وهو الصراط الذي له من الفضائل الكريمة ما يكفي لتنظيم العلاقات بين الأفراد والشعوب والأقوام والأمم ولكن الذين يتخذون أربّابا بدون صراط فكيف لهم أن يتخذوهم أربّابا وهم لا يخلقون جناح بعوضة ولا ذبابة ولو اجتمعوا، قال تعالى: {وَهَذَا صِرَاطُ ربّكَ مُسْتَقِيمًا قَدْ فَصَّلْنَا الْآَيَاتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ}659، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا النّاس ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا

657 المائدة 67.

658 الأعراف 120 . 122.

659 الأنعام 117.

لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ}660.

الربّ أسم صفة من صفات الله تعالى جاء المرسلون داعين لربّ واحدٍ هو الله، ولهذا فهم لا يأمرون إلا بطاعته واتباع سبيله وهم يسخرون من الذين يتخذون من دونه أربّابا

قال تعالى: {مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنبوّة ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا عِبَادًا لِي مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ كُونُوا ربّانِيّينَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُونَ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَنْ تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيّينَ أَرباّبًا أَيَأْمُرُكُمْ بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ}661.

ولأن الرّسُل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم يدعون إلى ربّ واحدٍ فإن تولى البعض ممن يدعونهم عن عبادة الله ربّا واحدا فلا يقنطوا من فضل الله ورحمته فالله كفيل بالذين تولوا وعلى الأنبياء أن يشتدوا حرصا على الهداية إلى التوحيد لله ربّ العالمين، وعليهم أن يتوكلّوا على ربّ العرش العظيم، مصداقا لقوله تعالى: {فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَلّتُ وَهُوَ ربّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}662.

الله تعالى الذي أنزل القرآن كتابا مفصَّلا بالآيات المعجزات كافٍ لأن يُدافع عن آياته العظام حيث لا أحدا يستطيع أن يأتي مثلها ولهذا القرآن لا يُفترى فهو لا ريب فيه من ربّ العالمين، قال تعالى: {وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ

---

660 الحج 73.

661 آل عمران 79، 80.

662 التوبة 129.

الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ}663.

وعليه الربّ بالمطلق هو الله ولا ربّ غيره، قال تعالى: {قُلْ مَنْ ربّ السّماوات وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ}664.

وعليه نقول:

الربّ العظيم حتى أبالسة الجن به يؤمنون، ولهذا يستغربّ كيف يتخذ البعض من الذين خلقهم الله في أحسن تقويم يتخذون أربّابا من غير الله أو يتخذونها لتقربّهم إليه زلفي، قال تعالى: {قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}665.

فقول إبليس للربّ العظيم (ربّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ) يُفهم من هذا القول ضعف إبليس الذي أغوته المفسدات ويُفهم أن ما يُفسد هو عمل أبالسة، أي كلّ ما يغوي يجب أن يجتنب فهو لا خير فيه ومن لم يجتنبه سيجد نفسه في دائرة الآبالسة ملعونا عليه مع الملعونين.

ولأنّ تجربّة إغواء إبليس جعلته من المغضوب عليهم فلماذا لا يستفيد النّاس من هذه التجربّة التي أثبتت نتائجها بالخسران المبين،

---

[663] يونس 37.

[664] الرعد 16.

[665] الحجر 32. 40.

ولماذا لا يعلموا أن ما يغويهم إلى المفاسد هو عمل أبالسة فليتقوه ويجتنبوه وإلا سيكون حالهم كما كان حال إبليس عليه وعليهم اللعنة إلى أبد الابدّين.

الربّ هو الذي بيده الأمر فإن أراد شيء شاءه بالأمر (كن) فيكون كما شاءه كائنا، فإن شاء لشيء في الأرض كان، وإن شاء لشيء في السّماء كان، وإن شاء لشيء بينهما كان، وإن شاء لشيء من السّماء إلى الأرض كان منزّلا تنزيلا، فالأمر بيده وحده لا شريك له في الأمر والملك يفعل ما يريد وهو الفعَّال لم يريد سبحانه لا إله إلا هو الملك المتعال، قال تعالى: {وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ ربّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ ربّكَ نَسِيًّا ربّ السّماوات وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّ}[666].

الربّ هو العليم الذي لم يؤتنا من علمه إلا قليلا ولهذا ندعوه دائما ربّنا زدنا علما من علمك الواسع إنَّك علَّام الغيوب، قال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الحقّ وَلَا تَعْجلّ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ ربّ زِدْنِي عِلْمًا}[667].

ولأن الربّ واحد فكلّ في فلك يسبحون، ولو كان معه أربّابا أخرى لفسدت السّماوات والأرض وفسد كلّ شيء، فسبحان الله ربّ العرش العظيم، قال تعالى: {لَوْ كَانَ فِيهِمَا آَلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ ربّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ}[668].

---

[666] مريم 64، 65.

[667] طه 114.

[668] الأنبياء 22.

ومع أنّ الذين يعبدون أربّاب من دون الله يعلمون أن الخالق هو ربّ السّماوات والأرض ومع ذلك يتخذونهم أربّابا فيا ليتهم يتّقون، قال تعالى: {قُلْ مَنْ ربّ السّماوات السَّبْعِ وربّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}669.

الله تعالى هو الذي وصف نفسه بالربّ ووصف نفسه بربّ العرش العظيم وربّ العرش الكريم مصداقا لقوله تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الحقّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ربّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ ربّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ وَقُلْ ربّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ}670، وقال تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ ربّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}671.

ولأنّ الربّ هو الذي بيده الأمر (كن) فهو على كلّ شيء قدير، لقد بعث الأنبياء والرّسُل عليهم الصّلاة والسّلام تَتْرَى فأفرد رسولٍ واحدٍ للكافة هو سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام نبيا ورسولا فكان الرّسول الخاتم على الأرض للكافة ولا رسول غيره ولا رسول معه ولا نبيا معه في الزمان والمكان والرسالة فجاء ليتمم مكارم الأخلاق، قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَعْلَمُونَ}672.

وثنّى في المكان الواحد للشعب الواحد أو القوم الواحد في الزمن الواحد مثل موسى وهارون عليهما الصّلاة والسّلام وهما رسُولا شد الأزر والمشاركة في الأمر، قال تعالى: {وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي

---

669 المؤمنون 86، 87.

670 المؤمنون 116 . 118.

671 النمل 26.

672 سبأ 28.

هَارُونَ أَخِي اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي كَيْ نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى}673، وقال تعالى: {فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ ربّ الْعَالَمِينَ}674.

وجمع مجموعة من الأنبياء مع الرّسول الواحد وجمع رسولين في وقتٍ واحدٍ ولكن ليس في مكانٍ واحدٍ (إبراهيم في العراق وإسماعيل في مكة)، قال تعالى: {وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ ربّهِ مَرْضِيًّا}675.

وقد يتساءل البعض:

من هو ربّك؟

بالمطلق هو الله.

وبالنسبي هو الرّحمن الرّحيم الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق الرازق وهو كلّ الصفات الحسنى سبحانه لا إله إلا هو، قال تعالى: {وَإِنَّ ربّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرّحيم وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ ربّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ}676.

ولأنّ الربّ هو الله تعالى، فالله بالمطلق هو الربّ ولا ربّ غيره، ولهذا عندما نادى الله موسى عليه الصّلاة والسّلام قال له: {إِنِّي أَنَا

673 طه 29 . 36.

674 الشعراء 16.

675 مريم 53، 54.

676 الشعراء 191 . 193.

اللَّهُ ربّ الْعَالَمِينَ}677، ولهذا فالله هو الذي سمى نفسه ربّ العالمين.

ولأنّ الله هو ربّ العالمين نزَّل الكتاب بالحقّ تنزيلا لا ريب فيه، قال تعالى: {الم تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ ربّ الْعَالَمِينَ}678، ولأنّه ربّ العالمين فلا سلام إلا منه ولا رحمة إلا منه ولا رزقا إلا منه ولا ملكا إلا منه ولا سلطان إلا منه ولا علم ولا حكمة إلا منه ولا شيء إلا منه، قال تعالى: {سَلَامٌ قَوْلًا مِنْ ربّ رَحِيمٍ وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ}679.

الله جلّ جلّاله واحد لا شريك له ولهذا فهو الربّ الواحد الأحد ربّ السّماوات والأرض وما بينهما وربّ المشارق والمغاربّ وربّ العرش العظيم لا إله إلا هو سبحانه جلّ جلّاله، قال تعالى: {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ربّ السّماوات وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وربّ الْمَشَارِقِ}680، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ربّ السّماوات وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}681.

وعليه ما أجمل وأعظم قول (الحمد لله ربّ العالمين) على كلّ حال من الأحوال التي تكون في مرضاة الله عزّ وجلّ، أي نريد أن نُبيِّنَ أنَّه كلّما حُمِدَ الله قيل (ربّ العالمين) وهذا يدل على تلازم الصفة (ربّ) مع الاسم (الله) في كلّ حمدٍ كريم، قال تعالى: {وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ

---

[677] القصص 30.

[678] السجدة 1، 2.

[679] ياسين 58، 59.

[680] الصافات 4 . 5.

[681] ص 65، 66.

حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ ربِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالحقّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ}682.

ولأن الربّ هو السميع العليم المجيب قال تعالى: {وَقَالَ ربّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النّاس وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النّاس لَا يَشكّرُونَ ذَلِكُمُ اللَّهُ ربّكُمْ خَالِقُ كلّ شَيْءٍ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ كَذَلِكَ يُؤْفَكُ الَّذِينَ كَانُوا بِآَيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسّماء بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ ربّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ ربّ الْعَالَمِينَ هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمَّا جَاءَنِيَ الْبَيِّنَاتُ مِنْ ربِّي وَأُمِرْتُ أَنْ أُسْلِمَ لِربّ الْعَالَمِينَ}683.

ولأنّ الربّ واحد لا شريك له فهو الذي يحيي ويميت ويبعث يوم البعث وهو الذي يحاسب فيعاقب أو يثيب وهو الذي يُدخل الجنّة ويدخل النّار وهو الغفور الودود ذو العرش المجيد فعّال لما يريد وهو على كلّ شيء قدير، قال تعالى: {رَحْمَةً مِنْ ربّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ربّ السّماوات وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ ربّكُمْ وربّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ}684، وقال تعالى:

---

[682] الزمر 75.

[683] غافر 60 . 66.

[684] الدخان 6 . 8.

{وَاذْكُرِ اسْمَ ربّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ربّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْربّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}685.

ولأنّ البعض من الخلق قد اتخذ من دون الله أربّابا، قال تعالى: {فَقَالَ أَنَا ربّكُمُ الْأَعْلَى}686، ولأن الإجابة جاءت مطلقة من الله تعالى أنه الربّ الأعلى على كلّ الأربّاب التي اتخذت من دونه لتعبد فلماذا لا يُتخذ بالمطلق ربّا واحدا أعلى هو الله الذي لم يتخذ صاحبة ولا ولد ولم يكن له كفؤا أحدا، ولماذا لا نُسبِّحه كثيرا ونذكره كثيرا ونعظِّمه كثيرا مصداقا لقوله تعالى: {سَبِّحِ اسْمَ ربّكَ الْأَعْلَى}687، وقال تعالى: {فَسَبِّحْ بِاسْمِ ربّكَ الْعَظِيمِ}688.

ولأنّ الله تعالى هو الخالق الأعلى، فالخالق الأعلى يَخلِق ولا يُخلَق، فتبارك الله أحسن الخالقين، ولهذا يسبّحَهُ الخليفة كثيرا وتسبّحه المخلوقات الأخرى بما هُيأت عليه، قال تعالى: {سَبِّحِ اسم ربّكَ الْأَعْلَى الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى فَجَعَلَهُ غُثَاءً أَحْوَى سَنُقْرِئُكَ فَلَا تَنْسَى إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفي وَنُيَسِّرُكَ لِلْيُسْرَى فَذَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى الَّذِي يَصلّى النّار الْكُبْرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى وَذَكَرَ اسم ربّهِ فَصلّى بلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى}689. فسبح اسم ربّك الأعلى، تتطلب مُسبّحا باسمه تعالى، ولهذا فعندما يقال للخليفة سبح اسم ربّك الأعلى، ليس له بدا

---

[685] المزمل 8، 9.

[686] النازعات 24.

[687] الأعلى 1.

[688] الواقعة 74.

[689] الأعلى 1 . 19.

إلا أن يقول: (سبحان الله)، فالله هو الربّ الأعلى، ولا ربّ سواه، ولذا فسبِّح اسم ربّك الأعلى وأذكره يقينا واحدا أحدا.

وعليه كان الأمر بتسبيحه تعالى يستوجب على المسبِّحِ به بأن يقول: (سبحان الله) وذلك لأنه لا ربّ أعلى غيره، وهكذا يكون التتابع واليقين في التسبيح باسمه تعالى.

وعودا على سورة الأعلى، نلاحظ أمر التوكيد على اسمه الأعلى، (الله جلّ جلّاله وهو الاسم الأعظم) فسبحان الله، سبحان الله، سبحان الله كلّما تكررت أكدت وعضَّدت الإيمان فسبحان الله ربّ الأعلى.

إذن استجابة للأمر المطلق، (سَبِّحِ اسم ربّكَ الْأَعْلَى) يتطلب التسبيح باسمه جلّ جلّاله.

وهكذا قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) يستوجب التسبيح باسمه، فالذي خلق فسوى تستوجب اعتراف المؤمن بقدرته على الخلق وهو المعجزة الكبرى، وهذه المعجزة الكبرى تستوقف الخليفة المؤمن ممّا يجعله في حالة تأمل ويقين بقوله سبحان الله، ولهذا قوله تعالى: (سَبِّحِ اسم ربّكَ الْأَعْلَى) يستوجب التسبيح باسمه (الله) وهكذا قوله تعالى: (الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى) يستوجب التسبيح باسمه تعالى (الله).

وكذلك قوله تعالى: (وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَى) فالذي قدَّر وهدى هو الله، وهو الربّ الأعلى الذي يستوجب ذكره والتسبيح باسمه جلّ جلّاله، ولأنّ الذي قدَّر فهدى هو (الله) فسبحانه كيف قدَّر وكيف هدى، ولذا فمن يتأمل في خلقه وهدايته لِما خلق ليس له بدّا إلا أن يقول سبحان الله على ما قدَّرَ وهدى.

(وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى)، هو الله لا إله غيره، ولهذا سبحان الله الذي أخرج المرعى، أي سبحانه الذي خلق النبات نعمة واسعة منه ليكون للحياة معنى وللطبيعة كسوة من البهاء والجمال، فسبحانه على ما خلق وسبحانه على ما أخرج ممّا خلق، ولذا فالذي أخرج المرعى هو الله الذي يستوجب التسبيح باسمه جلّ جلّاله، ولهذا كيف أخرج المرعى معجزة تستوقف المؤمن لأنّ يذكره بقوله: (سبحان الله).

وعلى الخليفة أن يتعظ بدعاء إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام في قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ربّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آَمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ربّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النّاس فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ربّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ربّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النّاس تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشكّرُونَ ربّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السّماء الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ ربّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ربّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي ربّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ربّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ}690.

وعلى الخليفة أن يدعو الله مخلصا له الدين في طاعة والدين في غير معصية لله ربّ العالمين وأن يعمل على رعايتهما والأخذ بيديهما والإحسان إليهما طاعة لله فيما قال في كتابه العزيز: {وَقَضَى ربّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كلّاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ

690 إبراهيم 35 ـ 42.

لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرّحمة وَقُلْ ربّ ارْحَمْهُمَا كَمَا ربّيَانِي صَغِيرًا ربّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا وَآتِ ذَا الْقُربَى حقّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِربّهِ كَفُورًا} 691.

اللهم ربّ العرش العظيم وربّ السّماوات والأرضين وربّ ما خلقت وأنت أحسن الخالقين أن تهب لنا حكما وتلحقّنا بالصالحين وأن تجعل لنا لسان صدقٍ في الآخرين وأن تجعلنا من ورثت جنَّة النعيم وأن تغفر لآبائنا ولا تخزنا يوم يُبعثون يوم لا ينفع مالُ ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

اللهم ربّ أدعوك بدعاء نوح عليه الصّلاة والسّلام: (ربّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا إِنَّكَ إِنْ تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ربّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَنْ دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا).

اللهم ربّنا ندعوك بدعاء سيدنا محمّد عليه الصّلاة والسّلام (ربّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا ربّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا ربّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلَانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ).

سُبْحَانَ ربّكَ ربّ العزّة عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ ربّ الْعَالَمِينَ.

قال تَعَالَى {سَلَامٌ عَلَى إِلْ يَاسِينَ} 692 تَنْبِيه لفظ السَّلَام فِي نَحْو هَذِه الْجُمْلَة خبر مُرَاد بِهِ الْإِنْشَاء والطلب على الْأَصَح والطلب

---

[691] الإسراء 23، 27.

[692] الصافات 130.

يَسْتَدْعِي مَطْلُوبا مِنْهُ وَطَلَبه تَعَالَى من غَيره محَال فَالْمُرَاد بسلامه تَعَالَى على عباده إِمَّا بشارتهم بالسّلامة وَإِمَّا حقّيقَة الطّلب فَكَأَنَّهُ طلب من نَفسه إِذْ سَلَامه تَعَالَى يرجع لكلّامه النَّفْسِيّ الأزلي وتضمّنه الطّلب مِنْهُ لإنالة السَّلامَة الْكَامِلَة للْمُسلّمِ عَلَيْهِ غير محَال إِذْ هُوَ طلب نَفسِي مُقْتَض لتَعلق الْإِرَادَة بِهِ والطلب من النَّفس مَعْقُول يُعلمهُ كلّ أحد من نَفسه فَالْحَاصِل أَنّه تَعَالَى طلب لَهُم مِنْهُ إنالتهم السَّلامَة الْكَامِلَة فَيتَعَلَّق ذَلِك بهم فِي الْوَقْت الَّذِي أَرَادَ الله تَعَالَى تخصيصهم بِهِ كَمَا فِي أمره وَنَهْيه المتعلقين بِنَا مَعَ قدمهما693

ومع أنّ إلياس نبي الله لا يدعو إلّا إلى توحيده تعالى، فهو كغيره من الأنبياء عليهم الصّلاة والسّلام تعرّض لما تعرّض له الجميع من تسفيه وسبّ وسخرية وأوصاف ما أنزل الله بها من سلطان، ومع ذلك انتصروا ورسالاتهم انتصرت والحمد لله ربّ العالمين.

وعليه حاول بنو إسرائيل قتل نبي الله إلياس عليه السّلام، ممّا اضطره إلى الهربّ والاختباء منهم؛ لأنّهم تركوا عهد الله وقتلوا أنبياءه: "وكان كلّام الربّ يقول له: مالك ههنا يا إيليا؟ فقال: قد غرت غيره للربّ إليه الجنود؛ لأنّ بني إسرائيل قد تركوا عهدك ونقضوا مذابحك، وقتلوا أنبياءك بالسيف؛ فبقيت أنا وحدي، وهم يطلبون نفسي ليأخذوها"694

693 الصواعق المحرقة على أهل الرفض والضلال والزندقة، 2، ص 435.

694 وسطية أهل السنة بين الفرق، ص 270.

ومع كلّ ما تعرّض له إلياس من محاولات لقتله، فاليهود منهم من يعتقد أنّ إلياس حيا لهذا اليوم، "إن إلياس عليه السّلام، وفنحاس بن العازار بن هارون – عليه السلام – أحياء إلى اليوم"695

أمّا أخرون من اليهود فيعتقدوا أنّ إلياس قد صعد إلى السّماء وسيعود ثانية، وذلك وفقا لقولهم: "صعد النبي إلياس عليه السّلام إلى السّماء، وسيعود؛ فيعيد الدين والقانون"696، ووجدت فكرة الظهور هذه لدى الشيعة (الإمام المنتظر) وكذلك فكرة الظهور هذه قد سبق وأن ظهرت في النصرانية في عصورها الأولى.

عبادات البعل من دون الله:

ولقد حدثتنا نصوص العهد القديم عند اليهود في أكثر من مكان عن تسربّ عبادة البعل إلى اليهود، وذكر ذلك القرآن على لسان إلياس عليه السّلام: {أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ}697، وكان البعل هو الصّنم الذي تنسب إليه مدينة بعلبك في بلاد الشام، ومن بلاد الشام أخذ عمرو بن لحي عبادة الأصنام وأدخلها إلى مكة، ومنها انتشرت في جزيرة العربّ698.

قَالَ الْحسن رَضِي الله عَنهُ: "وَإِن الَّذِي زين لذَلِك الْملك امْرَأَته وَكَانَت قبله تَحت ملك جَبَّار وَكَانَ من الكنعانيين فِي طول وجسم وَحسن فَمَاتَ زَوجهَا فاتخذت تمثالا على صُورَة بَعْلهَا من الذَّهَب وَجعلت لَهُ حدقتين من ياقوتتين وتوّجته بتاج مكلّل بالدّر والجوهر ثمَّ أقعدته على سَرِير تدخل عَلَيْهِ فتدخنه وتطيبه وتسجد لَهُ ثمَّ تخرج عَنهُ

695 أصول مذهب الشيعة الإمامية الإثني عشرية، 1، ص 83.

696 الشيعة والتشيع – فرق وتاريخ، ص 61.

697 الصافات 125.

698 الأساس في السنة وفقهها، العقائد الإسلامية، 2، ص 619.

فَتزوّجت بعد ذَلِك هَذَا الْملك الَّذِي كَانَ إلْيَاس مَعَه وَكَانَت فاجرة قد قهرت زَوجهَا وَوضعت البعل فِي ذَلِك الْبَيْت وَجعلت سبعين سادنا؛ فعبدوا البعل فَدَعَاهُمْ إلْيَاس إِلَى الله فَلم يزدهم ذَلِك إِلَّا بعدا؛ فَقَالَ إلْيَاس: اللَّهُمَّ إِن بني إِسْرَائِيل قد أَبَوا إِلَّا الْكفْر بك وَعبادَة غَيْرك فَغير مَا بهم من نِعْمَتك فَأوحى الله إِلَيْهِ: إِنِّي قد جعلت أَرْزَاقهم بِيَدِك؛ فَقَالَ: اللَّهُمَّ أمسك عَنْهُم الْقطر ثَلَاث سِنِين فَأمْسك الله عَنْهُم الْقطر وَأرْسل إِلَى الْملك فتاه اليسع فَقَالَ: قل لَهُ إِن إلْيَاس يَقُول لَك أَنَّك اخْتَرْت عبَادَة البعل على عبَادَة الله وَاتَّبَعت هوى امْرَأَتك فاستعد للعذاب وَالْبَلَاء فَانْطَلق اليسع فَبلغ رِسَالَته للْملك فعصمه الله تَعَالَى من شَرّ الْملك وَأمْسك الله عَنْهُم الْقطر حَتَّى هَلَكت الْمَاشِيَة وَالدَّوَاب وَجهد النَّاس جهدا شَدِيدا"[699]

وَخرج إلْيَاس إِلَى ذرْوَة جبل "فَكَانَ الله يَأْتِيهِ برزقه وفجّر لَهُ عينا معينا لشرابه وَطهُوره حَتَّى أصَاب النَّاس الْجهد فَأرْسل الْملك إِلَى السّبْعين فَقَالَ لَهُم: سلوا البعل أَن يفرّج مَا بِنَا فأخرجوا أصنامهم فقربّوا لَهَا الذَّبَائِح وعطفوا عَلَيْهَا وَجعلُوا يدعونَ حَتَّى طَال ذَلِك بهم فَقَالَ لَهُم الْملك: إِنّ إِلَه إلْيَاس كَانَ أسْرع إِجَابَة من هَؤُلَاءِ فبعثوا فِي طلب إلْيَاس فَأتى فَقَالَ: أتحبّون أَن يفرج عَنْكُم قَالُوا: نعم

قَالَ: فاخرجوا أوثانكم فَدَعَا إلْيَاس عَلَيْهِ السَّلَام ربّه أَن يفرج عَنْهُم فارتفعت سَحَابَة مثل الترس وهم ينظرُونَ ثمَّ أرسل الله عَلَيْهِم الْمَطَر فأغاثهم فتابوا وَرَجَعُوا"[700]

---

[699] الدر المنثور في التفسير بالمأثور، 7، ص 116.

[700] المرجع السابق.

مقتل العبد الصّالح وفتنة الملك؟:

كان للملك لأجب جار من بني إسرائيل، (رجلٌ صالح) يقال له: (مزدكي) وكانت له جُنينة يعيش منها ويقبل على عمارتها ويزيّنها، وكانت الجنينة إلى جانب قصر الملك وامرأته، وكانا يشرفان على تلك الجنينة يتنزهان فيها ويأكلّان ويشربّان ويقيلان فيها، وكان أجب الملك مع ذلك يحسن إليه، وامرأته أزبيل تحسده على ذلك لأجلّ تلك الجنينة، وتحتال في أن تغصبها إيذاه لما تسمع النّاس يكثرون ذكر الجنينة ويتعجبون من حسنها، ويقولون: ما أحرى أن تكون هذه الجنينة لأهل هذا القصر! ويتعجبون من الملك وامرأته كيف لم يغصباها صاحبها. فلم تزل امرأة الملك تحتال على العبد الصّالح مزدكي في أن تقتله وتأخذ جنينة والملك ينهاها عن ذلك فلا تجد عليه سبيلا701.

بعث الله تعالى إلياس عليه السّلام، إلى أجب الملك وقومه وأمره أن يخبرهم أنّ الله سبحانه قد غضب لوليّه حين قتلوه بين أظهرهم ظلما، وآلى على نفسه أنّهما إن لم يتوبا عن صنعهما ولم يردّا الجنينة على ورثة مزدكي أن يهلكهما- يعني أجب وامرأته- في جوف الجنينة أشرّ ما يكونان بسفك دميهما، ثمّ يدعهما جيفتين ملقاتين فيها حتى تتعرّى عظامهما من لحومهما ولا يمتّعان بها إلّا قليلا.

قال: فجاء إلياس وأخبره بما أوحى الله تعالى إليه في أمره وأمر امرأته والجنينة، فلما سمع الملك ذلك اشتدّ غضبه عليه ثم قال له: يا إلياس والله ما أرى ما تدعو إليه إلّا باطلا، والله ما أرى فلانا وفلانا، سمى ملوكا منهم قد عبدوا الأوثان- إلّا على مثل ما نحن عليه يأكلّون

---

701 تفسير الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 8، ص 159.

ويشربّون ويتنعّمون مملكين ما ينقص من دنياهم ولا من أمرهم الذي تزعم أنّه باطل، وما نرى لكم علينا ولا عليهم من فضل702.

قال: وهمّ الملك بتعذيب إلياس وقتله، فلمّا سمع إلياس ذلك وأحسّ بالشرّ، رفضه وخرج عنه، فلحقّ بشواهق الجبال، وعاد الملك إلى عبادة بعل. فارتقى إلياس أصعب جبل وأشمخه، فدخل مغارة فيه، فيقال: إنّه قد بقي فيه سبع سنين شريدا طريدا خائفا يأوي إلى الشعاب والكهوف يأكلّ من نبات الأرض وثمار الشجر، وهم في طلبه قد وضعوا عليه العيون، يتوقّعون أخباره ويجتهدون في أخذه، والله سبحانه وتعالى يستره ويدفع عنه. فلما تمّ له سبع سنين أذن الله تعالى في إظهاره عليهم وشفاء غيظه منهم، فأمرض الله سبحانه ابن الملك لأجب- وكان أحبّ ولده إليه، وأعزّهم عليه، وأشبههم به- فأدنف حتى يئس منه، فدعا صنمه بعلا- وكانوا قد فتنوا ببعل وعظّموه، حتى جعلوا له أربّعمائة سادن فوكلّوهم به وجعلوهم أمناءه، فكان الشيطان يدخل في جوف الصّنم فيتكلّم بأنواع الكلّام، وأربّعمائة يصغون بآذانهم إلى ما يقول الشيطان، ويوسوس إليهم الشيطان بشريعة من الضلال فيكتبونها للناس فيعملون بها، ويسمونهم الأنبياء703.

فلما اشتدّ مرض ابن الملك طلب إليهم الملك أن يتشفعوه إلى بعل ويطلبوا لابنه من قبله الشفاء والعافية فدعوه فلم يجبهم، ومنع الله بقدرته الشيطان عن صنمهم فلم يمكنه الولوج في جوفه ولا الكلّام، وهم مجتهدون في التضرّع إليه وهو لا يزداد إلّا خمودا. فلما طال عليهم ذلك قالوا لأجب: إنّ في ناحية الشّام آلهة أخرى، وهي في العظم

---

702 المرجع السابق ص 160.

703 تفسير الثعلبي، الكشف والبيان عن تفسير القرآن، 8، ص 160.

مثل إلهك، فابعث إليها الأنبياء ليشفعوا لك إليها، فلعلّها أن تشفع لك إلى إلهك بعل، فإنه غضبان عليك، ولولا غضبه عليك لكان قد أجابك وشفي لك ابنك.«5»

قال أجب: ومن أجلّ ماذا غضب عليّ، وأنا أطيعه وأطلب رضاه منذ كنت، لم أسخطه ساعة قط؟ قالوا: من أجلّ أنّك لم تقتل إلياس، وفرّطت فيه حتى نجا سليما، وهو كافر بإلهك، يعبد غيره، فذلك الذي أغضبه عليك. قال أجب: وكيف لي أن أقتل إلياس يومي هذا، وأنا مشغول عن طلبه بوجع ابني؟ فليس لإلياس مطلب، ولا يعرف له موضع فيقصد، فلو عوفي ابني تفرّغت لطلبه، ولم يكن لي همّ ولا شغل غيره حتى آخذه فاقتله، فأريح إلهي منه وأرضيه.

قال: ثم إنّه بعث أنبياءه الأربّعمائة ليشفعوا إلى الآلهة التي بالشام، ويسألوها أن تشفع إلى صنم الملك ليشفي ابنه. فانطلقوا حتى إذا كانوا بحيال الجبل الذي فيه إلياس، أوحى الله سبحانه إلى إلياس أن يهبط من الجبل ويعارضهم ويستوقفهم ويكلّمهم، وقال له: "لا تخف فإنّي سأصرف عنك شرّهم، وألقي الرّعب في قلوبهم"؛ فنزل إلياس من الجبل، فلما لقيهم استوقفهم، فلمّا وقفوا، قال لهم: «إنّ الله سبحانه أرسلني إليكم وإلى من وراءكم، فاسمعوا أيّها القوم رسالة ربّكم لتبلغوا صاحبكم، فارجعوا إليه وقولوا له: إنّ الله يقول لك: ألست تعلم يا أجب

أنّي أَنَا اللَّهُ لا إِلهَ إِلَّا أَنَا إله بني إسرائيل الذي خلقهم ورزقهم وأحياهم وأماتهم، أفجهلك وقلة علمك حملك على أن تشرك بي، وتطلب الشفاء لابنك من غيري ممن لا يملكون لأنفسهم شيئا إلّا ما شئت؟ إنّي حلفت باسمي لأغيظنّك في ابنك ولأميتنه في فوره هذا حتى تعلم أنّ أحدا لا يملك له شيئا دوني».

فلما قال لهم هذا رجعوا، وقد ملئوا منه رعبا، فلما صاروا إلى الملك قالوا له ذلك وأخبروه بأنّ إلياس انحط عليهم وهو رجلٌ نحيف طويل، قد قشف وقحل وتمعط شعره وتقشر جلّده، عليه جبّة من شعر وعباءة قد خللها على صدره بخلال، فاستوقفنا، فلما صار معنا قذفت له في قلوبنا الهيبة والرعب، وانقطعت ألسنتنا، ونحن في هذا العدد الكبير وهو واحد، فلم نقدر على أن نكلّمه ونراجعه ونملأ أعيننا منه، حتى رجعنا إليك، وقصّوا عليه كلّام إلياس، فقال أجب: لا ينتفع بالحياة ما كان إلياس حيّا، ما الذي منعكم أن تبطشوا به حين لقيتموه وتوثقوه وتأتوني به، وأنتم تعلمون أنه طلبي وعدوّي؟ فقالوا: قد أخبرناك ما الذي منعنا منه ومن كلّامه والبطش به. قال أجب: ما يطاق إذن إلياس إلّا بالمكر والخديعة704.

فقيّض له خمسين رجلّا من قومه من ذوي القوّة والبأس، وعهد إليهم عهده وأمرهم بالاحتيال عليه والاعتناء به، وأن يطعموه في أنّهم قد آمنوا به هم ومن وراءهم ليستنيم إليهم ويغترّ بهم فيمكنهم من نفسه، فيأتوا به ملكهم. فانطلقوا حتى ارتقوا ذلك الجبل الذي فيه إلياس عليه السلام، ثم تفرّقوا فيه وهم ينادونه بأعلى أصواتهم، ويقولون: يا نبي الله ابرز لنا وأشرف بنفسك فإنّا قد آمنّا بك وصدقناك، وملكنا أجب وجميع قومنا، وأنت آمن على نفسك، وجميع بني إسرائيل يقرءون عليك السلام ويقولون: قد بلّغتنا رسالة ربّك وعرفنا ما قلت وآمنا بك، وأجبناك إلى ما دعوتنا فهلمّ إلينا، فأنت نبينا ورسول ربّنا، فأقم بين أظهرنا واحكم فينا، فإنا ننقاد لما أمرتنا وننتهي عما نهيتنا، وليس يسعك أن تتخلف عنا مع إيماننا وطاعتنا، فتداركنا وارجع إلينا، وكلّ هذا كان منهم ممّاكرة وخديعة.

704 المرجع السابق 161.

فلما سمع إلياس مقالتهم وقعت بقلبه، وطمع في إيمانهم وخاف الله، وأشفق من سخطه إن هو لم يظهر ولم يجبهم بعد الذي سمع منهم، فلمّا أجمع على أن يبرز لهم، رجع إلى نفسه فقال: لو أنّي دعوت الله سبحانه وتعالى وسألته أن يعلمني ما في أنفسهم ويطلعني على حقّيقة أمرهم، وذلك أنّ الله سبحانه وفقه وألهمه التوقّف والدعاء والتحرز، فقال: اللهم إن كانوا صادقين فيما يقولون فأذن لي في البروز إليهم، وإن كانوا كاذبين فاكفنيهم وارمهم بنار تحرقهم؛ فما استتمّ قوله حتى حصبوا بالنّار من فوقهم أجمعين.705.

قال: وبلغ أجب وقومه الخبر فلم يرتدع من همّه بالسّوء، واحتال ثانيا في أمر إلياس، وقيّض فئة أخرى مثل عدد أولئك، وأقوى منهم وأمكن من الحيلة والرأي فأقبلوا حتى توغلوا في تلك الجبال. متفرّقين، وجعلوا ينادون: يا نبي الله إنّا نعوذ بالله وبك من غضب الله وسطواته، إنّا لسنا كالذين أتوك قبلنا، إنّ أولئك فرقة نافقوا وخالفوا، فصاروا إليك ليكيدوا بك من غير رأينا ولا علمنا، وذلك أنّهم حسدونا وحسدوك وخرجوا إليك سرّا، ولو علمنا بهم لقتلناهم ولكفيناك مؤونتهم، والآنّ فقد كفاك ربّك أمرهم وأهلكهم بسوء نياتهم وانتقم دونك منهم. فلما سمع إلياس مقالتهم دعا الله بدعوته الأولى، فأمطر عليهم النّار فاحترقوا عن آخرهم706.

وفي كلّ ذلك ابن الملك في البلاء الشديد من وجعه كما وعده الله سبحانه وتعالى على لسان نبيّه إلياس، لا يقضى عليه فيموت ولا يخفف عنه من عذابه، فلمّا سمع الملك بهلاك أصحابه ثانيا ازداد غضبا إلى غضب، وأراد أن يخرج في طلب إلياس بنفسه إلّا أنّه شغله

---

[705] المصدر السابق 162.

[706] المصدر السابق 163.

عن ذلك مرض ابنه، فلم يمكنه، فوجه نحو إلياس الكاتب المؤمن الذي هو كاتب امرأته، رجاء أن يأنس به إلياس، فينزل معه وأظهر للكاتب أنّه لا يريد بإلياس سوءا، وإنما أظهر له ذلك لما اطّلع عليه من إيمانه، وأنّ الملك مع اطلاعه على إيمانه كان مغضيا عنه لما هو عليه من الأمانة والكفاءة والحكمة وسداد الرأي والبصر بالأمور فلما وجّهه نحوه أرسل معه فئة من أصحابه، وأوعز إليهم دون الكاتب أن يوثقوا إلياس ويأتوه به إن أراد التخلف عنهم، وإن جاء مع الكاتب واثقا به آنسا لمكانته لم يوحشوه ولم يرّوعوه. ثم أظهر للكاتب الإنابة، وقال له: إنه قد آن لي أن أتوب واتّعظ، وقد أصابتنا بلايا من حريق أصحابنا، والبلاء الذي فيه ابني، وقد عرفت أنّ ذلك بدعوة إلياس، ولست آمن أن يدعو على جميع من بقي منا فنهلك بدعوته، فانطلق لنا إليه وأخبره أنّا قد تبنا وأنبنا، وإنّه لا يصلحنا في توبتنا، وما نريد من رضا ربّنا وخلع أصنامنا إلّا أن يكون إلياس بين أظهرنا، يأمرنا وينهانا، ويخبرنا بما يرضي ربّنا.

قال: وأمر قومه فاعتزلوا الأصنام وقال له: أخبر إلياس أنّا قد خلعنا آلهتنا التي كنّا نعبد وأرجأنا أمرها حتى ينزل إلياس إلينا فيكون هو الذي يحرقها ويهلكها، وكان ذلك مكرا من الملك. فانطلق الكاتب والفئة حتى علا الجبل الذي فيه إلياس، ثم ناداه، فعرف إلياس صوته، فتاقت نفسه إليه وأنس به وكان مشتاقا إلى لقائه.

قال: وأوحى الله سبحانه وتعالى إلى إلياس أن انزل إلى أخيك الصّالح، فالقه وجدد العهد به. فنزل إليه وسلّم عليه وصافحه وقال له: ما الخبر؟ فقال المؤمن: إنّه بعثني إليك هذا الجبار الطاغية وقومه، ثم قصّ عليه ما قالوا، ثم قال له: إنّي لخائف إن رجعت إليه ولست معي أن يقتلني، فمرني بما شئت أفعله وأنتهي إليه، وإن شئت

انقطعت إليك فكنت معك وتركته، وإن شئت جاهدته معك، وإن شئت ترسلني إليه بما تحبّ فأبلغه رسالتك، وإن شئت دعوت ربّك فجعل لنا من أمرنا فرجا ومخرجا.

قال: فأوحى الله سبحانه إلى إلياس أنّ كلّ شيء جاءك منهم مكّر وكذب ليظفروا بك، وإنّ أجب إن أخبرته رسله أنّك قد لقيت هذا الرّجلّ ولم يأت بك إليه اتهمه وعرف أنّه قد داهن في أمرك فلم يأمن أن يقتله فانطلق معه، فإنّ انطلاقك معه عذره وبراءته عند أجبّ، وإنّي سأشغل عنكما أجب، فأضاعف على ابنه البلاء حتى لا يكون له همّ غيره ثم أميته على شرّ حال، فإذا مات هو فارجع عنه ولا تقم[707].

قال: فانطلق معهم حتى قدموا عليه شدّد الله الوجع على ابنه وأخذ الموت يكظمه فشغل الله بذلك أجب وأصحابه عن إلياس، ورجع إلياس سالما إلى مكانه. فلما مات ابن أجب، وفرغوا من أمره وقلّ جزعه، انتبه لإلياس وسأل عنه الكاتب الذي جاء به، فقال: ليس لي به علم وذلك أنّه شغلني عنه موت ابنك والجزع عليه ولم أكن أحسبك إلّا وقد استوثقت منه؛ فأضربّ عنه أجب وتركه لما كان فيه من الجزع على ابنه.

فلما طال الأمر على إلياس ملّ المكث في الجبال والمقام بها واشتاق إلى العمران والنّاس، نزل من الجبل وانطلق حتى نزل بامرأة من بني إسرائيل، وهي أمّ يونس بن متّى ذي النون، فاستخفي عندها ستة أشهر ويونس بن متى يومئذ مولود يرضع، وكانت أمّ يونس تخدمه بنفسها وتواسيه بذات يدها ولا تدّخر عنه كرامة تقدر عليها.

---

[707] المصدر السابق 164.

قال: ثم إنّ إلياس سئم ضيق البيوت بعد تعوده فسحة الجبال دوحها فأحبّ اللّحوق بالجبال، فخرج وعاد إلى مكانه، فجزعت أمّ يونس لفراقه وأوحشها فقده ثم لم تلبث إلّا يسيرا حتى مات ابنها حين فطمته، فعظمت مصيبتها فيه، فخرجت في طلب إلياس فلم تزل ترقى الجبال وتطوف فيها حتى عثرت عليه ووجدته فقالت له: إنّي قد فجعت بعدك بموت ابني فعظمت فيه مصيبتي واشتد لفقده بلائي وليس لي ولد غيره فارحمني وادع ربّك جلّ جلّاله ليحيي لي ابني ويجبر مصيبتي، وإني قد تركته مسجّى لم أدفنه، وقد أخفيت مكانه. فقال لها إلياس: "ليس هذا ممّا أمرت به، وإنّما أنا عبد مأمور أعمل بما يأمرني ربّي، ولم يأمرني بهذا» فجزعت المرأة وتضرعت، فأعطف الله سبحانه قلب إلياس لها، فقال لها: «ومتى مات ابنك؟" قالت: منذ سبعة أيام708.

فانطلق إلياس معها وسار سبعة أخرى حتى انتهى إلى منزلها فوجد ابنها يونس بن متّى ميتا منذ أربّعة عشر يوما، فتوضأ وصلّى ودعا فأحيا الله يونس بن متّى بدعوة إلياس. فلما عاش وجلّس، وثب إلياس وانصرف وتركه وعاد إلى موضع ما كان فيه. فلما طال عصيان قومه ضاق بذلك إلياس ذرعا وأجهده البلاء، قال: فأوحى الله سبحانه إليه بعد سبع سنين وهو خائف مجهود: "يا إلياس ما هذا الحزن والجزع الذي أنت فيه؟ ألست أميني على وحيي، وحجّتي في أرضي، وصفوتي من خلقي؟ فسلني أعطك فإني ذو الرّحمة الواسعة والفضل العظيم" قال: "تميتني فتلحقّني بآبائي فإني قد مللت بني إسرائيل وملّوني، وأبغضتهم فيك وأبغضوني"؛ فأوحى الله سبحانه إليه: "يا إلياس، ما هذا باليوم الذي أعري منك الأرض وأهلها، وإنما

708 المرجع السابق 164.

قوامها وصلاحها بك وأشباهك وإن كنتم قليلا، ولكن تسألني فأعطيك"709.

قال إلياس: "فإن لم تمتني يا إلهي فأعطني ثأري من بني إسرائيل". قال الله سبحانه: وأي شيء تريد أن أعطيك يا إلياس؟" قال: "تمكّنّي من خزائن السّماء سبع سنين فلا تنشأ عليهم سحابة إلّا بدعوتي، ولا يمطر عليهم سبع سنين قطرة إلّا بشفاعتي، فإنّهم لا يذلّهم إلّا ذلك". قال الله سبحانه وتعالى: "يا إلياس، أنا أرحم بخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين». قال: «فستّ سنين". قال: "أنا أرحم بخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين".

قال: "فخمس سنين". قال: "أنا أرحم بخلقي من ذلك وإن كانوا ظالمين، ولكنّي أعطيك ثأرك ثلاث سنين، أجعل خزائن المطر بيدك، ولا تنشأ عليهم سحابة إلّا بدعوتك، ولا ينزل عليهم قطرة إلّا بشفاعتك". قال إلياس: "فبأي شيء أعيش؟" قال: "أسخّر لك جنسا من الطير ينقل إليك طعامك وشرابك من الريف والأرض التي لم تقحط".

قال إلياس: "قد رضيت".

قال: فأمسك الله عنهم المطر حتى هلكت الماشية والدواب والهوام والشجر، وجهد النّاس جهدا شديدا، وإلياس على حالته مستخف من قومه يوضع له الرّزق حيثما كان، وقد عرفه بذلك قومه، فكانوا إذا وجدوا ريح الخبز في البيت قالوا: لقد دخل إلياس هذا المكان، فطلبوه ولقي منهم أهل ذلك المنزل شيئا710.

---

709 المصدر السابق 165.

710 المصدر السابق، 166.

وعليه فإلياس يعلم أنّه لا مجيب لطلب الضرر إلّا الضّار جلّ جلّاله، وهو عندما يدعو الضّار أن ينزل ضررا بمن يريد أن يلاحقّه بضرر من عبدة الأصنام تكون الاستجابة ضررا بهم، وهذا الذي الحقّ بني إسرائيل الذين يلاحقّون النبي إلياس ليقبضوا عليه وليأتوا به للملك الظالم.

ولهذا فإنّ دعاء إلياس مجاب ضرر بمن أراد به ضررا، ذلك لأنّ الضّار هو النافع جلّ وعلا، وهو الضار "لمن فعل الأسباب التي توجب ذلكٍ"711.

في أَسماء الله تعالى "النَّافِعُ الضَّارُّ وهو الذي ينفع من يشاء من خلقه ويضرّه حيث هو خالق الأَشياء كلّها خيرِها وشرّها ونفعها وضرّها الضَّرُّ والضُّرُّ لغتان ضد النفع والضَّرُّ المصدر والضُّرّ الاسم"712.

الضَّرّ ضد النفع713، ومع أنّ الضر ضد النفع من حيث تقريب المعنى للقراء، إلا أن الضَّار في أسماء الله الحسنى هو النافع، فهو لا يضر لغاية الضرر ولكنه يضر لغاية المنفعة والفائدة والمصلحة.

الله سبحانه وتعالى "لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضرُّه معصية العاصين، وإنما هو النافع الضار"714، ولهذا يقول سبحانه وتعالى:

---

711 شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 99.

712 لسان العرب، ج 4، ص 482.

713 المصدر السابق، ج 4، ص 482.

714 كتب العقيدة، ج 3، ص 159.

{إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ}715.

الضار اسم من أسماء الله الحسنى وفيه صفة لازمة للذات الإلهية لا تقبل الانفكاك عن مقابلها ولا نقول نقيضها، لأن المقابلة تحفظ التوازن المنطقي وإن كان الله تعالى غني عن هذا، فالمقاربّة التي نحاول فيها تبسيط معنى هذه الصفة من أجلّ توضيحها وإظهار الإطلاق فيها للذات الإلهية، ونسبية هذه الصفة لغير الله تعالى، فممّا لا شكّ فيه أن كثير من النّاس لا يفهمون من معنى هذه الصفة إلا سلبا، وهذا غير صحيح فلا صفة سلبية في صفات الله تعالى، فكلّ صفاته كمال وجلّال وجمال؛ وهذا لا يدركه إلا المستخلفون فيها، أي الذي يُمكّنِه عقله من أن يجمع بالمعنى الفلسفي بين الذاكرة والإرادة والحافظة والاستنتاج والإدراك، وإلا كيف نفهم قوله تعالى: {وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النّاس بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ}716 وفي قراءة الإمامين ورش وقالون عن نافع ولولا دفاعُ اللهِ النّاس أي الحروب والاقتتال من أجلّ إعمار الأرض وهذا ما يقوم به الخليفة وهو من أجلّ الإصلاح في الأرض وإعمارها تنفيذا لأمر الله ومصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ ربّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كلّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأسمائهمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأسمائهمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ

715 الزمر 7.

716 البقرة 251

لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السّماوات وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآَدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آَدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنّة وَكلّا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْربّا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا ممّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَّى آَدَمُ مِنْ ربّهِ كلّمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرّحيم}[717].

وعليه فإن إلحاق الضرر بالضرر هو فعل موجب، وهو عمل خير، من أجلّ الإصلاح في الأرض وإعمارها، حيث وضَّحَ الله للمستخلفين فيها سبل الهداية والرشاد بتفصيل ذلك بآيات مبصرات، فلقد قال الله تعالى: {فَلَمَّا جاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فأنظر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ}[718]. فالله سبحانه يوقع الضرر فيمن يريد الضرر والإفساد، لأنه سبحانه يرسل الرّسُل ويختار الخلفاء لما فيه من الخير للخلق بإبلاغهم الرسالة وأمرهم بالصلاح بما فيه منفعتهم، فلما رفضوا دعوة الحقّ وكذبوا بها منكرين لدلالتها وخيرها وصلاحها، وقد وقع اليقين في قلوبهم، ولكنهم لم يذعنوا لاستعلائهم بالباطل وطغيانهم، فكان لابدّ من إيقاع الضرر بهم حتى لا يتفشى في الأرض الفساد، وهذه عاقبة الذين دأبوا على الفساد وإلحاق الضرر بالآخرين وبأنفسهم، وهذا الضرر الذي حل بهؤلاء الذين كانوا مفسدين مستعلين إنما هو إصلاح للأرض ومن يعمرها، وعبرة لمن يتعظ فمن قدر على هلاك فرعون وأمثاله من المفسدين كان قادرا على إهلاك

---

[717] البقرة 30 ـ 37.

[718] النمل 13، 14

من هو على صفته وذلك إلى يوم القيامة فإن الله تعالى دائم الضرر للأعداء كما أن جماله وجلّاله باق للأولياء والخلفاء مستمر في كلّ عصر وزمان، فعلى العاقل أن يتعظ بحال غيره ويترك الأسباب المؤدية إلى الهلاك مثل الظلم والعلو الذي هو من صفات النفس الأمارة بالسوء ويصلح حاله بالعدل والتواضع وغير ذلك ممّا هو من ملكات القلب التي يتصف بها الخليفة، والإشارة في الآية إلى أن الذين أفسدوا استعداد الإنسانية لقبول الفيض الإلهي بلا واسطة كانت عاقبتهم أنهم نزلوا منازل الحيوانات من الأنعام والسباع وقرنوا مع الشياطين في الدرك الأسفل من النّار فانظر كيف أن الارتقاء إلى السؤدد في مرضاة الله تعالى من دفع المفاسد وجلّب المصالح لا يكون إلا لمن اتبع سبيل الهدى وطريق الرشاد بمعنى أنه يحمل صفة الضار بالإضافة وهذه الصفة يتمتع بها الخليفة ومن سمع وأطاع أمره من رعيته.

أمّا الخارج عن هذا الإطار فهو من الذين يلحقّهم الضرر الضار لتقويمه أو استئصاله لأنه لا يرجى خيره ولا يؤمن شره فقد وصل إلى درجة من الهاوية بحيث لا يمكن أن ينتشل نفسه إلا باتباع ما يراه الخليفة من الأمر فيما هو أهل له من الأخذ على يد المارقين والسمو بهم لما يحبه الله ويرضاه لعباده، فما أقبح المرء أن يكون حسن بجسمه وشكّله وغير ذلك في دينه وأخلاقه وعمله، ومثله كمثل رجلّ له جنة يرعاها ويعمرها ثم يضرم فيها النّار، أو أن يكون اعتباره بكثرة ماله وحسن أثاثه كما قال الله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[719] ففضّل الإنسان بالهمم العالية اتباع الحقّ والتحلي بالأدب والعقل الذي يعقله عن الوقوع في

[719] الجمعة 5

المهلكات بارتكاب المنهيات ولآثام والفواحش والمعاصي فيكون من المفسدين الذين وجب على الخليفة إلحاق الضرر بهم.

وذهب كثير من العلماء إلى وجوب عدم إفراد الأسماء المقترنة كالضار والنافع والخافض والرافع ونحن نرى غير ذلك، لذلك أفردنا هذا الاسم ليتم التبيُّن والوضوح الموجب في هذه الصفة التي لا سالب فيها كما يظن البعض، ولهذا فكلّ ما في الوجود من رحمة ونفع ومصلحة فهو من فضله تعالى، وما في الوجود من غير ذلك فمن عدله، فكلّ نعمة منه فضل، وكلّ نقمة منه حقّ وعدل، فالضار والضّرر ليس معناه من الله تعالى هو الأذى والشر، وإنما هو حكمة العدالة الإلهية في موازنة الخلق والمحافظة على استمرار الحياة عدلا، لذلك منح الله تعالى جزئية من هذه الصفة للخليفة ليقيم بها العدل في استخدام الضرر المباح الذي يعود على المجتمع بالصلاح وينهي المفاسد والانحرافات الضارة بقيم المجتمع وفضائله.

الضار: هو الذي لا يريد الضرر في الأرض، ولا يريد سفك الدماء فيها بغير حقّ، ولذا فهو الضار للضرر ومصدره.

الضار للضرر نافع، ولذا فالنافع هو الذي يلحقّ الضرر بمن يضر أو بما يضر، مصداقا لقوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ وَيُحِقُّ اللَّهُ الحقّ بِكلّمَاتِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ}[720]. إذن الضار جلّ جلّاله هو الذي يبطل السحر، وذلك لأن السحر مفسدة، وفي هذا الأمر إحقّاق حقّ.

[720] يونس، 80 ـ 82.

لذلك أفردنا صفة الضار عن النافع هنا، لأننا نتكلّم عن كلّ اسم من أسماء الله الحسنى على انفراد فنقول في معنى الضار أنه المنقص عبده لأشياء كثيرة ممّا يوضح بيان الحاجة إلى الخالق عزّ وجلّ كما في معنى النافع أنه يسدُّ الخلة والنقص، وقد يجوز أن يُدعى الله جلّ ثناؤه باسم النافع وحده وكذلك بالضار وحده حتى تظهر إيجابية الضار الذي يلحقّ الضرر بكلّ ضار ومضر، وهكذا يجوز الجمع بين الاسمين كما نجمع في الباسط والقابض وفي اجتماع هذين الاسمين وصف لله تعالى بالقدرة على نفع من يشاء وضر من يشاء وذلك أن من لم يكن على النفع والضر قادرا لم يكن مرجوا ولا مخوفا فالنافع هو الضار وهو الذي ينفع من يشاء من خلقه ويضره حيث هو خالق الأشياء كلّها خيرها وشرها ونفعها وضرها، والضر ضد النفع بمعناه اللغوي، ولكن عندما نفهم أن الضار جلّ جلّاله يضر الضرر ومصدره، فيكون ضرره نفعا في ذاته ونفعا في الفعل المترتب عليه، قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "لا ضَرَرَ، وَلا ضِرَارَ، وَلِلرَّجلّ أَنْ يَجْعَلَ خَشَبَةً عَلَى حَائِطِ جَارِهِ، وَإِذَا شكّكْتُمْ فِي الطَّرِيقِ فَاجْعَلُوهَا سَبْعَةَ أَذْرُعٍ"721. ولكلّ واحد من اللفظين معنى غير الآخر فمعنى قوله لا ضرر أي لا يضر الرجلّ أخاه وهو ضد النفع بأن يلحقّ به الأذى، ولا ضرار أي لا يضار كلّ واحد منهما صاحبه فالضرار منهما معا وهو فعل مشترك بين اثنين أو أكثر، والضّرر فعل واحد يصدر من شخص بعينه، ومعنى قوله ولا ضرار أي لا يُدخل الضرر على الذي ضره ولكن يعفو عنه كقوله عزّ وجلّ: {وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ}722 فلا يضر الرجلّ أخاه فينقصه شيئا من حقّه،

---

721 المعجم الكبير للطبراني، 9، 498

722 فصلت 34

والضرار أن يجازيه على إضراره بإدخال الضرر عليه، والضر هو الهزال وسوء الحال وقوله عزّ وجلّ: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}723 فكلّ ما كان من سوء حال وفقر أو شدة في بدن فهو ضر وما كان ضدا للنفع فهو ضر، والضار هو موصل الضرر إلى من أراد من خلقه أن يفسد، إذا فالضار هو خالق الألم الذي تقع به الموازنة في معادلة كفتي الميزان حيث لا يخلو الخلق من الضرر والشعور بالألم من هذا الضرر سواء أكان ألما ماديا في نقصان الملك والمرض الذي يأتي على الصحة والعافية وفقدان الأحبة من الذرية والقرابة أم ألما معنويا مثل الخوف والحرمان والتطلع إلى أمنيات مشروعة لا يسبب فقدانها ألما ماديا وإنما هي من باب الحرمان الذي يولد شعورا بالنقص تجاه الآخرين يكون ألمه معنويا فيدخل من هذا الجانب تحت باب الضر من حيث الظاهر ولكن من حيث الباطن فقد يبتلي الإنسان ليكون خليفة، لا لأجلّ أن يضل ويرتكب المفاسد، وفي هذا الأمر لا يخلو مخلوق من أن يصيبه ألمُ من هذا النوع، قال تعالى: {وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كلّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفي بِاللَّهِ شَهِيدًا}724.

أمّا عدم الإضرار فهو كلّ ما لا ألم فيه وهو الخير من فضل الله في الدارين، لذلك عندما يصيب الخليفة في الدار الدنيا من هذا النوع

723 يونس 12

724 النساء 78، 79.

من الألم فهو يعلم أن الله تعالى يقول: {لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ}725 فالابتلاء بالأموال والأنفس ينصب على الجانب المادي الذي يمتلكه الخلق، وأما سماع الأذى في القول وكيل التُّهم والافتراء فهو ينال من الجانب المعنوي والنفسي الذي يسبب نوعا مختلفا عن ذلك الألم، ومع هذا فإن الخليفة يدرك بحكم اختياره، وبنعمة الصفات النسبية التي أسبغها عليه الضار جلّ شأنه أن هذا الضرر فيه أجر عظيم، وفيه مديح لمن صبر على هذا الضرر لأن ذلك من عزم الأمور، وعزم الأمور هو من الشدائد العظيمة التي تحتاج إلى نوع خاص من الرجال من أجلّ احتمالها وذلك لاتصافهم بصفات تختلف كلّ الاختلاف عن الصفات التي يحملها الآخرون، والخليفة ليس من هؤلاء الآخرين، وإنّما هو من المصطفين الذين نالوا عناية واختيارا إلهيا فميزه بذلك عن بقية الخلق، ألا ترى كيف أن الله تعالى خاطب نبيه صلّى الله عليه وسلّم بقوله: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلّ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ}726 فالله سبحانه يعلم أن الضرر سيلحقّ جميع الخلق حيث المصلح والمفسد يعيشون جنبا إلى جنب، والضّرر الذي يصدر من بعض المخلوقين للبعض الآخر هو أربّعة أنواع:

1- الضرر بقصد الأذى لا لفائدة وإنما لما جبلت عليه بعض النفوس من الطباع السيئة التي تتلذذ بألم الآخرين، وهذا ناتج عن كون هذه النفوس أنها لا تستطيع أن تكون علما في عالم الخيرات وتريد أن

[725] آل عمران 186

[726] الأحقّاف 35

تثبت ذاتها لنفسها على الأقل، أو أنها تفشل في مجاراة الآخرين في عالم الفضيلة ولا تستطيع أن ترقى الأمور عن الدنيئة فتلجأ إلى اختيار طريق آخر تتميز به عن الآخرين حتى وإن كان في الاتجاه السلبي لذلك وجدنا (نيرون) وهو أحد القياصرة الرومان قد أحرق روما وهو حاكم لها من أجلّ التميز والتفرد بعمل لا مثيل له في التاريخ وهذا النوع من الضرر لا مبرر له، ولا يخرج عن الأذى المقصود لذاته من أجلّ إشباع رغبة، قال تعالى: {وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ}727، لذلك لما كانت هذه النفوس بهذا المستوى من السوء ولم تجد لها رادعا يضع حدا لها فظنوا أنهم يحسنون صنعا، ولكنهم مخطئون في ظنهم هذا، فمثل أعمالهم في بطلانها وعدم جدواها كمثل اللمعان الذي يحدث من سقوط أشعة الشمس وقت الظهيرة على أرض مستوية في بيداء، فيظنه العطشان ماء وهو السراب، حتى إذا جاءه لم يجده شيئا كما كان يظنه، فهؤلاء وأمثالهم إن ذُكروا فإنهم لا يذكرون إلا بسوء عملهم، وهناك نوع آخر من هؤلاء الذين يعمدون إلى الضرر لذاته حسدا للآخرين على أعمالهم الصالحة التي تكون نبراسا وقدوة يُحتذى بها، وأمثلة ذلك كثيرة، حيث نقف على هذا النوع من الضرر بقصد الحسد في قصة ابني آدم عليه الصّلاة والسّلام حيث قال تعالى: {وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالحقّ إِذْ قَرَبّا قُربَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ لَئِنْ

[727] النور 39، 40

بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ ربّ الْعَالَمِينَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النّار وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْأَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْأَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ}728 وهنا يبرز الحسد كأهم الأسباب الدافعة إلى الضرر الضار الذي يقصد منه الأذى وهو ما نهى عنه العقل والشرع لما له من مساوئ تعود على المجتمع بالخسران. قال تعالى: {مِنْ أَجلّ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النّاس جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النّاس جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجلّهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ}729.

2- الضرر بالآخرين بقصد السيطرة والاستحواذ على حقّوق النّاس بغير وجه حقّ، ويحدث هذا النوع من الضرر عندما يجد البعض لديه القوّة الكافية للتطاول على الحقّوق دون رادع يردعه، وهو إلحاق الضرر بالزوجة المطلقة مثلا من أجلّ التنازل عن حقّوقها أو بعض منها حيث قال تعالى: {وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجلّهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِتَعْتَدُوا وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوا آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ

[728]، المائدة 27، 31

[729] المائدة 32، 33.

عَلَيْكُمْ وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكلّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}730، فإذا طلقتم النساء فشارفن انتهاء عدتهن، فلكم أن تراجعوهن قاصدين إقامة العدل وحسن الصحبة وعدم المضارة، ولكم أن تتركوهن لتنقضي عدتهن مراعين المعاملة اللائقة عند الفراق من غير جفوة، ذلك أن بعض الرجال يلجأ إلى استخدام ما خوله الله به من القيام على المرأة لغير ما أراده الله تعالى من الإنفاق حيث أن الله تعالى أعطى الرجلّ هذا الحقّ مشروطا بقوله تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ}731، فالقيامة مشروطة بشرطين: الأوّل هو من تفضيل الله في تكوين الخلق والاختلاف القائم بين الذكر والأنثى من جانبين: (البيولوجي) وهو الخلق والتكوين العضوي و(السيكولوجي): وهو التركيب العقلي والنفسي، والثاني هو الإنفاق من قبل الرجلّ على المرأة، فلا يجوز أن يكون القصد من المراجعة مضارة المرأة وتطويل عدتها من أجلّ التنازل عن حقّها الذي فرضه الله لها، ومن يفعل ذلك فقد حرم نفسه سعادة الحياة الزوجية وثقة النّاس به واستحقّ سخط الله عليه لما يلحقّه بها من ضرر، ولا تتخذوا أحكام الله في الأسرة التي جاءت بها الآيات وجعلت زمام الأسرة بيد الرجلّ سببا في الأذى، ويكون الطلاق أيضا لغير سبب وجيه وإنّما الغرض منه الحصول على متاع من الدنيا بغير حقّ مشروع فيكون ذلك، مضارة وإيذاء، إذ لا يجوز أن يكون القصد من المراجعة إلحاق الضرر بالمرأة حتى تدفع إلى التنازل عن حقّها وافتداء نفسها، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه في الدنيا بإتباعه طريق الإضرار المنهي

---

[730]، البقرة 231

[731] النساء 34.

عنه، وسلوك طريق الشر وحرمان نفسه سعادة الحياة الزوجية وهو إضرار بالنفس وبالأسرة وبالتالي فهو إضرار بالمجتمع.

3- الضرر الذي يواجه ضرر الآخرين دون فائدة وهو نوع من الانتقام والثأر، إذ أن هناك حالات من الضرر الخطأ تكون نتيجة أعمال يقصد منها المنفعة فيصدر عن ذلك ضرر خطأ نتيجة السهو أو الإهمال وهذا ما يحدث كثيرا في حياة النّاس العامة كأن يسقي إنسان زرعه فيفيض الماء على بستان جاره فيلحقّه ضرر غير مقصود، فيعمد ذلك الجار إلى الانتقام بضرر ممّاثل أو زيادة في الأذى، وكذلك حوادث السيارات التي يؤدّي بعضها إلى الموت وهو قتل الخطأ ممّا يدفع أهل القتيل لأخذ الثأر ضررا بغير وجه حقّ وانتقاما لما أصابهم من ضرر عن طريق الخطأ، فهذا لا مبرر له، وإن جاء في قوله تعالى: {يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ}[732]، فالأمر هنا ليس كذلك وما هو انتقام أذى، ولكنه انتقام عدالة وحساب أوليّ لما قدموا من الأعمال المسيئة بحقّ الله تعالى وبحقّ نبيه عليه الصّلاة والسّلام فتوعدهم الله تعالى بمجازاتهم على سوء أعمالهم يوم القيامة حين تأتي السّماء بدخان واضح يعم النّاس ويغطيهم، فيقولون: ربّنا اكشف عنا العذاب قد آمنا بدينك، فإيمانهم لن ينفعهم في ذلك اليوم، وقد جاءهم رسول الله بالرسالة الواضحة الصادقة، فكفروا به، وقالوا إنه مجنون يعلمه بعض النّاس القرآن الذي يتلوه علينا، لذلك تأخذهم الأخذة الكبرى بعنف وقوّة وهذا هو الانتقام الحقّ بسبب سوء أعمالهم فينتقم منهم في ذلك اليوم الرهيب كما انتقم من فرعون وهامان وجنودهما وقوم صالح عليه الصّلاة والسّلام وأصحاب الأيكة وأقوام كثيرون أهلكوا لارتكابهم المعاصي والموبقات وما كان ذلك إلا

---

[732] الدخان 16

بعد الإنذار والتنبيه والدعوة إلى ترك ما هم فيه ممّا يوقع الضرر بأنفسهم وبالآخرين على حدٍّ سواء، فهم أنكروا واستكبروا عن الاستجابة للحقّ والصلاح والهدى، فاتضح بهذا أن المقصود ليس الانتقام بل هو جزاء ما اقترفوا من الذنوب والآثام والانغماس في المعاصي، وبسبب الكفر والطغيان واتخاذ آلهة غير الله تعالى وعبادة الأصنام، فالعبادة لا تكون إلا لله وحده، لأنّ غيره لا يملك ضرا ولا نفعا، وإفراده بها دون جميع خلقه سبحانه وتعالى، من أنبياء أو ملائكة، أو صالحين، أو جن أو غير ذلك؛ لأنّ الله سبحانه هو المالك الرازق القادر المحيي المميت الخالق لكلّ شيء، المدبر لأمور العباد، فهو المستحقّ لأن يعبد جلّ وعلا، وهو العليم بأحوالهم سبحانه وتعالى؛ فلذلك بعث الرّسُل لدعوة الخلق إلى توحيده والإخلاص له ولبيان أسمائه وصفاته، وأنّه المستحقّ لأن يعبد ويعظم، لكمال علمه وكمال قدرته، وكمال أسمائه وصفاته ولأنّه عزّ وجلّ النافع الضار العالم بأحوال عباده، السميع لدعائهم الكفيل بمصالحهم جلّ وعلا فهو المستحقّ لأن يعبد دون ما سواه، فإن كانوا يخشون الضرر من هذه الآلهة فهو جهل منهم، ولو أن الله سبحانه وتعالى لم يترك قوما إلا وأنذرهم وأرسل لهم رسلا يبينون لهم الحقّ وطريق الهدى، فإن أبوا فهو عناد وكبر لذلك قال الله تعالى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالحقّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ}[733] فالله سبحانه وتعالى منزه عن الظلم ومنزه عن الإضرار، لأن ذلك من الإفساد في الأرض والله تعالى أمر بإعمارها وإصلاح ما يفسده المفسدون الذين يسعون فيها فسادا وخرابا وتدميرا، لذلك فإن الضرر الموجه للضرر المقابل دون أن يعود على المجتمع بفائدة فهو من باب الإفساد وهو

---

[733] فاطر 24

منهي عنه لما يترتب على ردة الفعل من ضغائن وأحقّاد تنمو وتكبر كلّما تكرر الفعل والفعل المضاد بغية الثأر والانتقام.

4- الضرر من أجلّ الإصلاح ودفع المخاطر التي تصيب المجتمع أفرادا أو جماعات سواء كان هذا الضرر صادرا من شخص بعينه أو من قبل جماعة تواطأت قصدا على إلحاق الضرر بالآخرين، أو ما يصيب المجتمع من كوارث طبيعية من الزلازل والبراكين والأعاصير والطوفان، أو ما يلحقّ النّاس من الضرر بسبب المعاصي، فلا يكون الضار جلّ شأنه ضارا بصفة فعل الضرر، وإنما ضرر عدالة لإقامة الحقّ، فالله سبحانه وتعالى لما كان من أسمائه الحسنى الضار فلا يمكن أن تُحمل هذه الصفة على غير الوجه الذي أراده الله تعالى من وصفها بالحسنى، فإن قيل إن الله أهلك أقواما كثيرة وهو من الضرر بهذه الأقوام، فلا نقول إلا كما قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو القوّة الْمَتِينُ}734، لذلك وجب على العباد حقّ الله تعالى من إيجادهم وإحيائهم ورزقهم أن يعبدوه ولا يتخذون آلهة من دون الله، لذلك قال الله تعالى على لسان إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام: {قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ}735 فقد وصف آلهتهم بأقذع الأوصاف لأنها لا تملك أن تضر أو تنفع أو تقدم أي فائدة ترجى، فكيف يقبل العقل السليم هذه الأحجار أو الأخشاب بأن تكون ربّا وهو محال، فبهذا إنما أراد الله جلّ ثناؤه بوصف آلهتهم بصفتها المخلوقة تنبيها على عظيم خطئهم، وقبح اختيارهم، فكيف يهدي إلى الرشاد من إن دُعي إلى

---

[734] الذاريات 56، 58

[735] الأنبياء 66

الرشاد وعُرِّفه لم يعرفه، ولم يفهم رشادا من ضلال، وكان سواءً دعاء داعيه إلى الرشاد وسكوته عنه، لأنه لا يفهم دعاءه، ولا يسمع صوته، ولا يعقل ما يقال له، وهذا يعني عدم التمييز بين ما يضره ممّا لا يضره، وإنما الربّ المعبود هو النافع من يعبده، الضارّ من يعصيه، الناصرُ وليَّه، الخاذل عدوه، الهادي إلى الرشاد من أطاعه، السامع دعاء من دعاه. وكذلك من براهين أن الضار هو الله تعالى معرفة أوصاف المخلوقين وقدراتهم حتى وإن كانوا آلهة يعبدون مع الله، فإن جميع ما يعبد من دون الله من ملك وبشر ومن شجر وحجر وغيرها كلّهم فقراء إلى الله، عاجزون ليس بيدهم من النفع مثقال ذرة، ولا يخلقون شيئا وهم يخلقون، ولا يملكون ضرا ولا نفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، والله تعالى هو الخالق لكلّ مخلوق، وهو الرازق لكلّ مرزوق، المدبر للأمور كلّها، الضار النافع، المعطي المانع، الذي بيده ملكوت كلّ شيء، وإليه يرجع كلّ شيء، وله يقصد ويصمد ويخضع كلّ شيء.

إنّ الاعتقاد والإقرار بأنّ الإنسان لا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا إلا بإرادة الله تعالى هي من متممّات الإيمان، فالله ربّ كلّ شيء ومالكه وخالقه ورازقه، وهو المحيي المميت النافع الضار، الذي له الأمر كلّه، وبيده الخير، وهو على كلّ شيء قدير، ليس له في ذلك شريك ولا يملك مخلوق من الأمر شيئا فقد أطلق الله تعالى العنان للخلق في ملكوته إن استطاعوا فعل شيء خارج عن إرادته فليفعلوه حيث قال تعالى: {يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السّماوات وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ}736 فالله يعلم أن بعض النفوس طبعت على الأذى والشر فكان هذا

736 الرحمن 33

موقف التحدي لأمثال هؤلاء إن كانوا يستطيعون الضر لفعلوه من أجلّ أن يعلو بعضهم على بعض، ولا يكون ذلك إلا بعلم الله وإرادته وتقديره لحجم هذا الضرر أو ذاك، فقد جاء في الحديث أن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم قال: "أحفظ اللَّهَ يَحْفَظْكَ احْفَظْ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ وَإِذَا سَأَلْتَ فَلْتَسْأَلْ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوْ اجتمعوا على أَنْ يَنْفَعُوكَ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ وَلَوْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ رُفِعَتْ الْأَقْلَامُ وَجَفَّتْ الصُّحُفُ"737 وهو دليل أن الضرر المطلق بيد الله تعالى وليس من أجلّ الضرر نفسه وإنما من أجلّ دفع مفسدة أو جلّب منفعة، ودفع المفاسد بالضرر كثيرة أولها وأعلاها رتبة إعلاء كلّمة التوحيد فقد أرسل الله الضرر على قوم نوح عليه الصّلاة والسّلام من أجلّ دفع ضرر الكفر عن الذين آمنوا، ولا يدفع ذلك إلا ضرر مثله أو أشد منه حيث قال تعالى: {حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كلّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آَمَنَ وَمَا آَمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ قَالَ سَآَوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ}738. لقد صب الله تعالى العذاب أو الضرر، سمه ما شئت على قوم نوح عليه الصّلاة والسّلام وخرج الماء وارتفع من الأرض وهطل من السّماء، وحتى يكون هذا

---

737 مسند أحمد، ج 6، ص 69

738 هود 40، 44

الضرر نافعا للمؤمنين ضارا للكافرين، فقد أمر الضار سبحانه وتعالى نوحا عليه الصّلاة والسّلام أن يحمل من كلّ ذكر وأنثى من جميع أنواع المخلوقات من كلّ زوجين اثنين من أجلّ تحقّيق مصداقية فعل الضرر أنه ليس المقصود منه ذاته لذاته، وإنما هو الإصلاح بفعل الضرر، لذلك جاز الفعل وحسن موقعه وتوقيته لإقامته حجة وإبطال باطل وإحقّاق حقّ ونصرة مظلوم من حيث أنه قرر مبدأ تحمل كلّ إنسان مسؤولية عمله وما جنت يداه، إن كان خيرا فخير، وإن كان شرا فشر، وأن لا تزر وازرة وزر أخرى، وكذلك اتقاء الضرر من الله تعالى أنّه أمر واجب لأنه لا سبيل إلى صون الأرواح والنفوس من الهلاك إلا بسبب أو واسطة، وصون النفس من الهلاك واجب، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، أو أمر مباح شرعا لأن الله تعالى يقول: {وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ}739 إذا فهو بمنزلة أن يتخذ الإنسان لنفسه دارا يسكنها، أو يكون ذلك تعليما له ولمن بعده في كيفية اتقاء الضرر الواجب، ولا يكون ذلك من باب ما لا يتم الواجب إلا به، فإنّ الله تعالى أعلم نوحا عليه الصّلاة والسّلام بالضرر الذي سيقع وأعلمه طريقة اتقائه فمعنى ذلك أنه منجاة للمؤمنين وعبرة للكافرين، وإضافة إلى ما ذكرنا فإن هذه الآية دلت على صحة القول بالضرر الواجب الدافع للضرر الحاصل، لأنه تعالى أخبر بأنهم لا يؤمنون بعد ذلك، فلو حصل إيمانهم مع بقاء ضررهم وامتناع ضرر الله بهم يكون هذا الخبر من وجه النقيض، وهذا محال، ولو أنهم آمنوا وامتنع ضررهم ونزل ضرر الله بهم على تلك الصورة لكان من الظلم وهو محال على الله أيضا، ولما كان الخليفة هو القائم بأمر الله في الأرض فوجب عليه أن

[739] البقرة 195

يدفع الضرر بالضرر حال وقوعه أو استشعاره قبل وقوعه لما في ذلك مصلحة للرعية في دفع المفاسد عنها وجلّب المصالح والمنافع لها في المكان والزمان الذي يراه.

وعليه فالضار جلّ جلّاله: هو الذي يضر بالضرر والضار من دونه، لأجلّ النفع، ولهذا فالضار هو النافع، الذي يضر الضرر حتى النهاية، وهو الذي يقذف بالحقّ على الباطل فيدمغ حتى يزهقه مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا السّماء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ بَلْ نَقْذِفُ بِالحقّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمّا تَصِفُونَ}740.

ولأنّ الضار جلّ جلّاله ضرره نفع فهو كائد كيد المكيدين وما كر بمكرهم مصداقا لقوله تعالى: {إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا}741، وقال تعالى: {وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ}742.

الكيد فعل ضرري، والمكر كذلك فعل ضرري، والفرق بين كيد وضرر البشر، وبين كيد ومكر الله أنّ البشر يكيدون العمل الصالح ويمكرون به وبمن يقوم به، وهذا العمل الضرري مفسدة، ولهذا جاء ضرر الله ببطلان الكيد والمكر البشري بالآخرين، ممّا يجعل الضرر الأول إعاقة للحقّ، والضّرر الثاني ترسيخا للحقّ، ولهذا فإنّ الضار هو النافع جلّ جلّاله.

740 الأنبياء 16 ـ 18.

741 الطارق 125 ـ 17.

742 آل عمران 54.

إنَّ المعتمد في إثبات أسم الضار لله سبحانه وتعالى وكون ذلك من الأسماء الحسنى وظاهر الاسم يفهم منه غير الصفة الحسنى فسنبسط فيه القول بشيء من التفصيل في هذا المكان إن شاء الله فنقول: في إثبات الصفة الحسنى للضار جلّ شأنه واتصاف الخليفة بنسبية هذه الصفة، أنه لو كان فعل الضرر حسنا أو قبيحا لذاته فالمفهوم من كونه قبيحا وحسنا ليس هو نفس ذات الفعل، وإلا كان من علم حقّيقة الفعل علمنا بحسنه وقبحه قبل وقوعه، وليس الأمر كذلك لجواز عدم علم حقّيقة الفعل، ويتوقف العلم بحسنه وقبحه على النظر والموقف كقبح الصدق الضار، مثل الذي يمشي بالنميمة وهو صادق فيما نقل عن القائل وإنما أراد بذلك الفتنة فأصبح الصدق ضارا، وحسن الكذب النافع الذي يصدر من شخص ينوي إصلاح ذات البين فيتقول على شخصين بينهما خصومة كلّاما حسنا لم يقله أحدهما في حقّ الآخر وبذلك تزول الأضغان فيتحول مفهوم الكذب عن الضرر، وإن كان مفهوم الصفة زائدا على مفهوم الفعل الموصوف بهذه الصفة من الضرر فهي صفة معنوية تظهر وجوديتها في وجود الأشياء التي تقع تحت تأثير فعل الضرر لأمر أراده الضار التي تتجلّى من خلالها صفته جلّ شأنه، لأن الفعل قبل وقوعه، هو لا حسن ولا قبيح، ولا يمكن أن يكون صفة للعدم المحض، لأن فعل الضرر قبل وقوعه بالإرادة هو قائم بالمشيئة ويخرج بالقدرة، فإن كان عدميا وجب انتفاء الصفة وهو محال، ذلك أن النصوص القطعية الدلالة والخبر المتواتر المنقول عن الثقة العدل الضابط والأحداث المشاهدة تبين صفة اتصاف الموصوف بالصفة، فمثال الأول ما جاء به القرآن الكريم من تلك النصوص الكثيرة في آيات التوحيد والخلق كقوله تعالى: {وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا

يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}743 فهذه أدلة الخلق حيث يرى المتأمل فيها أن الله تعالى جعل في الأرض جبالا ثابتة تحفظها أن تضطربّ، وجعل فيها أنهارا تجرى فيها المياه الصالحة للشربّ والزرع، وطرقا ممهدة لتهتدوا بها في السير إلى مقاصدكم، وجعل علامات ترشد النّاس في أثناء سيرهم في الأرض، وهم في ذلك يسترشدون في أثناء سيرهم بالنجوم التي أودعها السّماء إذا عميت عليهم السبل والتبست معالم الطرق، فهل يستوي في نظر العقل السليم التسوية بين القادر والعاجز فيجعل من يخلق هذه الأشياء كمن لا يستطيع خلق أي شيء، فهذه الآيات من خلق الله ونعمته فهو الذي خلق لكم الأنعام والخيل وسائر البهائم لمنافعكم ومصالحكم وهو الذي أنزل المطر من السّماء عذبا زلالا تشربّون منه وتسقون الشجر والنبات وهذا الشجر والنبات هو الذي تجعلون أنعامكم ترعاه وتمدكم باللبن واللحم والأصواف والأوبار والأشعار والجلّود، إن هذا الماء ينزله الله من السّماء بقدرته فيحيي به الأرض وينبت لكم زرعكم المختلف من جميع أنواع الثمرات وتجعلونه رزقا لكم ونعمة وحجة عليكم، وإن فيما ذكر من الآيات الدالة على قدرة الله وما فيها من نعم لا تحصى فهي لا تحتاج إلى دليل غيرها، ومن آيات الخلق التي تدخل تحت مدلول الدلالة القطعية أن جعل لكم الليل لباسا ومهيأ للراحة، والنهار جعله مناسبا للسعي والحركة والعمل، والشمس تمد بالدفء والضوء، والقمر لتعرفوا به عدد السنين والحساب، والنجوم مسخرات بأمر الله لتهتدوا بها في أسفاركم في ظلمات البر والبحر، إن في كلّ هذه النعم والدلائل لآيات لقوم لهم عقول تدرك وتتدبر ما وراء هذه الظواهر من قدرة، ومن آيات الخلق التي لا تحصى، ما خلق الله في الأرض من أنواع الحيوان والنبات

---

743 النحل 15، 17

والجماد، وجعل في جوفها من المعادن المختلفة الألوان والأشكّال، وجعل كلّ ذلك لمنافعكم، ومن هذه النعم الكبرى نعمة البحر وما فيه من أنواع الحيوان، فإن الله تعالى قد أقام الحجة على الخلق بهذه الأدلة التي لا يحتاج الوقوف على دلالتها أكثر من النظر والتأمل، وأما الخبر المتواتر فما جاء عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من أحاديث عن الغيبيات في العقائد الإسلامية كالجنّة والنّار والبعث والنشور والحوض والصراط ممّا جاءت به النصوص القرآنية، يؤكدها ما أخبر به أصحابه وتحقّقت في حصولها لهم، فقد جاء في الحديث أن عليا رضي الله عنه قال: "بعثني رسول الله صلّى الله عليه وسلّم أنا والزبير والمقداد بن الأسود قال انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإنّ بها ظعينة ومعها كتاب فخذوه منها فانطلقنا تعادى بنا خيلنا حتى انتهينا إلى الروضة فإذا نحن بالظعينة فقلنا أخرجي الكتاب فقالت ما معي من كتاب فقلنا لتخرجن الكتاب أو لنلقين الثياب فأخرجته من عقاصها فأتينا به رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإذا فيه من حاطب بن أبي بلتعة إلى أناس من المشركين من أهل مكة يخبرهم ببعض أمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم"744؛ وأما الخليفة في هذا الجانب فقد أوتي من الفراسة والعلم والكشف ورجاحة العقل وإصابة الرأي وبعد النظر في الأمور الدنيوية والأخروية بما يتناسب مع اختيار الله له ليكون خليفة.

وأمّا الأحداث المشاهدة فما يقع من كوارث تصيب البشر والتي يعزوها المتتبعون إلى العوامل الطبيعية من تغير أحوال البيئة والتضاريس والأنواء الجوية والتلوث والإخلال بموازين الطبيعة ممّا يؤدّي إلى الزلازل والعواصف والأعاصير التي تفعل الأفاعيل، ولم ينتبهوا إلى ما جنت أيديهم من الآثام التي توقع الضرر بالآخرين، فكان حقّيقا على الله

[744] صحيح البخاري، ج 10، ص 194

تعالى أن يدفع الضرر بالضرر، وما إعصار تسونامي إلا من هذا القبيل، وإن كان البركان والماء والريح هو الذي أدى إلى هذه النتيجة إلا أن الله تعالى يقول: {وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ ربّكَ إِلَّا هُوَ وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرَى لِلْبَشَر}745 والضار جلّ شأنه يظهر في آيات ومعجزات الضرر الحاصل من المشاهدة بالبصر وانطباع صورة الضرر الواقعة على الأشياء لذلك كان الوجوب بحكم هذه الصفة أنها ضرر مخصوص أي لا يتعلق إلا بالموجود من خلال إدراك الآثار الناتجة عن الفعل، والموجودات اشتركت في قضايا واختلفت في قضايا من أسباب الفعل ونتائجه، فإرسال الضرر على شخص أو جماعة يكون الغرض منه التنبيه والتذكير لمصلحة من يقع عليه هذا الضرر، فإن أخذ منه الجانب الإيجابي وسخره فيما أراد الله به من الخير فيكون بذلك وقف على الضرر الحقّيقي للصفة الحسنى من الضار وهذا ما يدركه الخليفة ويعلم أن الله تعالى ما أراد به من هذا الضرر إلا الخير سواء بالدعاء من أجلّ كشف هذا الضر وهو مثاب ومأجور عليه من الله تعالى، أو برفع هذا الضرر عمن أصابهم من رعيته ويعلم أنه مكلّف بذلك فهو خليفة الله في أرضه، ودفع هذا الضرر ورفعه عن الرعية يكون من واجباته، وبفعله هذا يكون قد نفذ ما هو مكلّف به فهو من باب الطاعة لله تعالى وبذلك يكون قد نال رضى الله في أمره وفيما كلّفه به، غير أن كثيرا من الخلق لا ينظر إلى الضرر بهذه العين الثاقبة في بعد النظر من المراد من الضار جلّ شأنه في إرادته فيكون كما قال تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنْبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرٍّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}746 وإذا أصاب الإنسان ضر في نفسه أو ماله أو

---

[745] المدثر 31

[746] يونس 12

نحو ذلك، أحس بضعفه ودعا ربّه على أي حال من حالاته، مضطجعا أو قاعدا أو قائما، أن يكشف ما نزل به من محنته، فلما استجاب الله له ـ فكشف عنه ضره ـ انصرف عن جانب الله واستمر على عصيانه، ونسى فضل الله عليه، كأنه لم يصبه ضر ولم يدع الله إلى كشفه، أي إذا أصابه جنس الضر من مرض وفقر وغيرهما من الشدائد إصابة يسيرة، والمقصود، بيان أن الإنسان قليل الصبر عند نزول البلاء، قليل الشكّر عند وجدان النعماء والآلاء، فإذا مسه الضر أقبل على التضرع والدعاء مضطجعا أو قائما أو قاعدا مجتهدا في ذلك الدعاء طالبا من الله تعالى إزالة تلك المحنة، وتبديلها بالنعمة، فإذا كشف الله تعالى عنه ذلك بالعافية أعرض عن الشكّر، ولم يتذكر ذلك الضر ولم يعرف قدر الإنعام، وصار بمنزلة من لم يدع الله تعالى لكشف ضره، وذلك يدل على اختلاف الإدراك والنهج والسلوك والتصرف بين الخليفة وما يعلمه من حكمة إنزال الضرر، وبين طبيعة الإنسان العادي من الرعية الذي تسيطر عليه شدة استيلاء الغفلة والشهوة وما إلى ذلك من أمور الدنيا، وإنما ذكر الله تعالى ذلك تنبيها على أنّ هذه الطريقة مذمومة، بل الواجب على الإنسان العاقل أن يكون صابرا عند نزول البلاء شاكرا عند الفوز بالنعماء، ومن شأنه أن يكون كثير الدعاء والتضرع في أوقات الراحة والرفاهية، فالخليفة يدرك تماما هذه المعاني الجلّيلة من وقوع الضرر ونزول البلاء فيستبشر بذلك خيرا لمعرفته بعظيم الأجر الذي سيناله للصبر على هذا الضرر ودفعه عن الآخرين ويدرك بذلك أيضا أن الله تعالى قد اختاره من بين الخلق جميعا ليكلّفه بما أراد أن ينفذ مشيئته في الأرض على علم فأسبغ عليه من صفاته النسبية ما هو أهل لها.

إنّ جميع ما قد ذكرناه من وقوع فعل الضرر واجب على المسلمين أوّلا معرفته من الوجه الذي أراده الله وكما يراه الخليفة، وثانيا الإيمان به والإذعان لله عزّ وجلّ والإقرار له بالعلم والقدرة وأنه ليس شيء كان ولا هو كائن إلا وقد علمه الله عزّ وجلّ قبل كونه ثم كان بمشيئة الله وقدرته، فالضار جلّ شأنه ينزل الضرر لا للفعل نفسه وإنما للفائدة والإصلاح ودفع الأذى، فالذين كفروا فإنما فعلوا ذلك باختيار عقولهم فصدوا عن سبيل الله فنزل عليهم الضرر الضار، والذين آمنوا فإنهم اتبعوا الهدى باختيار عقلهم أيضا فكان لهم الضرر منفعة بأن درأ عنهم شر من أراد بهم الضر، ولعلم الله المسبق بما سيحدث قبل حدوثه كتب على هؤلاء الضر من العذاب والانتقام لما فعلوا، وكتب على أولئك الضرّ الدافع عنهم ضرر الآخرين، وهنا يأتي دور القدرة التي قدرها الله تعالى على خلقه بعلمه المسبق من تمسك هؤلاء بباطلهم، وتوثق أولئك بإيمانهم فكانت مشيئته بأن كتب لخلقه أقدارهم بما سيفعلون بعد خلقهم.

إنّ الضار سبحانه وتعالى لم يجعل هذا الاسم من أسمائه الحسنى إلا لما فيه من الخير والرّحمة الذي يعود على الخلق والبلاد والعباد فهو كما يقول تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ}747، فهذا الأمر الذي فرضه الله على المسلمين وفيه شعور بالضرر مثل ما نظر البعض إلى عبادة الزكاة والتي سنأتي عليها ولم يدركوا أن في الإنفاق على اليتامى والمساكين وغيرهم حماية للمجتمع من داخله، فإن القتال حماية له من أعدائه في الخارج، ولذلك فرض عليكم القتال لحماية دينكم والدفاع عن أنفسكم، وإن

[747] البقرة 216

نفوسكم بحكم جبلتها تكره القتال كرها شديدا، ولكن ربّما كرهتم ما فيه خيركم وأحببتم ما فيه شركم، والله يعلم ما غاب من مصالحكم عنكم، وأنتم لا تعلمون فلذلك وجب أن تستجيبوا لما فرض عليكم، ولو كان شاقا عليكم مكروها منكم، الكراهة نعت به للمبالغة كأن القتال في نفسه كراهة لفرط كراهتهم له وهذه الكراهة من حيث نفور الطبع منه لما فيه من مؤونة المال ومشقة النفس وخطر الروح لا لأنهم كرهوا أمر الله تعالى، وكراهة الطبع لا توجب الذم بل تحقّق معنى العبودية إذا فعل ذلك اتباعا للشرع مع نفرة الطبع فأما كراهة الاعتقاد فهي من صفات المنافقين وهو جميع ما كلّفوه من الأمور الشاقة التي تكون بمجملها خيرا لكم لأنّ في الغزو والجهاد إحدى الحسنيين إمّا الظفر والغنيمة وإمّا الشهادة والجنّة، ومن هنا نعلم كيف يكون الضرر مخالفا لمعناه، ويصبح الكلّام في توضيح هذه الحقّيقة من السهولة بمكان، إذ أنّ الأمثلة من الآيات في القرآن الكريم وضحت ذلك بما لا يدع مجالا للشكّ في أنّ الضرر إنما أراد الله تعالى به الخير من عدة وجوه:

أوّلها: ردع من قبل الخلق على بعضهم البعض لما جبلت عليه بعض نفوس البشر من الطمع والجشع وحب السيطرة واستعباد الآخرين بغير وجه حقّ فكان إيقاع الضرر من الضار جلّ شأنه بهؤلاء من حكمة وعدالة الضار حيث قال تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}[748] إن الضرر الذي أوقعه فرعون جعله يتعاظم في نفسه حتى جاوز الحد في ظلمه،

---

[748] القصص 2 . 5

واستكبر في الأرض والحقّ بأهلها الضرر البالغ، يصطفي بعضهم ويسخِّر بعضهم، ويستضعف من يشاء، فيذبح الذكور من أولادهم، ويستبقى الإناث، حتى أفسد وطغى وكان من المسرفين فكانت صفة الضار وفعله هو الحد الفاصل بين ما أباحه الله تعالى لخلقه، وبين من تجاوز على حقّوق الآخرين في العيش والحياة فكان الضرر هو النفع والفائدة التي وضعت الأمور في نصابها الصحيح من المعادلة المنطقية في ترجيح كفة العدالة من استقامة الأمور ووضعها في ميزانها حفاظا على توازن الحياة بالنسبة للخلق، وحتى على مستوى الحياة العامة بما يخص الأسرة والعائلة الواحدة فإن القيّم على هذا المجتمع المصغر الأب فهو المسؤول عن تربيّة الأسرة أو أفرادها حيث يوقع بأحدهم نوعا من الضرر إذا ما شذّ عن الأخلاق العامة فيمارس على ضرره الضرر الذي يؤدّي إلى الاستقامة والصلاح، والخليفة هو القيم على إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، ولذا فإنه يلجأ إلى استخدام الضرر النسبي الذي يتصف به من الضار المطلق في أكثر من اتجاه بغاية النفع المترتب عليه، فمن واجب الخليفة استخدام الضرر للتقويم لأن الخليفة يعلم معنى الضار المطلق فهو بعلمه هذا تقي ورع صالح يخشى الله فهو بذلك يأتي أوامر الله ويجتنب مناهيه، ولذلك يكون سلطان الضار الذي يمتلكه بمثابة الهيبة في الردع حتى دون اقتراف ذنب وإنما تحسبا فمن ذلك ما جاء عن عمر رضي الله تعالى عنه أنّ الحسن البصري قال: "كان عمر رضي الله عنه جالسا ومعه الدرة والنّاس حوله إذ أقبل الجارود بن المنذر، فقال رجلّ: هذا سيد ربّيعة، فسمعها عمر ومن حوله وسمعها الجارود، فلما دنا منه خفقه بالدرة فقال: ما لي ولك يا أمير المؤمنين؟ قال: ما لي ولك أما سمعتها؟ قال: سمعتها،

قال: خشيت أن يخالط قلبك منها شيء فأحببت أن أطأطئ منك"749. فهذا يدل على بعد نظر الخليفة وخوفه على الرعية من الفتنة فلذلك يستخدم سلطان الضرر في تذكير النّاس بأنهم معرضون للفتنة أو الخيلاء فيؤدبهم بالضرر حرصا عليهم ومحبّة لهم، فهذا الضرر النفسي إنما هو يعود على المتضرر بخير لا يدركه هو، وإنما لما كان الخليفة من العلم بما لا يعلمه غيره ومن الحرص على الرعية أكثر منهم على أنفسهم لابدّ أن يكون كما قال الله تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ}750 فالخليفة هنا قام بواجبه اتجاه رعيته، وصبر الرعية على هذا الضرر النافع كان سببا لرضى الله عنهم بتحمله فكان دفع السيئة بالحسنة من كلّا الجانبين، وكذلك لمعرفة الخليفة بأمور تغيب عن معظم الرعية فإنه يتخذ جانب الحيطة والحذر لما يتوقعه هو من إضرار الآخرين من غير رعيته لدفع الضرر عمن هو قائم بأمر ولايته، لأنّ الخليفة هو الولي، وهذا من جانب الحفاظ على سلطان الله الذي خوله للخليفة بدفع الضرر عن عباده بالأسباب حيث قال تعالى: {وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ}751، فهذا الإعداد من قبل الخليفة إنما يكون من باب الإعداد المباح لضرر متوقع فيكون لمواجهة الأعداء، ويكون الإعداد على قدر الاستطاعة

---

749 إحياء علوم الدين، ج 2، ص 352

750 الرعد 22، 23

751 الأنفال 60

من قوة حربيّة شاملة لجميع أنواع القتال، من القوّة المادية من السلاح والعتاد ومستلزمات ذلك، وكذلك من القوّة العلمية والخبرة والتدريب لتخيفوا بهذا الإعداد والربّاط عدو الله وعدوكم من المتربّصين بكم الدوائر، وتخيفوا آخرين لا تعلمونهم الآن والله يعلمهم، لأنه لا يخفي عليه شيء، فهذا الإعداد الضار إنما هو موجه إلى عدو خارجي يشترك فيه جميع أفراد المجتمع.

وهناك ضرر جزئي يمارسه الخليفة موجه إلى بعض أفراد الرعية صونا للقسم الأكبر من الرعية في إقامة الحدود والقصاص، وإن كان هذا يلحقّ الضرر، فإنما هو دفع الضرر بمثله وذلك من باب تقوى الخليفة في إقامة الشرع حيث قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ}[752]، فهذه الشرائع التي فرضها الله على عباده في أحكام القتل العمد فإنه من واجب الخليفة إقامة هذه الشرائع، حيث فرض الله القصاصَ بسبب القتل، فلا يأخذ الرعية إلا بما أمر الله به، ويمنع عمل وفعل أهل الجاهلية الذين كانوا يقتلون الحر غير القاتل بالعبد، والذكر الذي لم يقتل بالأنثى، والرئيس غير القاتل بالمرؤوس القاتل دون مجازاة القاتل نفسه، ولكن الخليفة يوقع الضرر الذي أمر الله به عباده صونا للدماء، فالحر القاتل يقتل بالحر المقتول، وكذلك العبد بالعبد والأنثى بالأنثى، فأساس القصاص هو دفع الاعتداء في القتل بقتل القاتل للتشفي ومنع البغي، فإن سَمَت نفوس أهل الدم ودفعوا بالتي هي أحسن فآثروا

[752] البقرة 178، 179

العفو عن إخوانهم وجب لهم دية قتيلهم، وعلى أولياء الدم اتباع هذا الحكم بالتسامح دون إجهاد للقاتل أو تعنيفه، وعلى القاتل أداء الدين دون ممّاطلة أو بخس وهنا يبرز دور الخليفة على أكمل وجه في إيقاع الضرر ودفعه وتوجيهه، فهو يوقع الضرر بالقاتل نفسه ويدفع الضرر عن أهل القاتل ويوجه الضرر إلى فائدة تحقّن من خلالها الدماء، وفي حكم القتل الذي فرضه الله على هذا الوجه وكلّف الخليفة بتنفيذه، إنما هو تخفيف على المؤمنين بالنسبة إلى الحكم الذي يوجب القصاص من القاتل، كما فيه رحمة بهم بالنسبة إلى الذين يدعون إلى العفو من غير تعرض للقاتل، فمن جاوز هذا الحكم بعد ذلك فله عذاب أليم في الدنيا والآخرة، عذاب في الدنيا بما يراه الخليفة من العقوبة على من اعتدى، وعذاب الآخرة وهو الخلود في النّار لمن قتل مؤمنا متعمدا، لذلك كانت رحمة الله عظيمة في فرض القصاص، فبفضل القصاص الذي هو من صلاحيات الخليفة وضرر هذا القصاص الذي ينزله بالجناة تتحقّق للمجتمع حياة آمنة سليمة، وذلك أن من يهم بالقتل إذا علم أن في ذلك هلاك نفسه لم ينفذ ما هَمَّ به، وفي ذلك حياته وحياة من هَمَّ بقتله.

ومن هذا الباب أيضا من أنواع الضرر الذي يقوم به الخليفة ما يقع على بعض أفراد الرعية دون البعض الآخر وذلك بسبب درء المفاسد لجلّب المصالح، فإذا أصابت آفة من الآفات أو حشرة ضارة بعض الزروع ممّا لا سبيل لدفع ضرره عن بقية ممتلكات الرعية ومحاصيلهم فمن حقّه ممّارسة نوع من الضرر يحفظ أموال الآخرين لأنه يعرف أن درء المفاسد مقدم على جلّب المنافع، فيأمر بإحراق وإتلاف ما يمكن أن يصيب المجتمع بالضرر العام فيدفع ذلك بالضرر

الخاص، أو أقل الضررين، وهكذا كما هو الحال عند مرض الدواجن بالفيروس الضار للبشر، فحرقها نافع لأنه قضاء على ضرر أو ضار.

ولهذا فالضار المطلق جلّ شأنه يدفع بالضرر الأصغر الضرر الأكبر ويكلّف بذلك الخليفة فيصبح تنفيذ هذا النوع من الضرر طاعة وعبادة فمن ذلك قصة العبد الصالح مع موسى عليه الصّلاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا فَانْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَتَيَا أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَا أَهْلَهَا فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لَاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْرًا قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كلّ سَفِينَةٍ غَصْبًا وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِنْهُ زَكَاةً وَأَقْربّ رُحْمًا وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ ربّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً

مِنْ ربّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا}753 فقد قال موسى للعبد الصالح: هل أسير معك على أن تعلمني ممّا علمك الله، فأجابه: إنك لن تستطيع الصبر على مصاحبتي لأنه لا علم لك بنتائج الأفعال التي سوف أقوم بها لذلك لا يمكنك الصبر على شيء لا خبرة لك فيه، ولكن موسى عليه الصّلاة والسّلام أبدى استعداده للصبر والطاعة، فطلب منه أن لا ينكر عليه أي شيء من أفعاله، فانطلقا يمشيان على ساحل البحر حتى وجدا سفينة، فركباها، فخرقها العبد الصالح في أثناء سيرها، فاعترض موسى عليه الصّلاة والسّلام قائلا: أخرقتها قاصدا إغراق أهلها؟ لقد ارتكبت أمرا منكرا وهو ضرر صريح دون سبب، قال العبد الصالح: إنني قلت لك: إنك لن تستطيع الصبر على مصاحبتي، قال له موسى عليه الصّلاة والسّلام: لا تؤاخذني على نسيان وصيتك، ولا تكلّفني مشقة في تحصيل العلم منك وتجعله عسيرا، وبعد أن خرجا من السفينة ذهبا منطلقين، فلقيا في طريقهما صبيا فقتله العبد الصالح، فقال موسى عليه الصّلاة والسّلام مستنكرا: أتقتل نفسا طاهرة بريئة من الذنوب بغير أن يقتل صاحبها أحدا؟ لقد أتيت فعلا مستنكرا، فأجاب العبد الصالح، إنك لن تستطيع صبرا على ما أقوم به من أفعال، قال موسى عليه الصّلاة والسّلام: إن سألتك عن شيء بعد هذه المرة فلا تصاحبني، لأنك قد بلغت الغاية التي تعذر بها في فراقي، فسارا حتى أتيا قرية، فطلبا من أهلها طعاما، فأبوا ضيافتهما، فوجدا فيها جدارا مائلا يكاد يسقط، فنقضه العبد الصالح وبناه من جديد حتى أقامه، قال موسى عليه الصّلاة والسّلام: لو شئت طلب أجر على النقض والبناء لفعلت، قال العبد الصالح: هذا التعرض

---

753 الكهف 65 . 82

منك مرارا لما أفعل سبب الفراق بيني وبينك، وسأخبرك بحكمة هذه التصرفات التي خفي عليك أمرها، ولم تستطع صبرا على ما خفي حتى تعرف حقّيقته وسره، وهي كالآتي:

. فأما السفينة التي خرقتها، فهي لضعفاء محتاجين يعملون بها في البحر لتحصيل رزقهم، فأردت أن أحدث بها عيبا يُزهد فيها، لأن خلفهم ملكا يغتصب كلّ سفينة صالحة. . وأما الغلام الذي قتلته فكان أبواه مؤمنين، فعلمنا – إن عاش – أنه سيصير سببا لكفرهما، فأردنا بقتله أن يعوِّضهما الله عنه ولدا خيرا منه دينا وأعظم برا وعطفا.

. وأما الجدار الذي أقمته – دون أجر – فكان لغلامين يتيمين من أهل المدينة، وكان تحته كنز تركه أبوهما لهما، وكان رجلًا صالحا، فأراد الله أن يحفظ لهما الكنز حتى يبلغا رشدهما، ويستخرجاه، رحمة بهما وتكريما لأبيهما في ذريته، وما فعلت ما فعلت باجتهادي، إنما فعلته بتوجيه من الله؛ فالضار هنا جلّ شأنه أعلم العبد الصالح بمقدار الفائدة المترتبة على نتائج أفعال الضرر التي أُمر بتنفيذها فالله سبحانه يقدر الخير لعباده من حيث لا يعلمون، لذلك وجب على العباد أن يرضوا بما كتب الله عليهم وأن يسلموا الأمر كلّه لله، وأن يعلموا أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطي المانع، فبعد أن علم الإنسان ذلك وجب عليه أن يعتمد بقلبه على ربّه في جلّب مصالح دينه ودنياه، وفي دفع المضار، ويثق غاية الوثوق بربّه في حصول مطلوبه، وهو مع هذا يبذل ما يسعه من جهده في فعل الأسباب النافعة.

ومن مسائل النفع والضّرر التي فرضها الله تعالى على المسلمين هي عبادة الزكاة حيث قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا

مَعَ الرَّاكِعِينَ}754 فقد وجد البعض أن ضررا يلحقّ بهم في أموالهم من عبادة الزكاة علما أنه ورد الأمر بإيتائها ست وعشرون مرة في القرآن الكريم وقد قرنت جميعها مع إقامة الصلاة للدلالة على عظم أجرها، ومع ذلك منع البعض تأديتها شعورا بالضرر وغاب عنهم جانبين أولهما ما أعد الله للذين ينفقون أموالهم في سبيل الله بقوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كلّ سُنْبُلَةٍ مِئَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ}755 فحال الذين يبذلون أموالهم في طاعة الله ووجوه الخير ليس من الضرر في شيء، وإنما ينالون على ذلك ثواب الله المضاعف أضعافا كثيرة، كحال من يبذر حبة في الأرض طيبة فتنبت منها نبتة فيها سبع سنابل في كلّ سنبلة مائة حبة، وهذا تصوير لكثرة ما يعطيه الله من جزاء على الإنفاق في الدنيا، والله يضاعف عطاءه لمن يشاء فهو واسع الفضل، عليم بمن يستحقّ وبمن لا يستحقّ، فالذين ينفقون أموالهم في وجوه البر المشروعة دون مَنٍّ أو تفاخر أو تطاول على المحسن إليه، لهم أجرهم العظيم الموعود به عند ربّهم، ولا يصيبهم خوف من شيء ولا حزن على شيء، وإنما سيلحقّهم الضرر في الآخرة بعدم إنفاقهم، وأما الجانب الآخر، هو الذي يعتبره مانعوا الزكاة ضررا في أموالهم إنما هو حقّ شرّعه الله للفقراء والمحتاجين ليدفع عنهم الضرر الذي يلحقّ أفراد المجتمع من تكدس الأموال في يد فئة قليلة تستأثر بهذه الأموال وتستخدمها في إضرار الآخرين، وهنا يبرز دور الخليفة بصفة الضار لهؤلاء والنافع لأولئك المعوزين، فيمارس

---

[754] البقرة 43

[755] البقرة 261، 262

الضرر عنوة لدفع الضرر الأعظم الذي سيصيب المجتمع من امتناع هؤلاء عن تأدية هذه الفريضة التي يدرك الخليفة آثارها ويعلم واجباته المكلّف بها من إعمار الأرض والأخذ على يد المفسدين لعلمه بالمقاصد الضرورية لأحكام الشريعة والغاية من تشريعاتها حفاظا على الضروريات التي يعمر بها الأرض من الفساد، فقوة الخليفة وصفاته النسبية في عقيدته وفي بدنه وفي كلّ شيء يحتاج إلى العزم والعزيمة والمجالدة، وذلك من أجل المحافظة على أفراد المجتمع لتكون أنفسهم صحيحة قوية قادرة على أداء واجبات الدين والدنيا، لذلك يكون الخليفة قد أطاع الله فيما أمر به من إلحاق الضرر ببعض رعيته من أجلّ الحفاظ على المجتمع علميا وعقليا وغذائيا وصحيا بشكّلّ خاص وذلك بسبب انتشار أمراض العصر التي تكلّف أموالا طائلة، وإذا كان التداوي من المرض مطلوبا ليشفي المريض، ويصير عضوا نافعا في مجتمعه، وإذا كانت أمراض الحضارة قد انتشرت واستشرت، تقوض بناء الإنسان بعد أن تسري في دمائه وأوصاله، وإذا كان العلم الذي علمه الله الإنسان، قد وقف محاربّا لهذه الأمراض والأوبئة في صورة معاهد ومستشفيات متخصصة في نوعيات من المرض في بعض أعضاء الإنسان، وإذا كان الكثيرون من النّاس قد تعجز مواردهم عن مواجهة نفقات العلاج المتخصص، إذا كان كلّ ذلك حاصل فوجب على المجتمع أنّ يتساند ويتكافل، كما فرضه الإسلام وينفذه الخليفة، وكما تدعو إليه غريزة حب البقاء مع النقاء والتكافل والتعاون بين النّاس في درء المفاسد والأمراض وإذا كانت الزكاة قد فرضها الله في أموال الأغنياء لتعود إلى الفقراء، فإنه لم يترك أمر صرفها وتوزيعها دون تحديد، وإنما بينها في قوله تعالى: {إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ

وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ}756 وها نحن نجد أن أول الأصناف المستحقّين للزكاة بترتيب الله سبحانه الفقراء بمعنى صاحب الحاجة التي لابدّ منها ولا يستطيع الحصول عليها فأصبح لزاما على الخليفة أن ينفق على علاج هؤلاء ممّا خوله الله بصفة الضرر النافع في تحصيل تلك الأموال من أجلّ وضعها في الوجه الذي حدده الشرع، وفي الجملة أن صفة الضار هي من الوجه الإجمالي للذات الإلهية حكمة لإعمار الأرض والمحافظة على الإنسان وقد منح الله تعالى الخليفة صفة نسبية من الضار ليخلفه في أرضه بما أراد في خلقه من أمور فيها الخير لهم في الدنيا والآخرة، ليضر كلّ ما من شأنه أن يلحقّ الضرر بما هو نافع ومفيد.

وممّا يدخل في باب الضرر من الأخلاق بصرف النظر عن أنها سامية أو متدنية وإنما هي قيمة أخلاقية، فالأخذ بالسامية منها يكون من الفضائل، والمتدنية تكون من الرذائل التي تدخل في باب الضرر، فالحقّ والباطل من هذا النوع من القيم الأخلاقية وهما من نتائج المعرفة والنكرة، لأننا نعرف الحقّ وننكر الباطل، وهذا من متمّمات صفة الضار بالإضافة التي يتصف بها الخليفة، وذلك لأغراض تتبعهما، ولواحقّ تلتبس بهما من المنفعة والضّرر، فالخليفة يحقّ الحقّ ويزهق الباطل بالإضافة، وذلك كما قال الله تعالى: {وَقُلْ جَاءَ الحق وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا}757. جاء الحقّ من التوحيد والدين الصحيح والعدل، وذهب الباطل والشّرك والفساد، فالباطل مضمحل زائل دائما وذلك بوجود الخليفة وهو نصير الحقّ الذي يدفع الباطل

[756] التوبة 34

[757] الإسراء 81

بالضرر ومن هنا كان استخدام الضرر واجب لإزهاق الباطل الذي يحمل المفاسد والأضرار للمجتمع بأسره.

وكذلك الرشد والغي فهما من علائق الأفعال الحميدة والذميمة؛ وللرأي والعقل فيهما مدخل قوي وحظ تام، وأما الثقة والارتياب فخلقان يغلبان وينفعان ويضران ويحمدان ويذمان ألا ترى أنه يقال: لا تثق بكلّ أحد، ولا ترتب بكلّ إنسان وهكذا الطمأنينة والتهمة، لأنهما في طيهما، وأما الخلاعة والوقار، فمن باب الضرر ودفعه، وكذلك التوقي والتهور، فهما خلقان في جميع الخلق، ويغلبان على الإنسان، لأن العقل يبطل أحدهما، والحس يغلب الآخر، وأما الصدق والكذب، فمن علائق النفس الكاملة والناقصة، وقد يكونان راسخين فيلحقّان بالخلق، إلا أن الصدق ممدوح لنفعه، والكذب مذموم لضرره، هذا في الوهلة الأولى، وقد يعرض ما يوجب المصير إلى الكذب لينجو الإنسان به؛ فهما إذن بعد الحقّيقة الأولى وقف على الإضافة؛ وقد نجد كذبا ينتفع به، وكما نجد من الصدق ما يكون ضارا، وأما الإخلاص والنفاق، فهما يلحقّان بالخلق، ولكنهما يصدران عن عقيدة القلب وضمير النفس، وأما الإحسان والإساءة، فهما يعمان الأفعال والأقوال، فإذا رسخ اعتيادهما استحالا خلقين، وأما النصح والغش، فهما خلقان، وطرفاهما يتعلقان بالخلق، وكذلك الطمع واليأس، والحب والبغض، واللهج والسلو، وما شاكلّ ذلك من الشيء ونقيضه ما يكون أحدهما في النفع والآخر في الضرر، إلا أن بعض هذه القيم ما يمكن تسخيرها بعكس مفهوم التسمية، ولكن كيف يكون ذلك؟ فالإجابة على ذلك نعود بها إلى صفة الضار المطلقة لله جلّ شأنه وللضار بالإضافة وهو الخليفة، فالكيد والمكر من الأفعال التي تجلّب الضرر ولكن استخدامها لمكر المكر وكيد الكيد

تحول نتائج الفعل إلى فائدة ومنفعة ومصلحة، فالمكر من العبد هو تدبير سيء خفي، ومن الله تعالى ومن الخليفة هو إبطال هذه التدابير السيئة، فالذين عتوا ونفروا عن الحقّ استكبارا في الأرض وأنفة من الخضوع للحقّ والدين الذي جاء، فمكروا مكرا سيئا بتدبيرهم الشر والأذى وقادهم شيطانهم إلى الانصراف عن الدين الحقّ، وكان من سنة الله تعالى أن لا يحيط ضرر المكر السيئ إلا بمن دبروه، فهل ينتظرون إلا ما جرت به سنة الله في الذين سبقوهم، فلن تجد لطريقة الله في معاملة الأمم تغييرا يُطمِّع هؤلاء الماكرين في وضع من سبقهم من الأمم بما كانوا يصنعون، لذلك لن تجد لسنة الله تحويلا عن اتجاهها، فقد أوكلّ الله تعالى خليفته بإلحاق الضرر بهؤلاء دفعا لأذاهم ومكرا بمكرهم، لأنهم لم يرتدعوا ويتعظوا من الأمم التي سبقتهم وفعلت مثل أفعالهم، ولم يسيروا في الأرض فينظروا بأعينهم آثار الهلاك الذي أنزل على من سبقهم من العقاب لتكذيبهم وكان قبلهم من الأمم من هم أشد منهم قوة وبطشا فأخذهم الله أخذ عزيز مقتدر، فلم تمنعهم قوتهم من عذاب الله، وما كان ليعجزه من شيء في السّماوات ولا في الأرض، ثم إن بعد ذلك ترى بعض الخلق لا يكتفي بأن يضل ويصد عن السبيل وإنما يحاول أن يضل الآخرين في تحديه لسنة الله تعالى بإشاعة الضرر وهذا ما يحاوله البعض في كلّ زمان ومكان ونحن نقف على شواهد كثير من هذا النوع، فقد حاول البعض في زمن النبوّة وعصر الرسالة أن يصدوا النّاس عن طريق الهدى باتخاذهم مسجدا ضرارا حيث قال تعالى: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَاربَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحقّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ

وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}[758]، فمن المنافقين جماعة بنوا مسجدا لا يبتغون به وجه الله، وإنما يبتغون به الضرار والكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين، وأنهم سيحلفون على أنهم ما أرادوا ببناء هذا المسجد إلا الخير والعمل الأحسن، والله يشهد عليهم أنهم كاذبون في أيمانهم، لذلك فقد نهى الله سبحانه وتعالى نبيه عليه الصّلاة والسّلام عن الصلاة في ذلك المسجد مطلقا، أي لا تصلي في هذا المسجد أبدا لأنّ هذا البناء إنّما يراد من إقامته إضرار المجتمع بتحريف العقيدة وإفساد النّاس، وإنّ مسجدا أقيم ابتغاء وجه الله وطلبا لمرضاته من أول أمره كمسجد قُباء لجدير بأن تؤدى فيه شعائر الله، وفي هذا المسجد رجال يحبون أن يُطهروا أجسادهم وقلوبهم بأداء العبادة الصحيحة فيه، والله يحب ويثيب الذين يتقربّون إليه بالطهارة الجسمية والنفسية لأن طهارة الإيمان إنما هي من باب الصلاح والتقى الذي يهدم الضرر ويدحضه، وفرق كبير بين من كان دأبه وعمله إصلاح الأمة وهداها وبين من يريد أن يهوي بها الإضرار، فلا يمكن أن يستوي في عقيدته ولا في عمله من أقام بنيانه على الإخلاص في تقوى الله وابتغاء رضائه، ومن أقام بنيانه على النفاق والكفر، فإنّ عمل المتقي مستقيم ثابت على أصل متين، وعمل المنافق كالبناء على حافة هاوية، فهو واهٍ ساقط، يوقع بصاحبه في نار جهنم، والله لا يهدي إلى طريق الرشاد من أصرَّ على ظلم نفسه بالكفر، وسيظل هذا البناء الذي بناه المنافقون المضرون مصدر اضطراب وخوف في قلوبهم لا ينتهي حتى تتقطع قلوبهم بالندم أو التوبة أو بالموت، والله عليم بكلّ شيء، حكيم في أفعاله وجزائه، ومن الضرر ما يقوم به

---

[758] التوبة 107 . 109

بعض أفراد المجتمع غلبت عليهم آمال فاسدة، لا يحصلون منها إلا على إتعاب النفس عاجلًا، ثم الهم والإثم آجلًا، كمن يتمنى غلاء الأقوات التي في غلائها هلاك النّاس، وكمن يتمنى بعض الأمور التي فيها الضرر لغيره، وإن كانت له فيها منفعة، فإن تأميله ما يؤمل من ذلك لا يعجلّ له ذلك قبل وقته، ولا يأتيه من ذلك بما ليس في علم الله تعالى من إرادة، فلو تمنى الخير والرخاء، لتعجلّ الأجر والراحة والفضيلة، ولم يتعب نفسه طرفة عين فما فوقها، فهؤلاء يتمنون وقوع الضرر في جميع أنحاء المجتمع من أجلّ فائدة شخصية أو مصلحة أنفسهم، وما ذلك إلا لفساد أخلاقهم فوجب على الخليفة تقويم اعوجاجهم بالضرر الذي يردعهم عن أمنياتهم حتى لا تتحول هذه الأمنية إلى حقّيقة ويترجمونها إلى الواقع الذي يضر بالمجتمع.

ويدخل في هذا الباب من الضرر نوع من العلم مع أنّه من الصفات الحميدة، ولكن هذا النوع من العلم فاسد الأصل واضح الضرر مذموم وبيان علة ذم العلم المذموم تأتي من الوجهة التي يتوجه بها، وهو غير العلم النافع الذي هو معرفة الشيء على ما هو به وهو من صفات الله تعالى فكيف يكون الشيء علما ويكون مع كونه علما مذموما؟ فاعلم أن العلم لا يذم لعينه وإنما يذم في حقّ العباد لأحد أسباب كثيرة منها أن يكون مؤديا إلى ضرر ما، إما لصاحبه أو لغيره، كما يذم علم السحر والطلسمات، إذ شهد القرآن الكريم له وأنه سبب يتوصل به إلى التفرقة بين العباد، قال تعالى: {وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النّاس السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ

مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآَخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ}[759] فالشياطين من الإنس والجن يعلِّمون النّاس السحر من عندهم ومن آثار ما أنزل ببابل على الملكين هاروت وماروت، مع أنّ هذين الملكين ما كانا يعلِّمان أحدا حتى يقولا له: إنما نعلمك ما يؤدّي إلى الفتنة والكفر فاعرفه واحذره وتوق العمل به، وهو من باب العلم من أجلّ الحذر وعدم الوقوع به. ولكن النّاس لم ينتصحوا بهذه النصيحة، فاستخدموا ما تعلموه منهما فيما يفرقون به بين المرء وزوجه، ونحن نجد من الشياطين الفجرة من الجن والإنس من حمل هذا العلم على محمل الضرر وجعله جميلا فاتخذ ذلك ذريعة لتعليم النّاس السحر وبهذا يلحقّ الضرر بهم، وما هم بضارين بسحرهم هذا من أحد، ولكن الله هو الذي يأذن بالضرر إن شاء، وأن ما يؤخذ عنهم من سحر سيضر من تعلمه في دينه ودنياه ولا يفيده شيئا، وهم أنفسهم يعلمون حقّ العلم أن من اتجه هذا الاتجاه لن يكون له حظ في نعيم الآخرة، ولبئس ما اختاروه لأنفسهم لو كانت لهم بقية من علم، وهذا العلم ضار بطبيعته لأنه نوع يستفاد من العلم بخواص معينة وبأمور حسابية في مطالع النجوم، فيتخذ من تلك الخواص مادته ويرصد به وقتا مخصوصا من المطالع وتقرن به كلّمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع، ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله تعالى العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور، ومعرفة هذه الأسباب من حيث أنها معرفة، ليست مذمومة، ولكن العمل بها هو المذموم فهي ليست تصلح إلا للإضرار بالخلق فهي الوسيلة إلى الشر، فالعمل بهذا

---

[759] البقرة 102

النوع من العلم يكون ضررا، فكان ذلك هو سببا في كونه علما مذموما لأدائه إلى الضرر، ومنها ما يكون مضرا بصاحبه في غالب الأمر، كعلم النجوم، فإنه في نفسه غير مضر لذاته، إذ هو قسمان: قسم حسابي، وقد نطق القرآن بأن مسير الشمس والقمر محسوب، حيث قال الله عزّ وجلّ: {الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ}760 فهما يجريان في بروجهما بحساب وتقدير لا إخلال فيه، فهو دقيق منتظم بحيث تنتظم بذلك أمور الكائنات السفلية وتختلف الفصول والأوقات وتعلم السنون والحساب فالسنة القمرية ثلاثمائة وأربّعة وخمسون يوما والشمسية ثلاثمائة وخمسة وستون يوما وربّع يوم وفي ذلك منافع عظيمة للناس منها علم السنين والحساب واختلاف الليل والنهار وفائدة كلّ منهما وهو لولاه لما حصل النفع والانتفاع، ثم ذكر من المعلومات نعمتين ظاهرتين هما أظهر أنواع النعم السماوية وهما الشمس والقمر ولولا الشمس لما زالت الظلمة، ولولا القمر لفات كثير من النعم الظاهرة بخلاف غيرهما من الكواكب فإنّ نعمها لا تظهر لكلّ أحد مثل ما تظهر نعمتهما، ثم بين كمال نفعهما في حركتهما بحساب لا يتغير ولو كانت الشمس ثابتة في موضع لما انتفع بها أحد، ولو كان سيرها غير معلوم للخلق لما انتفعوا بالزراعات في أوقاتها وبناء أمر الحركة والدوران على الفصول، ثم بين في مقابلتهما نعمتين ظاهرتين من الأرض وهما النبات الذي لا ساق له والذي له ساق، فإن الرزق أصله منه، ولولا النبات لما كان للآدمي رزق إلا ما شاء الله، فالنبات هو أصل الرزق لأن الرزق إما نباتي وإما حيواني كاللحم واللبن وغيرهما من أجزاء الحيوان، ولولا النبات لما عاش الحيوان؛ والنبات هو الأصل وهو قسمان: قائم على ساق كالقمح

760 الرحمن 40

والشعير والأشجار الكبار وأصول الثمار ومنها ما هو غير قائم كالبقول المنبسطة على الأرض والحشائش والعشب الذي هو غذاء الحيوان فالعلم بهذه الأمور ومثيلاتها هو دافع للضرر وجلّب للمنفعة، لذلك اختار الله تعالى من الآفاق آيات منها الشمس والقمر، وإنما اختارهما للذكر لأن حركتهما بحسبان تدل على فاعل مختار سخرهما على وجه مخصوص، ولو اجتمع من في العالم من الطبيعيين والفلاسفة وغيرهم وتواطؤوا أن يثبتوا حركتهما على الممر المعين على الصواب المعين والمقدار المعلوم في البطء والسرعة لما بلغ أحد مراده إلى أن يرجع إلى الحقّ بأنّ الذي حركهما هو الله تعالى كما أراد، وذكر الأرض والسّماء وغيرهما إشارة إلى ما ذكر من الدلائل العقلية، لذلك كان الأمر من الخليفة بمعرفة هذا الجزء من العلم واجب لدرء الضرر المترتب من عدم معرفته، وكذلك معرفة الجزء النافع منه لأجلّ دفع الضرر المترتب من عدم معرفته أيضا لذلك فالخليفة بصفاته النسبية وبعلمه يعرف هذه الحدود ويلحقّ الضرر بمن يتعداها، حيث حددها الله تعالى بقوله: {وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ}[761] فعلم النجوم يقتصر على جانب النفع والفائدة، فكانوا يتعلمون من النجوم ما يهتدون به في البر والبحر ثم لا يقدمون على أكثر من ذلك لأنه منهي عنه، وإنما زجر عنه لأنّه مضر بأكثر الخلق، فإنه إذا ألقي إليهم أنّ هذه الآثار تحدث عقب سير الكواكب، وقع في نفوسهم أن الكواكب هي المؤثرة، وأنها الآلهة المدبرة لأنّها جواهر شريفة سماوية، ويعظم وقعها في القلوب فيبقى القلب ملتفتا إليها، ويرى الخير والشر محذورا أو مرجوا من جهتها، ويذهب ذكر الله سبحانه عن القلب، فإن الضعيف يقصر نظره على الوسائط، والخليفة لأنّه راسخ في العلم

---

[761] النحل 16

هو الذي يطلع على أنّ الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمر الله سبحانه وتعالى، ويعلم أنه لا فائدة من أن يتعدى الإنسان في علم النجوم أكثر ما هو مباح فيه أصلا لأنّه دخول في المعصية بتناول العلم الضار وإضاعة الوقت والعمر فيما لا طائل من ورائه، وصرف العمر الذي هو أنفس ما يملكه الإنسان إليه ضرر، وإضاعة النفيس ضرر، ومنه ما فيه ضرر يزيد على ما يظن أنه يحصل به من قضاء وطر في الدنيا، فإن ذلك لا يعتد به بالإضافة إلى الضرر الحاصل عنه، وكثير من الأمور يجهلها النّاس لذلك كان لا بد من الأنبياء والخلفاء، فالأنبياء هم الذين يبلغون الرسالة إلى أجلّ مسمى، والخلفاء بعد ذلك يقومون برعاية الرسالة وصونها والاستمرار بها جيلا بعد جيل قولا وتنفيذا لأوامر الله جلّ جلّاله، وذلك بإحلال ما أحل الله واجتناب ما حرمه ونهى عنه بسبب الضرر المترتب على استخدامه أو تناوله وتعاطيه، فمن ذلك قوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرّسول النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ}[762] فالله سبحانه وتعالى من لطفه بعباده أحل لهم الطيبات وحرم عليهم الخبائث الضارة، ثم أعطى الخليفة هذا السلطان الذي يقيم به حدود الله، فيأمرهم بكلّ خير وينهاهم عن كلّ شر، ويحل لهم الأشياء التي يستطيبها الطبع، ويُحرم عليهم الأشياء التي يستخبثها الطبع كالدم والميتة التي تشكّلّ الضرر القاتل، ويزيل عنهم الأثقال والشدائد التي يكون الضرر فيها غير واضح، لذلك حددها الله تعالى رحمة بالعباد،

---

[762] الأعراف 157

ولو ترك النّاس وقوى عقولهم وجماح طبائعهم، وغلبة شهواتهم، وكثرة جهلهم، وشدة نزاعهم إلى ما يرديهم ويطغيهم، حتى يكونوا هم الذين يحتجزون من كلّ ما أفسدهم بقدر قواهم، وحتى يقفوا على حد الضار والنافع، ويعرفوا فصل ما بين الداء والدواء، والأغذية والسموم، كان قد كلّفهم شططا، وأسلمهم إلى عدوهم، وشغلهم عن طاعته التي هي أجدى الأمور عليهم وأنفعها لهم، ومن أجلّها عدل تركيب الإنسان وسوى بنيته، وأخرجه من حد الطفولة والجهل إلى البلوغ والاعتدال والصحة، وتمام الأداة والهيئة والخلق، ولو أن النّاس تركهم الله تعالى والتجربّة، وخلاهم في تجربّة الأمور وامتحان السموم، واختبار الأغذية، وهم على ضعف الحيلة وقلة المعرفة وغلبة الشهوة، وتسلط الطبيعة، مع كثرة الحاجة، والجهل بالعاقبة، لأثرت عليهم السموم، ولأفناهم الخطأ ولأجهز عليهم اختلاط الأمور، ولتولدت الأدواء وترادفت الأسقام، حتى تصير منايا قاتلة، وحتوفا متلفة، إذ لم يكن عندهم إلا أخذها، والجهل بحدودها ومنتهى ما يجوز منها والزيادة فيها، وقلة الاحتراس من توليدها، فلما كان ذلك كذلك علمنا أن الله تعالى حيث خلق العالم وسكانه لم يخلقهم إلا لصلاحهم، ولا يجوز صلاحهم إلا بتبقيتهم ولولا الأمر والنهي ما كان للتبقية وتعديل الفطرة من معنى، ولما أن كان لا بد للعباد من أن يكونوا مأمورين منهيين، بين عدو عاص ومطيع ولي، علمنا أنّ النّاس لا يستطيعون مدافعة طبائعهم، ومخالفة أهوائهم، إلا بالزجر الشديد، والتوعد بالعقاب الأليم في الآجلّ، بعد التنكيل في العاجلّ، إذ كان لا بد من أن يكونوا منهيين بالتنكيل معجلّا والجزاء الأكبر مؤجلّا، وكان شأنهم إيثار الأدنى وتسويف الأقصى، وإذا كانت عقول النّاس لا تبلغ جميع مصالحهم في دنياهم فهم عن مصالح دينهم أعجز، إذ كان علم الدين مستنبطا من علم الدنيا. وإذا كان العلم مباشرة أو سببا للمباشرة وعلم

الدنيا غامض، فلا يتخلص إلى معرفته إلا بالطبيعة الفائقة، والعناية الشديدة، مع تلقين الخليفة ورعايته لهم وعنايته بهم، ولأن النّاس لو كانوا يبلغون بأنفسهم غاية مصالحهم في دينهم ودنياهم كان إرسال الرّسُل قليل النفع، يسير الفضل، وإذا كان النّاس مع منفعتهم بالعاجلّ وحبهم للبقاء، ورغبتهم في النماء، وحاجتهم إلى الكفاية، ومعرفتهم بما فيها من السلامة لا يبلغون لأنفسهم معرفة ذلك وإصلاحه، وعلم ذلك جلّيل ظاهر سببه بعضه ببعض، كدرك الحواس وما لاقته، فهم عن التعديل وتفصيل التأويل، والكلّام في مجيء الأخبار وأصول الأديان أعجز، وأجدر ألا يبلغوا منه الغاية، ولا يدركوا منه الحاجة، لأن علم الدنيا أمران: إمّا شيء يلي الحواس، وإمّا شيء يلي علم الحواس، وليس الدين كذلك، فلما كان ذلك علمنا أنه لا بد للناس من خليفة يعرّفهم جميع مصالحهم، فعلى سبيل المثال: أن معظم الخلق ينظرون إلى الموت على أنّه ضرر يلحقّ بالأحياء من حيث يأتي على حياتهم، ويتركون خلفهم أزواجا وأطفالا بحاجة إلى من يعينهم، ناهيك عن تمسك الإنسان بالحياة والعيش، قال تعالى: {أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ وَإِنْ تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَذِهِ مِنْ عِنْدِكَ قُلْ كلّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ فَمَالِ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفي بِاللَّهِ شَهِيدًا}763 إن معظم الخلق ينظرون إلى الموت على أنه ضار من جوانب عديدة ليس للميت وإنما لأسرة الميت وصغاره وأنهم أصبحوا أيتاما، وفعل الموت وقع بإرادة الضار سبحانه وتعالى، وليس الأمر كذلك، وإنما فيه من الصلاح والعبرة والرّحمة ما

[763] النساء 78، 79

يغيب عن كثير من النّاس وأمور كثيرة لا يدركها إلا أولو الألباب وأوّلها أنها قمة العدالة الإلهية وأن البشر متساوون في هذا كبيرهم وصغيرهم وعالمهم وجاهلهم وسيدهم ومسودهم وذكرهم وأنثاهم، ورسولهم وحكيمهم، وأجمل ذلك كلّه عزّ وجلّ حيث قال: {كلّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النّار وَأُدْخِلَ الجنّة فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ}764 فما من نفس إلا ويأتي الموت عليها وهي على ما نرى أعلى درجات الديمقراطية على مستوى الخلق.

الجانب الثاني: فلو ترك الإنسان دون موت وبلغ من العمر عتيا فهو محتاج إلى من يقضي له جميع حوائجه، فإذا قال قائل: أن أبناءه وأحفاده ملزمون به، فنقول له إلى متى يستطيعون القيام على خدمته ومن ثم فالجيل الرابع بعد الأحفاد وما يلي ذلك من أجيال من يتعامل معهم ويؤدّي تلك الخدمات للأجيال المتراكمة، إذا فالموت من الضار جلّ شأنه أصبح من باب الرّحمة.

الجانب الثالث: حيث أن بعض المتوفين يتركون أبناءً قصرا وليس لهم راعٍ فهنا يأتي دور الولي للأمر أو يأتي دور الدولة بمؤسساتها العاملة، في رعاية من استخلفه الله بدفع ضرر اليتم والفقر والعوز، وفي هذا الأمر تسود الصفات الحسان بين المستخلفين فيها، من الرّحمة والعدل وما إلى ذلك ممّا أسبغه الله عليهم وجعلهم خلفاء في أرضه، لذلك ضرر الموت إن كان ضررا فإن الخليفة المكلّف يقوم بدفع هذا الضرر، وأمّا الذين يحاولون الفرار من الموت اتقاء ضرره فقد غابت عنهم هذه الأمور، في الوقت الذي لا مفر منه، إنّه حقّ من الله تعالى انعم به على عباده، فلا مفر ولا خوف منه، الخوف فقط يكون إذا

[764] آل عمران 85

جاء الموت والعباد لم يكونوا على الطاعة والشهادة، فالموت الذي تفرون منه ملاقيكم أينما كنتم وهو حقّ، ولو كانت إقامتكم في حصون مشيدة وإن هؤلاء الخائرون لضعف إيمانهم يقولون: إن أصابهم فوز وغنيمة هي من عند الله، وإن أصابهم جدب أو هزيمة يقولون هذا من عندك وكان بشؤمك، ولكن كلّ ما يصيبكم ممّا تحبون أو تكرهون هو من تقدير الله ومن عنده اختبار وابتلاء، فما لهؤلاء الضعفاء لا يدركون النفع والفائدة من وجه الضرر، إذ أنّ بعض الخلق عندما تصيبهم مصيبة يقولون دفع الله ما كان أعظم، أي ما كان أعظم من المصيبة التي حلت بهم، وهو من باب دفع الضرر بضرر مثله، فما يصيبك من رخاء ونعمة وعافية وسلامة فمن فضل الله عليك، يتفضل به إحسانا منه إليك، وما أصابك من شدة ومشقة وأذى ومكروه فمن نفسك بسبب تقصير أو ذنب ارتكبته، فما أصابك من حسنة يعني من خير ونعمة فهي فمن الله ومن فضل الله عليك يتفضل به إحسانا منه إليك وما أصابكم من سيئات ومن شدة ومكروه ومشقة وأذى فمن نفسك يعني فمن قبل نفسك وبذنب اكتسبته نفسك استوجبت ذلك به، فمعنى قوله فمن نفسك أي عقوبة لذنبك وما هو من باب الضرر في شيء، وما أصابك من خير فالله هداك له وأعانك فيه وما أصابك من أمر تكرهه فبذنبك عقوبة لذلك الذنب والمراد من الحسنة والسيئة في ذلك ما يصيب الإنسان من النعم والمحن وذلك ليس من فعله كما قال تعالى: {وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوِ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا

لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ}765 إن الذي أصابكم أيها المؤمنون يوم التقى جمعكم وجمع المشركين واقع بقضاء الله، وليظهر للناس ما علمه من إيمان المؤمن حقّا، فهنا يبرز الضرر كأحد مقاييس الإيمان والتمييز بين المؤمنين والمنافقين، وهذا الضرر وإن ترتب عليه مقتل البعض واستشهادهم، فإنّ خيره أكثر من ضرره، إذ أن الشهداء نالوا رضوان الله والجنّة، ومن جانب آخر انكشف للخليفة وللمؤمنين أولئك المنافقون الذين هم أشد خطرا من الأعداء، فظهر نفاق الذين نافقوا، وهم الذين قيل لهم حين انصرفوا عن القتال تعالوا قاتلوا لأجلّ طاعة الله، أو قاتلوا دفاعا عن أنفسكم، قالوا: لو نعلم أنكم ستلقون قتالا لذهبنا معكم، وهم حين قالوا هذا القول كانوا أقربّ للكفر منهم للإيمان، لأنهم ينفون وقوع الحربّ مع علمهم بها مخافة الضرر، مع أنّهم يعتقدون في قلوبهم أنها واقعة، والله يعلم بما يضمرون من النفاق لذلك أظهر ما يضمرون بتخليهم عن مناصرة المؤمنين، ولم يكن ذلك ضررا للذين آمنوا وإنما هو فائدة كبيرة بأن كشف الله لهم أعداء كانوا يظنوهم إخوانا لهم.

قال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كلّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}766 وإن يصبك الله بسوء فلا كاشف له إلا هو، وإن يمنحك خيرا فلا راد لفضله، لأنه على كلّ شيء قدير فإذا أصاب اللهُ الإنسانَ بأي نوع من الألم والحزن وغيره فلا صارف يصرفه عنه إلا الله وإن يمنحه خيرا كصحة وعافية وغنى وقوّة وجاه فلا راد لفضله، وهو القادر على حفظه، لأنه القدير على كلّ شيء، وإثبات الضرر من الله تعالى كونه الضار، أنه اثبت تعالى

[765] آل عمران 166، 167

[766] الأنعام 17

لنفسه كمال القدرة، كما اثبت كمال السلطان والقوّة، مع كمال الحكمة والعلم والإرادة، والضّرر من الله سبحانه وتعالى إنما يكون لخير يريده بعباده الصلحين، لذلك قال صلّى الله عليه وسلّم: "من لم يرض بقضاء الله ويؤمن بقدر الله فليلتمس إلها غير الله"[767] فعلى العبد الرضى بقضائه الله وقدره، لأنّه من لم يطع الله في امتثال أمره بالشكّر على المصائب التي تكون وسائط في إيصال نعم الله عليه فقد أخل بشرط من شروط الإيمان، وإنما يتم الإيمان بالرضا بما قسمه الله تعالى لعبده، والله سبحانه وتعالى نفي الظلم عن نفسه وحرمه، فالإنسان لا يعلم ما هو مقدر له وما مقدر عليه، وإن لحقّ الضرر بالإنسان من الضار عزّ وجلّ بمفهوم قدر عقل الإنسان وعلمه، فهو ليس ضررا أراده الضار بأن يلحقّه بعبده، وذلك لسبب بسيط، وهو أنّنا نحن بنو البشر إنما نحاول إلحاق الضرر بمن نخافه خشية على مصالحنا وما يتعلق بها من حرص على الأموال والأولاد وما يتهدد مستقبلنا وحياتنا وحياة من نقوم برعايتهم ومن هم في ولايتنا وكفالتنا، فالأمر مع الضار جلّ شأنه لا يستوي بهذه المقاييس، إذ لا يخشى الضار جلّ شأنه خلقه على ملكه، ولا أن يلحقّ به أحد الضرر حتى يبادره ويكون سابقا إلى إلحاق الضرر بالخلق لتلافي الضرر الناتج عن الخلق له بالمفهوم والعرف الإنساني، وهذا يعني أن المفاهيم الإنسانية قاصرة عن إدراك القضاء بالضرر على الخلق، وهنا يجب أن نوضح أن الضرر من الضار للخلق على نوعين:

النوع الأوّل: ضرر انتقام: وهو الضرر النافع لأهل الابتلاء، لأن الضار عزّ وجلّ يضر من يضرهم بانتقامه لهم، وشواهد هذا النوع كثيرة حيث قال تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ

[767] فيض القدير، ج 6، 296

فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حقّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ}768 لقد أرسل الله تعالى رسلا إلى أقوامهم، فجاء كلّ رسول قومه بالحجج الواضحة الدالة على صدقه فكذّبه قومه وظلموا الذين آمنوا بالرّسُل بالاعتداء والأذى، فأهلك الله الذين أذنبوا وعصوا وظلموا انتقاما لكفرهم بالله ورسله ولعدوانهم على الذين آمنوا، فقد أوجب الله على نفسه أن ينصر عباده المؤمنين،

والضّرر الثاني: ضرر ابتلاء: وهو امتحان صبر المؤمنين على هذا الضرر لأن الضار تبارك وتعالى أحبهم لإيمانهم ويريد أن يزيد في أجرهم، وإذا أحب الله عبده ابتلاه، وزيادة الأجر لا تكون بدون سبب حيث قال تعالى: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ}769 فمن هنا كان الضار نافعا لهم في صبرهم على هذا الضرر، لذلك فإن الأجر كان على قدر المصيبة فقد قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: "إذا مات ولد العبد قال الله لملائكته قبضتم ولد عبدي فيقولون نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده فيقولون نعم، فيقول ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع فيقول الله ابنوا لعبدي بيتا في الجنّة وسموه بيت الحمد"770. فالحمد لله تعالى على الإيمان والطاعة، ولذا فإذا مات ولد العبد فإنما هو يشعر بضرر، لأن الإنسان لا يدري مغزى الحكمة من الضرر، وإنما هو يتفكر بمصيبته وبهذا البلاء الذي نزل به، حيث أن بعض الذين ينزل بهم الضرر وتصيبهم مصيبة، يبدأ يفكر بزمن ما قبل المصيبة أو البلاء الذي ينتج عنه الضرر، ويبدأ بالدخول فيما هو منهي عنه من الأماني التي يعارض فيها قضاء الله وقدره والحكمة الإلهية، حيث قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم:

768 الروم 47

769 الرعد 24

770 سنن الترمذي، ج 4، ص 154

"إن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا، ولكن قل قدَّر الله وما شاء فعل فإن لو تفتح عمل الشيطان"771 وعمل الشيطان يتعارض مع المشيئة، ولا يكون الصبر على ما يشعر به أنه ضرر إلا بالحمد والاسترجاع، لذلك قال الله لملائكته الموكّلين بقبض الأرواح: قبضتم ولد عبدي، أي روحه (فيقولون نعم، فيقول قبضتم ثمرة فؤاده) أي أنه كالثمرة من الشجرة لأنّ الثمر أجمل ما في الشجر وأنفعه (فيقولون نعم فيقول ماذا قال عبدي فيقولون حمدك واسترجع) أي قال إنّا لله وإنّا إليه راجعون. وبناء بيت الحمد هو تنبيه الملائكة على ما أراد الله من التفضل على عبده الحامد لأجلّ تصبره على المصائب وعدم اعتبار ذلك من الضرر، بل عدّه إياها من النعم الموجبة للشكّر ثم استرجاعه وأنه هو نفسه ملك لله وإليه مصيره، وليس شيء يُضر به الإنسان أغلى عليه من الولد، لذلك فإن الله تعالى جعله فرع شجرة الإنسان، ثم ترقى إلى ثمرة فؤاده أي نقاوة خلاصته، فإن خلاصة المرء الفؤاد، فحقّيق لمن أصابه هذا الضرر وفقد تلك النعمة فتلقاها بالحمد، أن يكون هو محمودا وحتى المكان الذي يسكنه في الآخرة هو بيت أسمه بيت الحمد، فهذه الأضرار والأسقام والمصائب لا يثاب عليها لأنّها ليست بفعل اختياري كعمل الخير والتطوع في النوافل والصدقات وما إلى ذلك من غير العبادات المكلّف بها، بل هو من الصبر على الضرر، فهو إنّما نال ذلك البيت بحمده واسترجاعه لا بمصيبته، وإنما ثواب المصيبة يكفر الخطايا، وظاهر ترتيب الأمر ببناء البيت على الحمد والاسترجاع معا أنه لو أتى بأحدهما دون الآخر لا يبنى له شيء وعليه فكان القياس في وجه التسمية أن يقال سموه بيت الحمد والاسترجاع، لكن الأقربّ أنّ

[771] صحيح مسلم، ج 13، ص 143

الخصلة التي يستحقّ بها ذلك إنما هي الحمد على الضرر الذي أصابه، وذلك أنّ "موت الأولاد فلذ الأكباد ومصابهم من أعظم مصاب وفراقهم يقرع القلوب والأوصال والأعصاب، يا له من صدع لا يشعب يوهي القوي ويقوي الوهي ويوهن العظم ويعظم الوهن مر المذاق صعب لا يطاق يضيق عنه النطاق شديد على الإطلاق لا جرم أنّ الله تعالى حث فيه على الصبر الجميل ووعد عليه بالأجر الجزيل وبنى له في الجنّة ذاك البناء الجلّيل"772 وأما تقوية الصبر على المصيبة التي تنزل بالإنسان من الضار جلّ شأنه فهي أطماع النفس في فوائد المجاهدة وثمراتها في الدين والدنيا بالصبر على الضرر، وذلك بأن يكثر فكره فيما أعد الضار جلّ جلاّله للصابرين المتبصرين في حسن عواقبه في الدنيا والآخرة، لذلك فالخليفة بما أوتي من علم وما اتصف به من صفات فهو أعظم النّاس صبرا وأكثرهم جلّدا وأبعدهم نظرا وخيرهم روية لما يحمل من الحلم في التعامل مع الضرر لعلمه بالنفع الذي يعود عليه من هذا الضرر لأن ثواب الصبر على المصيبة أعظم ممّا تحدثه من الضرر في عاجلّ الدنيا وآجلّ الآخرة، لذلك فإن الخليفة لا يراوده شكّ، ولا ينتابه قلق من أي ضرر يلحقّ وذلك لعلمه بأنّ ما ادخره له في الآخرة خير ممّا فاته في الدنيا، وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان وقوّته، وقوّة الإيمان يعبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر، وأقل ما أوتي النّاس من النعم هو اليقين وعزيمة الصبر على الشدائد وتحمل نزول الضرر، وأعظم النّاس إيمانا ومعرفة بأن الضار لا يريد بعباده إلا خيرا هم أهل اليقين، وهذا لا يتأتى إلا بالتسليم بالقضاء والقدر والطاعة التامة للضار بما يضر به من ضرر لكلّ ضار ومضر سبحانه جلّ جلاّله، فهو بما يضر نافع، لذلك وصف الله

[772] فيض القدير، ج 1، ص 564

تعالى هؤلاء وأولهم الخليفة ومن سار على نهجه بأنهم أصحاب حظ عظيم حيث قال تعالى: {وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ}773 وذلك أن الخليفة صارت الهموم عنده هما واحدا وهو الله تعالى، ثم غلب ذلك على قلبه، حتى أصبح له مجال في الفكر والتأمل بالباطن في ملكوت السّماوات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى ما ليس لغيره، ولو سؤل الخليفة ما الصبر على المصيبة؟ لأجاب على البديهة بأن لا تبث، أي لا تبث شكّواك لأحد وإنما تصبر وتحتسب وهذا منتهى الصبر على الضرر النازل بك من الله تعالى، ألا ترى يعقوب عليه الصّلاة والسّلام عندما عوتب من أبنائه في حزنه على يوسف عليه الصّلاة والسّلام قال: {قَالَ إِنَّمَا أَشكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ}774، وهذا دليل على أنّ الخليفة لا يشكّو لأحد، ولا يطلب من أحد تخفيف لوعه إلا لله تعالى، فهو يعلم أنه ليس له إلا الله يتضرع إليه ويشكّو له همومه صعبها وسهلها وصغيرها وكبيرها وعظيمها وجلّيلها، وما يستطيع كتمانه منها وما لا يستطيع، لأنه يدرك من حسن ضرر الله وابتلائه لعباده، سعة الرّحمة والمغفرة ما لا يدركه غيره، فالثقة بالله تحيي الأمل وتبعث على الطمأنينة التي تحول الضرر إلى نفع والمصائب إلى نعم، ولا شيء يقوى على الضرر مثل الصبر، وهو على ثلاثة أوجه: الوجه الأوّل: صبر على أداء الفرائض لله تعالى.

الثاني: صبر عن محارم الله تعالى.

---

773 فصلت 35

774 يوسف 86

الثالث: صبر في المصيبة عند الصدمة الأولى، والصبر على المصيبة أفضل من الصبر عن المحارم وعلى الفرائض، لأن الصبر على الفرائض والمحارم من أحوال المسلمين، والصبر على المصيبة من مقامات اليقين، وإنّما فضل المقام في اليقين على مقام الإسلام لعموم والخصوص وذلك أنّ أهل اليقين من عموم المسلمين، وليس جميع المسلمين من أهل اليقين الذين يصبرون على الضرر، ويدلل على ما نقول دعاء النبي صلّى الله عليه وسلّم: "اللهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، اللهم ارزقني من طاعتك ما يحول بيني وبين معصيتك، وارزقني من خشيتك ما تبلغني به رحمتك، وارزقني من اليقين ما تهون به علي مصائب الدنيا"775. فأحسن النّاس صبرا عند المصائب أكثرهم يقينا وأكثر النّاس جزعا وسخطا في المصائب أقلهم يقينا، فلا يصبر على هذا إلا الموقنون وهم خصوص المؤمنين الذين تمكن اليقين في قلوبهم، فصار هذا المؤمن بمقامه أفضل من عموم المؤمنين، فالصبر على ضرر الأوجاع والمصائب وإخفاء ذلك من الذخائر النفيسة عند الله تبارك وتعالى، ومن الصبر على الضرر هو ضرر الفقر وإخفاؤه وصونه وعدم التشكّي لغير الله، والصبر على بلاء الله تعالى في طوارق الفاقات وهي من ضر الامتحان، وصفة القول أن الذي يبتغي أعظم الأجر من الضار عندما ينزل به الضرر يتمسك بأنواع الصبر، فصبر على المصيبة، وصبر على الطاعة، وصبر على المعصية، وأعظم الضرر ما جاء من مصيبة لأن كلّ شيء يبدو صغيرا ثم يكبر إلا المصيبة، فإنها تبدو كبيرة ثم تصغر، فاشترط لعظم الثواب لها عند أول كبرها قبل أن

775 المستدرك للحاكم، ج 4، ص 482

تصغر وهي في صدمة القلب أول ما تبتغيه المصيبة، لذلك فإن الضار جلّ جلّاله أعطى الأجر لمن صبر على الضرر.

وعليه، فالضار هو النافع جلّ جلّاله، فهو الضار بما يضر وبمن يضر، وفي هذا نفعا لمن يريد إحقّاق الحقّ وإزهاق الباطل، والخليفة الضار هو الذي يؤكد الحقّ ويعمل على إحقّاقه، وهو الذي يقدِم على كلّ ضررا ليضره في مهده قبل أن يلحقّ ضرره الآخرين، ولهذا فالخليفة يصلح، والذي يريد للأضرار أن تتفشى بين النّاس هو المفسد في الأرض، وهنا تكون المواجهة بين من يريد ضررا بالعباد وبين من يريد إلحاق الضرر بما يضر العباد، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ ربّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجّيلٍ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ}[776]. فالحمد لله الضار الذي أنقد الكعبة قبلة الموحدين، بضره لمن أتوا من الحبشة برئاسة أبرهة الحبشي الأشرم ليخربّ قبلة المستخلفين فيها بالحقّ، محاولة منه وظنا بأنه سيطفئ نور الله ولكن أتم الله نوره بالرغم من كره الكافرين، قال تعالى: {يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحقّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كلّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ

[776] الفيل 1 ـ 5.

أَنْصَارُ اللَّهِ فَآَمَنَتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آَمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ} 777. والحمد لله ربّ العالمين.

777 الصف، 8 ـ 14.